الإعفاء المستثنين

27

إمامة الجهميين

(419 هـ - 478 هـ)
(1771 م - 1836 م)

الدكتور محمد الزهبي

والعلامة

يโต
الطَّبَعَةُ التَّأريخَةُ
1406 هـ-1986 مـ
الطَّبَعَةُ الـكَاـئِنَـية
مُنْقَـحَـة
1412 هـ-1993 مـ
جَـمِـعَـةُ الطَّـبَعِ مَـجْـفَوْظَـة

رسـ. مـاـجـرانـيـ ص. بـ : 4053 - مـالــتـ: 477
بيرـتـ. ص. بـ : 113/95 - مـالــتـ: 432.86
هـذَا الرَجُل

دِياء مفيد أهل المشرق والمغرب، أنت اليوم الإمام الأئمة، لقد استفاد من علمك الأولون والآخرون.

تتمتعوا بهذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان.

الشيخ أبو إسحاق الشيرازي

صرف الله المكاره عن هذا الإمام، فهو اليوم قرة عين الإسلام، والذاب عنه بحسن الكلام.

شيخ الإسلام أبو عثمان الصابوني

هو إمام عصره، ونسيج وحده، ونادرة دهره، عديم المثل في حفظه وبيانه وسلامه.

الحافظ أبو محمد الجرخاني

لو أدعى الإمام الحرمين اليوم النبوة، لاستغني بكلمه هذا عن إظهار المعجزة.

الاستاذ أبو القاسم القشيري

الفقه فقه الشافعي، والأدب أدب الأصمعي، وفي الوعظ الحسن البصري.

البخارزي في دمية القصر

«ما رأيت عاشقًا للعلم في أي فن كان مثل هذا الإمام، فإنه يطلب العلم للعلم.

أبو الحسن المجاشعي النحوي

3
ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه،
وأكثرهم تحقيقاً، بل الكل من بحره يفترفون، وأن الوجود ما أخرج بعده
نظرًاء.
ابن السبكي

فخر الإسلام، إمام الأئمة على الإطلاق، خير الشرعية، المجمع على
إمامته شرقاً وغرباً، المقرّ بفضله من السراة والحدثاء، عجماً وعرباً، من لم تر
العيون مثله قبله، ولا ترى بعده.

الحافظ ابن عساكر

وأعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي على الإطلاق، المجمع على
إمامته.

ابن خلكان
الحمد لله الذي أنعم علينا بفضله ما لا نحصيه، وأمرنا بالشكر ليزيدنا
من نعمه، وبديمها علينا، اللهم يا ربنا - لك الحمد كما ينبغي لجلال
وجهك، ولعظيم سلطانك، اللهم إنا لا نحصي ثناء عليك كما أثبتت على
نفسك.

والصلاة والسلام على رسول الله ، المبعوث رحمة للعالمين،
الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره
المشركون، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وجاد في الله حق
جهاده، وربى أمة خالدة، وعلّم جيلاً من الصحاة العلماء الذين كادوا من
فحؤهم أن يكونوا أبنائنا، ثم حق بالرفيق الأعلى، اللهم صل وسل وبارك
على هذا النبي الكريم، وعلى آل وصحابه أجمعين، وعن التابعين ومن
تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فإن من بوادر الخير لمستقبل هذه الأمة أن تنمسك بدينها
الحنفية، وشرعها القويم، وأخلاقها السامية، ومنها الاعتراف بالفضل
لأهله، واحترام الأبناء للآباء، والاستفادة من تجارب الآخرين، وسير الأحاديث
على نهج الأجداد إذا كان سليماً وناجحاً، لأن العاقل من أن يعجب بغيره، كما
أن من دواعي الشقاء والبلاء أن يلعن آخر الأمة أولها، وينكر الفضل لأهله،
ويتم الازدراء مقابل الجميل، وتنقطع الصلة بين الطبقات، وتبغثر أواصر
المودة والتعاون والإخاء.
ومن بوارق الأمل أن إقبال الجيل الجديد، والشباب المثقف، على تراث الآباء، وسيرة الأجداد العطرة، والارتداء بعنوانهم الثروة، ويظهر ذلك بالتوجه نحو الكتاب الإسلامي عامة، وتراجع السلف العظام خاص، والتعلق بسلسلة أعلام المسلمين على وجه أخص، مما أدى إلى نفاد الطبعة الأولى من هذا الكتاب، اعتراضاً بفضل الجريني رحمة الله، وتقديراً لمكاناته، وشغفاً بعلمه، وتطمعاً إلى كتب وإنتاجه، ودعت الحاجة إلى المطالبة بالطبعة الثانية التي نقدمتها للفارئ الكريم على الصورة الأصلية، مع تحصيح الأخطاء المطبعية، وتفتيح بعض النقاط، والاستفادة من بعض ملاحظات الأحبة والزملاء الذين أضروا إلى إلينا ذلك مشكورين وماجورين.

ونسأل الله تعالى أن يرد هذه الأمة إلى رشدها وعقلها ووعيها ودينها وشريعتها، وأن يأخذ بيدها إلى الصلاح والرشاد، لتعود إلى كتاب ربها، وشريعة الإسلام، فتحلى بشرف الدنيا وعزة ومجدها، وتفرز بسعادة الآخرة، والحمد لله رب العالمين، الهادي إلى سواء السبيل.

الديورفو--النريجي
وكييل كلية الشريعة للشؤون العلمية
بجامعة دمشق
دمشق 12 ربيع الأول 1410 هـ
12 / 10 / 1989 م
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد، وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وقديمة المؤمنين، والمعبر
رحمة للعالمين، وعلى آله وصحابته الكرام البررة، وعلى العلماء العاملين،

ومن سار على نهجهم أجمعين.

الله ين تأمل السداد فيما نقول، ونوعذ بك من القول فيما لا نعلم،

كما نوعذ بك من العجب فيما نعلم.

وابعد:

فقد كان رسول الله ﷺ ترجمة عملية للقرآن الكريم، وكان الإسلام
يتحرك به، ويتبادر في أقواله وأفعاله وسلوكه وصرفاته، ولذلك وجب على
المؤمنين الاقتداء به، واتباع سيرته، فقال تعالى: {أَلَوْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أَسْوَاتٌ حَسَنَةٌ لَّمْ كَانَ يَرْجُو اللَّهُ وَالْيَوْمِ الآخَرِ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب/21)، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّنَا نَحْنُ نَجْعَلُ اللَّهَ فَاتِبَاعُهُ نَحْيَةً} (آل عمران/31).

والتالي: يعفوكم الله، يغفر لكم ذنوبكم، والله غفور، رحيم.

والصحاباء والتابعون والعلماء هم ورثة رسول الله في هذه الصفات،

وهي تطبيق الإسلام، ووجوب الاقتداء والابتعال، قال رسول الله ﷺ: {عليكم}
بَسِّتْي وَسَنَتِي الخَلَافِينَ الرَّأْشَدِينَ منْ بَعْضِي، عَضُوا عَلَيْها بِالنَّوَازِعِ(١)؛ وَقَالَ عَلَى الصَّلاةِ وَالسَّلَامِ: «أَصَحَابُهُ كَالنُّجُومِ، فِيَّهُمْ اقْتِدَيْتِ اهْتَدَيْتُمْ(٢)»، وَقَالَ: «العَلَمَاءُ وَرُوْثَةُ الْأَنْبِيَاءِ(٣)»، وَوَرَّدَ فِي الآخِرِ: "وَعَلَّمَ أَمْتِي كَأَنْبِياءِ بَنِي إِسْرَائِيلِ(٤)"، أَيْ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَالَّذِينَ عَلَّمَهُمْ عَلَى دِينِهِ وَشَرَعِهِ، وَالَّذِينَ تَطَبَّقُوا فِي الأَخْيَارِ وَالْأَفْكَارِ وَالْبَلَاغَةِ، لِيَكُونُوا مِنَارَةً لِلَّنَاسِ، وَمَشَاءُ اللَّهِ، يُضِيَّقُونَ أَمَامَهُمْ الْخَيْرَ، وَوَعَرَوْا لِلَّذِينَ أَتَمُّنُوهُ، وَنَمَذِجٌ سَلَحَةٌ لِلْمَتَّضِحِينَ وَالْفَتَّاحِينَ وَالصَّمُودِ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَقِيدَةِ(٥).

إِنَّ الأَطْلَالَ عَلَى حِيَاةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْوَرَعِ يَسْتَنْهِضُ الْهُمْمَ فِي اقْتِفَاةِ آنَاثِهِمْ، وَيُسْتَنْزِلُ الْرَّحْمَةُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ سَفِيَانُ الثُّورِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: "عَنْ ذِكْرِ الْصَّالِحِينَ تنْزِلُ الرَّحْمَةُ(٦)"، وَهَذَا يُبْعَثُ عَلَى الْبَحْثِ وَالْحَدِيثِ، وَالْكِتَابَةِ عَنَّ الْأَشْهَرِ الْأَعْلَامِ، وَالْعَلَّمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَاَلْفَقْهَاءِ الْمَجَتَّهِينَ، وَالسَّلِفِ الصَّالِحِينَ، وَالْقَادِئِ الْبَاطِينِ.

كَمَا نَهْدِفُ مِنْ هَذِهِ الْدِّرَاسَةِ تَحْقِيقُ أَمْرِهِ:

الْأَوْلِيُّ: بِيَانِ الأَثَّارِ العَمْلِيَّةِ لِلْتَرْبِيَةِ الإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيَّةِ وَالسَّلِيمَةِ، وَالْقَوِيَّةِ الَّتِي تَعْمَدُ عَلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالسَّنَةِ الْشَّرِيفَةِ، لَانَ الْأَلْتَزَامُ بِتَعَالِيمِ الْإِسْلَامِ فِي الْتَرْبِيَةِ يَبْخَرُ الْرَّجَالِ، وَيُبْقَى الْأَبْطَالُ، وَيْنَشَئُ العَلَّمَاءُ وَاَلْأَثِيمَاءُ، وَاَلْأَعْلَامُ، لَانَهُ مَهْجُ أَلْهَيْهِ، وَقَدْ تَرِى عَلَى هَذَا الْمَهْجُ جِيلُ الْقُرْآنِ مِنَ الْصَّحِبَاءِ وَاَلْبَاطِينِ، وَمِنْ سَلِكِ نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

---
(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوْدُ وَأَبُو طُمْرِشُ وَصَحِحَهُ وَأَبِنِهِ وَاَبِنِ حِيَانِ وَاَبْنِ الْأَحْمَدِ وَالْحَاَكِمِ عَنِ الْأَرْبَعِيَّ.
(٢) رَوَاهُ الْبَهَيجِيُّ، وَأَسْنَدْتُهُ الْبَدْرِيُّ عَنِ الْأَبِيسِ.
(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوْدُ وَأَلْبَارِيَّ وَأَخَرَّيْهِ عَنْ أَبِي الْأَدْرَامِيِّ مَرْفُوعًا.
(٤) اْنْظُرُ: كَشْفِ السُّحَايَةِ ٢٦٨٣.
(٥) اْنْظُرُ: كَشْفِ السُّحَايَةِ ٢٩١/٢ و٢٠١/٢.
(٦) اْنْظُرُ: كَشْفِ السُّحَايَةِ ٩١/٢.
الأمر الثاني: إبراز الصفات والأخلاق والسيرة الحميدة لهؤلاء الأعلام، ليكونوا قدوة لغيرهم، ومشاعل النور للبشرية، ومنارات الهدى للشباب المسلم، فيتبعوا أثرهم، ويستفزوا من أعمالهم، وتكمل بهم الحلقة، ليكونوا خير خلف لخير سلف.

ومن هؤلاء الأعلام إمام الحرمين الجويني - رحمه الله تعالى - الذي يعتبر منهاً لمن بعده في ناحيتين:

الأولى: الناحية العلمية، وذلك بأن يستفيد العلماء والطلاب من علمه وكتبه ومصنفاته وأقواله وأقواله التي دوّنها في كتبه، وألقاها في دروسه، وسطّرها في مؤلفاته، وتركها لمن بعده.

الثانية: الناحية العملية، وذلك بالاستفادة من تربيته ونشائه وأخلاقه وسيرته ومكاناته التي كانت محط الأنظار في الاستقامة والعبادة وحسن المعاملة.

والإمام الجويني هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، ولد بنيسابور، وتربى في حجر العلم والعلماء، وأكبر على الدراسة والاجتهاد، وطاف البلاد، ورحل إلى بغداد، ثم يمم وجهه شطر الحجاز، لأداء الحج في مكة المكرمة والزيارة في المدينة المنورة، وكان في ذلك شأن المسلمين الذين يقظون البقاع المقدسة، وخطر له أن يجاور فيها مدة، كما يجاور المثات والألوف، فانتقل على عمله في التدريس والتعليم والمناظرة مع العلماء المقيمين، والعلماء الواقفين للحج، فيبرز عله، وتألق نجمه، حتى أجمع الناس على علمه شأنه، ورفع منزلته، وأطلقوا عليه لقب: "إمام الحرميين الشريفين" ثم رفع إلى بلده ليتولى منصه التدريس، ويتبوأ مركز الصدارة، ويلتتح ريادة اللوجية، ويمارس المناصب الدينية والدستورية، فحقق خلافة الله في أرضه، ونفذ وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بورة البيوتة، وضرب المثل الأعلى في كل ذلك، وصار إمام الأمة في الفقه والأصول وعلم الكلام والجدل والمناظرة والأدب، تدريساً ومناظرةً وتصنيفاً، وأصبح كعبة يقصده العلماء والطلاب ليجلسوا بين يديه، وينهلوا من عله، ويأخذوا من كتبه ومؤلفاته.
التي خلفها لمن بعده، فبقي دائم الذكر، طيب الآثر، ينتفع الناس به على مر الأيام والأزمان، وتوفي في بلده قبل أن يكمل السنين من عمره، وما يدل على مكانته العلمية أن فقهاء الشافعية إذا أطلقوا لنظرة الإمام في كتاب الفقه فأتي بهن。

هذه اللحظات السريعة، والآثار العظيمة دفعتنا لمعرفة سيرة هذا الرجل العظيم، واستكشف معالم حياة هذا الإمام الفذ، لكشف الطريق الذي سلكه نسير عليه، وتبني سيرته الحميدة فنقدي بها، ونصل إلى علمه فستفيد منه.

ولم يخلُ كتاب قديم في الترجم والرجال والطبقات والتاريخ إلا وترجم لحياة إمام الحرمين الجموحي رحمه الله، ولكن لم يفارها أحد بالبحث فيما نعلم.

أما في العصر الحاضر فقد تنبه العلماء إلى عظمة هذا الإمام، وعظمته كتبه ومولفاته، فاتجه علماء مصر إلى نشر كتبه منذ نصف قرن، فطبع كتابه بعيث الخلق في اختيار الأحق، عام 1352 هـ/1934 م، ونشر العلامة محمد زاهد الكوثرى كتاب العقيدة النظامية بمسر سنة 1367 هـ/1948 م، كما أثارت مؤلفات الجموحي عقلية المستشرقين، فنشر المستشرق الفرنسي لوسياني كتاب الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الأعراف عام 1930 م بخط مغربي، ثم قام الدكتور محمد يوسف موسى والاستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد بتحقيق هذا الكتاب على عدة نسخ خطية، ونشره وطبعه في القاهرة عام 1950 م، ثم نشر جزء من كتاب الشامل عام 1381 هـ/1961 م على يد المستشرق الألماني كلوفر، كما نشر هذا المستشرق كتاب العقيدة النظامية مع ترجمتها إلى الألمانية، وفي عام 1965 قامت الدكتورة فؤاد محمود بدراسة كتاب الإمام الحرميين، وسجلت كتابه ومع الأدلة، رسالة للحصول على الماجستير في الفلسفة، وفي ذلك الوقت أفردت حياة الإمام الحرميين ببحث مستقل، ونشرته في سلسلة أعلام العرب، وعرضت سيرة الجموحي وما يتعلق بكتبه وإنجازه ومؤلفاته، ثم
خصصت أكثر من نصف الكتاب عن الدراسة الفلسفية لإمام الحريمين، من خلال ثقافته وكتبه في علم الكلام.

وإذا نختلف معًا في الهدف والوسيلة، وفي المنهج والخطة، وذلك أنها حصرت بحثًا تقريبًا عن إمام الحريمين من الناحية الكلامية والفلسفية، فعبرت آراءه الكلامية، وفلسفته الخاصة، واستغرق ذلك معظم الكتاب، وnginx على كل شيء، حتى عند عرض كتب الفقهية والأصولية كانت تستشهد بالبحث والتصامحات والنصوص التي تنصي بالكلام والمنطق والفلسفة، وأغفلت شخصية إمام الحريمين الفقهية والأصولية، وجاهلت مكانتها في الدعوة والتوجيه والإرشاد، وابتعدت عن ترنيته وسلوكه وأخلاقه الحميدة، التي برز بها، وكانت ذات تأثير حاسم في جيله وثامنته، وأصبح فيها في مكان القدرة والأسوة، كما سئري.

وقد يصدمن القارئ عندما يراها تصنف بعض كتبه الأصولية في الكتب الفقهية بالعكس، وأنها ذكرت كتاب «العقيدة النظامية» مخطوطة، مع أنه طبع ونشر منذ نصف قرن.

والممثرة شخصية إمام الحريمين الجرينيي بالظهور، واجتهد الأنظار إلى بقية كتبه النافعة، ومصنفاته المفيدة القيمة، فطبع كثير منها كالإرشاد، والجزء الأول من الشامل، والبرهان في أصول الفقه، وغياث الأمم في الياث الظلم، وسوف نعرض كل ذلك تفصيلًا إن شاء الله في هذا الكتاب عن حياة إمام الحريمين وسيرته وآثاراته، كعلم بارز من أعلام المسلمين، وداعية من دعاتهم، وإمامًا من أثهتهم، ومثالًا أعلى من السلف الصالح لهذه الأمة المباركة.

دراسة الأعلام تفرض على الكاتب - غالبًا - منهجًا تاريخيًا معينًا، فسير مع الشخصية من المهد إلى الالحد، ويضطر ليام اسمه ونسبه وأصله وتتبع خطواتها في النشأة والتكوين والدراسة، ويتع معه في حياته الخاصة والعلمية، ويعرف على مكانته، ثم يتابع السير معه، لمعرفة آثاره وإنتاجه، ليحظ به الركب مع نهاته وموته، وثناء العلماء عليه، وفوق كل ذلك فلا بد...
للباحث أن يقدم نبذة عن العصر الذي عاش فيه صاحب الشخصية، فييْن
الحالة السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية والمذهبية التي سبقت ولادته،
ثم عاصرته، وعاصرها، لأن الإنسان ابن بيته وعصره، يتأثر به، ويؤثر فيه،
يأخذ منه ثم يعطيه.

ولهذا قسمت البحث إلى تمهد وسبعة فصول وخاتمة.

بحث في التمهد عصر إمام الحرمين من النواحي السياسية
والاجتماعية والعلمية والثقافية والحضارية والدينية، وذلك في خلال القرن
الخامس الهجري.

وفي الفصل الأول عرضت سيرة إمام الحرمين، فذكرت اسمه ونسبه
ولادته، وكتبه، ولقبه، وأسرته، وتربته، وطبه للعلم، والعلوم التي
اكتسبها وحصلها وأتقنها، ثم رحلته إلى العواصم والمدن، خروجه عن
نمسابور، وختمت الفصل بذة مختصرة عن أهم شيوخه.

وفي الفصل الثاني بَيْنَت إنتاج إمام الحرمين وآثاره، مع عرض سريع
لأشهر تلامذته.

وفي الفصل الثالث شرح حال إمام الحرمين في علم الكلام، مِنْيَأ
نشأة هذا العلم وأصله ومكانته وبواعث ظهوره، ومشاركة الأئمة والعلماء فيه,
ثم سردت كتب إمام الحرمين في علم الكلام وأصول الدين والعقيدة,
وختمت بلمحة عن آراء إمام الحرمين في علم الكلام.

والفصل الرابع خصصته لإمام الحرمين وعلم الفقه، وبيّن فيه كتب
الإمام في الفقه، مع بيان مجمل عن كل كتاب في مضمونه ومآله في عصرنا
الحاضر، وأفرد كتبه "غيات الأمم" بالتوسعة، لأنه يمثل الفقه السياسي
العام الذي انفرده به إمام الحرمين مع عدد قليل من العلماء.

وفي الفصل الخامس ألقى الأضواء الكافية عن إمام الحرمين وأصول
الفقه، وبيّن أسسية الإمام في هذا المجال، وذكرت كتب الأصولية، مبينًا
مضمونها ومآله في العصر الحاضر.
وفي الفصل السادس أفرد عالم الخلاف وعلم الجدل اللذين أصبحا تقريباً في ذمة التاريخ، مبيناً تعريف هذين العالمين وشانهما، وأهميتهما، والأهداف التي تحققها، ومشاركة العالماء عامة، وإمام الحرمين خاصة بهما، وذكرت كتب إمام الحرمين في هذين العالمين.

وفي الفصل السابع عدت إلى حياة إمام الحرمين الخاصة من الجانب العملي والسلوكي، فذكرت مكانة إمام الحرمين وشمانه وأوصافه وأخلاقه ومناصبه واعتراف العلماء بفضله وثناؤهم عليه.

وفي الخاتمة سردت خاتمة إمام الحرمين في مرضه ووفاته، وخاتمة الكتاب في الدروس والعبير التي نستفيداها من هذا البحث.

وقد اعتمدت في هذا الخصوص على المراجع القديمة، والمصادر الأصلية وكتب التاريخ والترجمات والرجال، وتبعت مصنفات إمام الحرمين في الفهرس العامة، ووقفت عند كل جزء بالتفريع وبيان الفوائد والعظات، مع التركيز على نقاط التأسيس والاقتداء، واعتمدت على تحليل النصوص، والمقارنة بين الروايات والأخبار، وإن وجدت في حياة إمام الحرمين مأخذاً، وهو نارد، عرضت موقف الإسلام، لبقي شرع الله هو المعيار والميزان، وهو الصراف الذي ينبغي التمسك به والالتجاء إليه، وليكون الحق هو المقياس للرجال، دون أن يكون الرجال والأشخاص مقاساً للحق.

نسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لما يحب ويرضاه، وأن يسد خطاناً، وأن يلهمنا رشداً، وأن يعلمنا ما يغفنا، وأن يغفنا بما علمنا، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، إنه سميع مجيب.

دمشق في غرة رمضان 1404 هـ / الموافق 1/6/1984 م.

الدكتور سعيد أحمد
النَّهْضَةُ في:
عَسَرَ فَرَكَانُ الأَحْمَدَيْنَ

الإنسان ابن بيتها، يتأثر بها ويؤثر فيها، يتفاعل مع ظروفها، ويتنازل مع أصدقائها، وقد تفرض البيئة على المرء منحى معيناً، واتجاهًا خاصًا في التربية والتعليم والتوجيه والتدريس والتأليف والتصنيف، وهذا يحتم علينا أن نلقي ضوءًا على عصر الجويني، وما سبقه وما عاصره في النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية والمذهبيّة، حتى نستطيع أن نفسر ما يعتبر من قضايا ومشاكل وأحداث.

ولد إمام الحرمين سنة ۴۱۹ هـ، وتوفي سنة ۴۷۸ هـ، أي كانت ولادته ووفاته في القرن الخامس الهجري، وهذا نستعرض أحداث هذا القرن من النواحي السابقة السياسية والاجتماعية والدينية والعلمية والمذهبيّة.

أولاً: الناحية السياسية:{1}

تتميز أحداث القرن الخامس من الناحية السياسية بأن شطره الأول كان تكملة لأحداث القرن الرابع الهجري، ثم تغير شطره الثاني وكان مقدمة

(1) انظر المراجع التالية: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، مجلد ۹، البداية والنهاية، ابن كثير: حـ ۱۲۴، تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، حـ ۱۱۴، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، آدم مزت، مختصر تاريخ العرب، سيد أمير علي، تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضيري، الجزء الثالث، التنبؤ والإشراف، المسعودي، البدء والتاريخ، المقدسي، الجزء السادس، تقويم البلاد، البلاغي، محاضرات في تاريخ عصر الخلافة العباسية، للمرحوم الدكتور يوسف العش.
لظروف القرن الذي يليه، ولذا فإن الحديث على النصف الأول من القرن الخامس يقتضي أن يكون مقرناً مع القرن الرابع.

بلغت الدولة الإسلامية الوراثة السياسية والإدارية في نهاية القرن الثاني الهجري، في عهد الرشيد والأمويين، وحافظت -غالباً- على البقاء في القمة خلال القرن الثالث الذي شهد عمليات المماليكي والجزر، فانفصلت بعض الأقاليم والأقطار، وتناوب على السلطة خليفة قوي ثم خليفة ضعيف، وظهرت الدولة الطولونية بمصر، والصفراء في سجستان، والطاهرية في فارس، والساسانية فيما وراء النهر، والأغليان والأدارسة في شمال إفريقيا، بالإضافة إلى الدولة الأموية في الأندلس، وكانت بعض هذه الدول والأقطار تراجع تنضم إلى الدولة الأم في بغداد، لتعود إليها هيئة الخلافة من جديد.

ثم سار التصدع الحقيقي في القرن الرابع الهجري، وحلّ الضعف والتلاصق فيها، وانفصل أكثر حكام الولايات عن مركز الخلافة، واستقلّت أكثر الأقطار، ووجهت جيوشها وقتها ضد الخلافة العباسيّة أحيانًا، وللتقاتل فيما بينها أحيانًا أخرى، وأهم هذه الدول الفاطميين في مصر، والحمدانيون في حلب والموصل، والبوهيين في فارس والعراق، والعزّوبون في الأفغان والبنجاب وما وراء النهر، ثم ظهر في منتصف القرن الخامس السلاجقة فيما وراء النهر وفي فارس ثم بغداد والشام، وهذه نبتة قصيرة عن كل منها.

1- دولة بنو بويه: ظهر بنو بويه في بلاد الدلم، شمال قروين، ويفتح المؤرخون في أصلهم ونسبهم، وكانوا ثلاثة إخوة ظهروا فجأة على مسرح الأحداث، بعد أن تولوا بعض الولايات، فقاموا فيها سلطانهم، ثم مددوها إلى بلاد أخرى فاستولوا على فارس والجبلان وهمدان، وشكلوا دولة بني بويه، ثم اتجهوا إلى العراق فعلمهم الخليفة المستكفي، وكانت أحمد بن بويه، وفتح له أبواب بغداد، وله المستكفي بمعز الدولة، وأعطي أخيه ألقابًا آخر، وأصبح لهم النفوذ والسلطة المطلقة، وامتنع حكمهم في بغداد من سنة ١٣٣٤ هـ إلى سنة ١٤٤٧ هـ، وتعتبر دولة البوهيين من أقوى الدول التي ظهرت في هذه الفترة.
ويتصف حكم اليهود بالشدة والقسوة واقتداع الأراضي واقتسام الوراثات والأموال والاعتداء على الأفراد، بل والتعذيب على الخلفاء وانتقاص حقوقهم وتجريدهم عن سلطانهم، وكان بنو بوية يتمتعون المذهب الزيدي ففكروا في إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية شرعية شديدة مكانها، ثم عدلوا عن ذلك سياسة، وخوفاً من النتائج، ولكنهم تصرحو وراء الخلافة العباسية لتنفيذ أمرهم، وضبط نفوذهم، وامتداد سلطتهم على حساب الحمدانيين، والتصرف في جميع شؤون الدولة، ولم يتركوا للخليفة إلا الاسم والظهر الخارجي مقابل التظاهر باحترامه، وكان عدم تمسهم على الحكم والبران عليه سبباً في تدهور الوضع، وضعف موارد الدولة، وفساد النظام، وانتشار الفساد، واضطراب الأمن، وظهور الشكاوى، وقيام الثورات، وقويت حركة العبارين في السطو والنهب والغصب والسرقة، وتطلع الشعب إلى النهاية، وبحث عن الخلاص دون أن يجد إليه سبيلًا، حتى جاء السلاجقة، ودخل طغرل بك بغداد، واستقر فيها، وأسس سلطانه على أنقاض البوهيين، وقضي على آخر سلاطين بن بوية، الملقب بالملك الرحيم سنة 447 هـ، وكان محمود الغزني قد قضى على سلطان البوهيين في الربانية 420 هـ.

2- دولة الحمدانيين: ينسب الحمدانيون إلى قبيلة تغلب العربية التي كانت تستوطن الموصل والجزيرة، وكان حمدان متفاجأ في ماردين، واشتعلت السياسة والتحالف مع الخوارج، فحاربهم الخليفة المعتصم، وهرب حمدان، ثم ظفر به الخليفة وسجنه، ثم أطلقه، بعد أن حارب ابنه الحسين بن حمدان مع الخليفة وقضوا على الخوارج، فأفرحوه مع إخوته، وبدأ نجمهم يتألق، ونشبت شهرة الحمدانيين، ولهما دوراً كبيراً في الأحداث السياسية، وقويت إمارة الموصل وجبل، وانقسموا إلى قسمين الأول في الموصل، وقد امتد حكمهم إلى الجزيرة ودير بكر، ثم وقع الاصطدام بينهم وبين بن بوية في بغداد، فانصراً البوهيين عليهم، فاستمر الحمدانيون في الموصل تحت نفوذ البوهيين، أما القسم الثاني من الحمدانيين فكانوا في حلب برئاسة سيف الدولة الذي استولى عليها عام
333 هـ، وأقام فيها دولة مستقلة منفصلة عن بغداد، ولعب دورًا عظيماً في ذلك الزمن، وحاول الاستيلاء على دمشق ومصر، فأرسل إليه الأخشيد من مصر جيشًا بقيادة كافور، فحاوره، وانتصر عليه، ورد عدوه من دمشق، واستمرت المناوشات بينه وبين الفاطميين الذين أقاموا دولتهم في مصر، كما وقفت الدفاعات الهجوم مع الروم، وكانت الحرب بينهم سجالًا، ولم يسلم من مواجهة الفاطميين الذين توجهوا نحو حلب، فاستنجد الحمدانيون بالروم الذين ردو الفاطميين عنها، ثم ضعف الفاطميين ووقع النزاع بين الحمدانيين والقواد، وقامت الحرب الأهلية بينهم، فاستعانوا بالفاطميين وطلبوا الحماية منهم فدخل الفاطميون حلب، وأنهوا حكم الحمدانيين فيها، سنة 394 هـ.

ويتسم حكم الحمدانيين في حلب بأنه حكم عربي شيعي، يمثل النحوكة العربية، والكرامة، وجعل من حلب مركزًا للعلم والحضارة والثقافة، وأعلن الحرب والجهاد بقوة وحزم على الروم، وحقق انتصارات باهرة، ولكنه لم يستطع أن يمدّ نفوذه إلى المناطق المجاورة، ولهي مقاومة عنيفة متّع عاصمه في بغداد ومصر والشام، فحاصرها في رقعة بسيطة، ثم تمكنوا من القضاء على هذا الحكم الذي لم ينثر للسنين من عمره.

وهانتان الدولتان: بنو بويه، وبنو حمدان، وبنو شيعيتان، استقلت بالأمر، ولكن بقيتا خاضعتين للخلافة العباسية عن طريق الاعتراف بالخلافة، خلافاً للفاطميين الذين انشقوا عن بغداد، وأقاموا دولتهم لمنافسة الخلافة العباسية ومناهضتها وعدم الاعتراف بها.

3- الدولة الفاطمية: هي طائفة من الشيعة السبعة، بدأ الدعوة لهم ميمون القداح الذي وضع حجر الأساس لحكم الفاطميين، مع الشك في نسبتهم الصحيحة إلى فاطمة الزهراء رضي الله عنها، ولذلك رفض الشيعة والعلويون الاعتراف بسلالة الفاطميين، كما أثار ذلك القُرَآنة السبعة، ولكن وصولهم إلى الحكم قضى على كل ذلك، وسمى أنفسهم بالفاطميين، اختار ميمون القداح الذي سمي نفسه فيما بعد بمحمد الطب.
السلامية مركزاً لدعوته إلى المهدي المنتظر من أولاد محمد بن إسماعيل، واتجهت الدعوة في العراق والشام نحو القوة والعنف باسم القرامطة، فتبناها لذلك ابن رئيس الدعوة - وهو عبد الله بن ميمون القداح الذي ترأس العمل - فتحالف مع القرامطة في الشرق، وأرسل أحد دعاتيه - وهو أبو عبد الله الشعيبي - إلى المغرب، ثم التحق به ليسكن مع قبيلة بربرية قوية آمنت بالدعوة الفاطمية، وتعهدت بحملها، وكان المغرب قد انتشرت فيه أفكار الشيعة عن طريق الأدارسة، ثم استطاع أبو عبد الله أن يستولي على الفيروان، ويهزم الأغالبة في تونس، ويؤسس دولة فيها سنة 296 هـ، واستلم عبد الله بن ميمون القداح رئاسة الدولة، وسمى نفسه أمير المؤمنين، وأنه خليفة المسلمين، ودعا نفسه أنه المهدي المنتظر دون أن ينكر عليه أحد هناك لعدم معرفتهم بأصله، وبنى مدينة المهدي سنة 308 هـ، واتخذها مركزاً له ولجيشه كما فعل المنصور في بغداد.

واتجه عبد الله نحو المغرب فحارب الأدارسة في المغرب، وغلب عليهم، ودخل مراكش، كما حارب الخوارج المنتشرين في بلابل البربر، وقضى عليهم، ثم توجه نحو مصر لإقامة خلافة عامة تحلى محل خلافة العباسيين، فاستولى جيشه على الإسكندرية، ثم التقى بالجيش العباسي بقيادة مؤنس فانهزم الجيش الفاطمي، واضطر للرجوع إلى المغرب، ولكنه لم يتأسس، بل تولت الحملات على الإسكندرية، وخاصة بعد وفاة الأشخيد وكافور، واضطراب الأمور في مصر، وظهور الأزمات الاقتصادية، وتهديد القرامطة لها من الشرق، واشتغال العباسيين بحرب الروم، عندئذ جهر المعز الفاطمي جيشاً بقيادة جوهر الصقلي، وأرسل الدعاء قبله إلى مصر لنشر العبادة الفاطمية، وإعطاء الآمال الجسيمة، والأمني المريضة للناس، واتجه جوهر إلى الإسكندرية، ففتحت له أبوابها بدون مقاومة، ثم جاء، وقد من الفساط للمفاوضة، فتم الاتفاق على دخول الفاطميين مصر صلحاً مع توقيع الاتفاقية بينهم، وكتابة المعهد لهم، وقاومه نفر قليل من الجيش فغلب عليهم وسحقهم ذبحاً وقتلاً، وتم له الاستيلاء على مصر سنة 358 هـ.

وأراد جوهر مدَّ نفوذه إلى الشام والحجاز، فارسل جيشاً إلى سوريا،
واستولى عليها وأحرق أسواق دمشق، وتلت الخطة للخليفة الفاطمي فيها سنة ٣٥٩ هـ، وبنى جوهر مدينة القاهرة، وأرسل إلى الخليفة المعز يستقذه إليها، قدم سنة ٣٦٢ هـ، وأصبحت مصر مركز الدعوة والخلافة الفاطمية، واستمروا في التوسع حتى قضاو على الحمدانيين في حلب، وفرضوا سيطرتهم على الحجاز، وأسسوا دولتهم المترامية الأطراف، وبدأوا ينافسون الخلافة العباسي في كل شيء، وعاش ملكهم نحوًا من مائتين وسبعين عامًا.

ويصف العصر الفاطمي بانتشار ظاهرة الأئمة والعظماء، والظاهر بالتسامح مع الشعب، وزيادة العمران وأبناء الخلافة والقواد والجيش، وانتشار دور العلم لنشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية مع الترتيب الدقيق لأنظمة الحكم والدعاوين، كما يتصف الحكم بالاعتماد على اليهود والنصارى، وكانت الطبقة الحاكمة معزولة عن بقية الشعب، بينما يتمتع الجيش بالنفوذ والسلطة، وهو مؤلف من فتيين متفاوتين، فاؤد ذلك مع الزمن إلى التقاتل والتناحر على السلطة، مع تسرب الضعف إلى الدولة، وتولي الأطفال والصغار سدة الخلافة، واستمرار الحروب الخارجية مع الدول المجاورة، واستياء الفاطميين على كثير من أراضي الدولة الفاطمية، فانهار الحكم، فتحالف مع الفاطميين لحماية، ثم نجأ إلى القائد الزنكي شيركو، فأذى صلاح الدين الأيوبي إلى مصر، واستلم الحكم بعد شيركو، ثم نقض الخلافة الفاطمية، وقضى على المذهب الإسماعيلي سنة ٥٣٧ هـ، ووحد بين مصر والشام ثم قاتل الفاطميين وطردهم من بيت المقدس، وحُرّر البلاد والأعداء.

الدولة الفينيقية: وتسمى دولة بني سكيبكين، وهم جماعة من الموالي الأتراك الذين أقاموا دولتهم في غزنة بأفغانستان، ثم امتدت إلى بلاد الأفغان والبنجاب، واستمرت من سنة ٣٥١ هـ إلى سنة ٥٨٢ هـ، وبدأوا بالعمل مع السامانيين الفرس، ثم استقلوا عنها، وشرعوا بتناولهم والنزاع

(١) انظر: النجوم الزاهرة، ابن تغري بريدي /٣ و ما بعدها، الناصر صلاح الدين، للدكتور عبد الفتاح عاشور ص ٧٥.
معهم، ويعتبر سبكتكين هو المؤسس الحقيقي للدولة الغزونية الذي مد سلطانه إلى الشرق على البنجاب وإلى الغرب فاستولى على خراسان وما وراء النهر والهند، ثم تعاون مع السامانيين ضد بني بويه واستولوا على نيسابور التي تولَّها محمود بن سبكتكين الذي استلم السلطة فيما بعد، ويعتبر من أشهر رجال هذه الدولة بل من أشهر أعلام الإسلام، ووسّع نفوذه إلى سنجستان والهند، وقضى على حكم السامانيين في خراسان، وأزال حكم البويهيين في الري وأصباه، وبلاد الجبل، وحارب السلاجقة، كما حارب أبناؤه وأحفاده السلاجقة، وطردوهم من خراسان بمساعدة طغرل، ثم عقدوا الصلح معهم.

وتمتاز الدولة الغزونية بأنها كانت على المذهب السنوي، وتتبع المذهب الشافعي، وتعتبر بالخليفة في بغداد، وتعلن الجهاد لنشر الإسلام في كل مكان، وكان لهم الفضل في دخول الإسلام إلى الهند، وحاربوا أهل البدع والأهواء كالمعتزلة والجهمية والفرامطة والإسماعيلية وأتباع الفاطميين، ولذلك عمل الفاطميين في مصر على استمالة محمود الغزوني ودعوته إلى فكرتهم فلم يستطيعوا تحقيق ذلك، ثم زالت الدولة الغزونية على يد شهاب الدين الغوري سنة 582 هـ، فتداعى سلطانهم في الهند، وانقسموا إلى أسرات مستقلة.

5- الدولة السلجوقية: وتهيمنا دراسة هذه الدولة من عدة نواح، فقد لعبت الدور الأول في خراسان ونيسابور موطن الإمام الجُويبي، وأثناء حياته، وقضت على دولة البويهيين في العراق وفارس، ويعتبر دخول السلاجقة إلى بغداد جدًا فاصلاً في الخلافة العباسية، فانقلت من دور إلى دور آخر استمر معها حتى سُقطت بغداد على يد الثوار عام 659 هـ.

والسلاجقة جماعة من الأنراك الغزَّ، يتسببون إلى سُلجوقي بن تُباق، الذي ظهرت أمارات النجاح عليه، فقره ملك الترك، وقبَّله «بقائد الجيش» ثم خاف على نفسه منهم، وعرز على قتله، فعلم سُلجوقي بذلك، فهرب مع جماعته إلى بلاد الإسلام، واعتق الدین الحنفي، وصح إيمانه واستقر في
تركستان، وأخذ يغير على بلاد الأتراك الكفار ويضمنا للدولة الإسلامية، فظهرت قوته فاستنجذ به السامانيون لمساعدتهم ضد الأتراك، وساهموا في الجهاد وفتح البلدان، ومع نجهم، وبرز منهم أرسلان بن سلجوق الذي ظهر نفوذه في بخارى، وشارك ميخائيل بن سلجوق بالغزو، ثم مات سلجوق وابنه ميخائيل، فلَّأت الزعامة أولاد ميخائيل، وخاصة طغرل بك، فدانت لهم العشائر بالطاعة، وبدأت المناوشات والحروب بينهم وبين محمود الغزنوي، فانتصروا عليه وعلى ابنه مسعود عدة انتصارات فيما وراء النهر، واستولوا على مقاليد الأمور، وسيادة المدن والأقطار، واستمروا من نصر إلى نصر، ودخل طغرل بك نيسابور ومر وسربخن، وخطب له فيها في شعبان سنة 429 هـ، ولقب بالسلطان المعظم، وملك الملك، وجلس للمظام في نيسابور، ثم دخلها ثانية عام 431 هـ فسكن الناس إليه، وبدأ السلاجقة يتقدمون إلى بلخ وجرجان وطربستان وخوزستان والري وقزوين وهمدان، حتى سيطروا على شرق الدولة العباسية بأكملها، وأقاموا حكمهم فيها، وعيّنوا نوابهم على الأقاليم المختلفة، ثم اتجهوا إلى العراق، ووصلوا مشارف بغداد، وأرسل طغرل بك رسالة إلى الخليفة، وكانت أحوال بني بوبه قد ساءت، وتفرقت كلمتهم، وزالت من القلوب هيتهم، ولم يستطيعوا حفظ الأمن في الداخل، ولا رَدِّ العدو من الخارج، وعُبِّث العصاة والمتمردون بعزاومة الباسوري في العراق، وهددوا الخليفة، فارادوا تقويض دولة بني العباس وضمنها إلى الفاطميين بمصر، وأيد البويهيين في أواخر أيامهم الباسيري للانضواء تحت الخلافة الفاطمية، وإلغاء الخلافة العباسية، وهو ما كانوا يهددون به العباسيين باستمرار، فاستنجذ الخليفة العباسي القائم بالسلاجقة وكتب إلى طغرل بك مستغيثاً، فلتم نداءه، ودخل بغداد بنفس الطريقة التي دخلها أحمد بن بوبه من قبل، وأظهر طغرل بك الطاعة والولاء إلى الخليفة، وقضى على آخر سلاطين بني بوبه وهو الملك الرحيم، وذلك سنة 447 هـ، فانقرضت دولة بني بوبه، وظهرت دولة السلاجقة الفتية الجديدة، التي بقيت في السلطة والنفوذ حتى سقوط الخلافة العباسي على يد التتار.
وتمتاز دولة السلاجقة، وخاصة في عهدها الأول في القرن الخامس الهجري (445 هـ - 545 هـ) بزعامة تغلبك وأُلْبَ أَرْسَلَان وملكشاه، بمعايزات هامة، فقد اتسم سلطانهم حتى فق سلطان البيت الغزني ودولة بني بويه، وامتد ملكهم في عهد ملكشاه من حدود الصين شرقاً إلى أقاصي بلاد الشام غرباً، ومن البلاد الإسلامية في الشمال، إلى جنوب بلاد اليمن، وقضوا على دولة بني بويه والدولة الغزنية وانتصروا على الفاطميين وأخذوا منهم بلاد الشام، وحزرا منهم الرملة وبيت المقدس، ودحروا الروم في عقر دارهم، وانتصروا علىهم انتصاراً ساحقاً، وأسروا أمراءهم وملوكهم ثم عفووا عنهم، وأدى الأباطرة لهم الجزية في عهد ملكشاه(1)، كما قضوا على الفئن الداخلية والثورات الباطنية، والحركات الانفصالية، وأعادوا للدولة العباسية الهيبة والاحترام والوقار، ووحدوا السلطة، ووسعتوا رقعة الخلافة، وفتحوا أقطاراً كثيرة، ودخل أهلها في الإسلام، وكانت معاملتهم للمعهده وشعب جيدة، فكانوا يجلسون للمطامع بأنفسهم ليردوا الحقوق إلى أصحابها، وازدهرت الحياة في عهدهم، وشعروا العلم والعلماء، وقام نظام الملك بفتح المدارس في كل مدينة، وكان وزيراً لأُلْبَ أَرْسَلَان وملكشاه، لتشجيع العلم ونشر الحضارة وتوزيع دراسة العلوم الدينية والعقلية، وإعادة الحياة الإسلامية، وشرح عقيدة أهل السنة والجماعة، وتدريس مذاهب الأئمة الأربعة، ومعالجة الأفكار الدخيلة، والعقائد الباطنية، وآراء الشيعة والفرق الأخرى، يقول الدكتور حسن إبراهيم حسن: (إلى السلالة يرجع الفضل في تجديد قوة الإسلام، وإعادة تكوين وحدته السياسية) (2).

هذه لمسحة موجزة عن الدول التي كانت قائمة في القرن الخامس الهجري، وكانت تلقي ظلالها وأثارها على مركز الخلافة العباسية في بغداد، وعلى النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية في نيسابور - موطناً إمام الحرمين الجويني -، وضف إليها الدولة الأموية في الأندلس والدولة الزيدية.

(1) مختصر تاريخ العرب ص 270.
(2) تاريخ الإسلام، له: 4 ص 27.
في اليمن وبلاد الديلم، تكثفي بالإشارة إلى هاتين الدولتين لبدهما عن بغداد ونيسابور من جهة، ولضعف تأثيرها على الصورة العامة لعصر الجوري أو موطنها من جهة أخرى.

هذه صورة سريعة للناحية السياسية في القرنين الرابع والخامس ويضاف إلى كل ذلك تلك الحروب المشتغلة بين الدولة الإسلامية أو الدول الإسلامية وبين الروم البيزنطيين، فلم تبدأ أوارها ولم تخف سنتين من السنين، وكانت الحروب سجالاً بينهما، حسبما تكون الدولة الإسلامية أو الدولة البيزنطية في حالة قوة وهدوء ونفوذ واستقرار داخلي، كما يضاف إلى ذلك الحروب الداخلية بين هذه الدول والإمارات فيما بينها، والثورات والحروب مع الفرق المتعددة داخل الأقاليم كالقرامطة والمعطلة والخوارج واليسامعية والقاطمية والباطنية.

وباختصار فإن الدولة الإسلامية الكبرى قد انحلت في القرن الرابع الهجري، وتفتت إلى دول صغيرة، واستمر هذا الوضع إلى القرن الخامس عشر، الذي عاش فيه إمام الحرمين الجولي، وبعد موته بقبل توجه الصليبيون نحو الشرق، ووضعوا أقدامهم في أنطاكية ليتقلدوا منها إلى المدن والبلاد الأخرى.

وقد تولى الخلافة في عصر الإمام الجولي خليفتان فقط، وهما:

1- القائم بأمر الله، أبو جعفر، عبد الله، الذي ولي الخلافة بعد أبيه القادر بالله، أحمد بن إسحاق، بعهده منه، وكانت بعثته سنة 220 هـ وهو الخليفة السادس والعشرون من بني العباس، وقي خليفة 44 سنة حتى عام 267 هـ، وكان سلطانه ضعيفاً أمام مطالب القواد، ولم يبق للدولة والخلافة هيبة أمام الجند وقطاع الطرق والمصوص الذين سرقوا دار الخلافة، وكان تحت سيطرة ونفوذ بني يهود الذين يتصرفون في الأمور كما يشاؤون، ثم استنجد بالسلاجقة برئاسة طغرليك للقضاء على اليهودين.

وكان هذا الخليفة فاضلاً تقياً ورعاً عالماً متديناً كريماً يشجع العلم ويكرم العلماء، وكانت له مهارة خاصة في فن الكتابة، وشغف عظيم بعمل الخير وإقامة العدل.

24
2- المقتدي بأمر الله، أبو القاسم، عبد الله بن محمد بن القائم، وقد بعيت بعد وفاته جده سنة ١٦٧ هـ ويقب خليفة إلى أن توفي سنة ٤٨٧ هـ، واستمر في الخلافة ١٩ سنة وثمانية أشهر، كان قوي النفس، عظيم الهمة، أصلح كثيراً من الأحوال ببغداد، وهو من خيرة بنى العباس، وكان سلطان السلاجقة في عهده ملكشاه الذي كان عادلاً ذا فضل وإنصاف، شجاعاً مقدماً صائب الرأي والتدبير مشجعاً للعلم ونشر الحضارة والعمران والتقدم وفتح المدارس...
وكان نفوذ السلاجقة واضحاً في نيسابور وخراسان في عهد إمام الحرمين، وكانت الحرب سجالاً بين السلاجقة والبابيين في هذه البقاع في النصف الأول من القرن الخامس، فتارة ينتصر البابيون، ويتلون السلطان والسياحة، وبحاولون نشر ودعم آراء الشيعة فيها، وتأثر ينتصر السلاجقة ويبعدون الأمر إلى نصابها، وهذه الظروف القلقة، والحوادث المتوالية، وما يرافقها من فتنتين وتعصب وملاحة للعلماء والفقهاء أثرت على إمام الحرمين، ودفعته للهجرة عن بلده، والرحلة إلى بغداد ومكة والمدينة للدراسة والتدريس، كما سنرى.
ومن هذا العرض التاريخي السريع لعصر إمام الحرمين في القرن الخامس نرى أن الإمام عاش ببعضين مختلفين، فكان شبابه في عصر سياسي معين يسيطر بنو بويه على الخلافة فيه، وكانت كهولته وشيخوخته في عصر آخر، يسيطر فيه السلاجقة على بغداد وفارس وخراسان.
ولا بد من التنبيه أنه على الرغم من هذا الانقسام في الدولة، وانفصال الأقاليم فيها، وتعدد السياقات والحكومات، فإن وحدة الفكر الإسلامي بقيت سائدة، وإن الرأي العام يشعر بوحدة الوطن الإسلامي، وإن هذه الدول والأقطار والأقاليم تشكل من حيث الجوهر داراً واحدة هي دار الإسلام، وكان الأفراد والجماعات ينتقلون من قطر إلى آخر، ومن إقليم إلى إقليم، ومن دولة إلى أخرى في ظل الإسلام وتحت رايه وأحكامه وشريعته، بدون قيود ولا غرابة ولا إجراءات ولا مضابطات، مما أتاح للعلماء اللقاء على مائدة العلم وحلقات الدروس والبحث والمناظرة.
٢٥
ثانياً - الناحية الاجتماعية(1):

إن الناحية السياسية تعكس مباشرة وبسرعة على الحالة الاجتماعية، وتأثر فيها تأثيراً بارزاً، لأن الحالة الاجتماعية تناسب طرداً مع الحالة السياسية، وإن كانت لا تسير معها بخط متواز. كانت الحالة الاجتماعية في الدولة العباسية عامة، وفي بغداد خاصة، سبيئة في كثير من النواحي، وترك آثاراً متدود. فالتعليم أو الطمانينة تكاد أن تكون مفقودة في غالب الأحيان، والفوضى والفساد يعث في جنات بغداد وما حولها يظهر حركة العبابرين الذين هاجمو بغداد عام ٣١٥ هـ، وعاقلو فيها فساداً، وأعمال فيها النهب، والقرامطة يمارسون أعمال النهب والسلب، والقتل والعصب، في بلاد الشام، ويهودون مصر معها.

واللصوص والقتلاء يجلسون على قارة الطريق في بغداد، ومتي أرخي الليل سدوله سطوا على الدور والحوانية حتى أفصاهم الخليفة المعتضد (المتوفي سنة ٢٨٩ هـ) عن بغداد.

والاضطرابات السياسية والدينية والمذهبية منتشرة في كل مكان، وخاصة في نهاية عهد البهبيين في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، ولما استولى السلاجقة على زمام الحكم عملاً على نشر الوعي، وفتح المدارس، واستثمار الأمان، أو إعادة الهدوء والاستقرار والطمانينة إلى ربوع الخلافة الإسلامية، والقضاء على الفتن والعصبات الممقوطة.

وكان المجتمع يتألف من طبقتين: طبقة الخاصة، وطبقة العامة.
وتشمل الطبقة الخاصة أصحاب الخليفة، وذوي قرباه، ورجال الدولة البارزين، والأمراء والقواد والكتاب والقضاة وفقهاء العلماء والأدباء.

(1) انظر: الحضارة الإسلامية ١٣/١، ظهر الإسلام ٩٠/١ وما بعدها، ضحى الإسلام ١٧/١ وما بعدها، رجال الفكر والدعوة ٤٦ وما بعدها.

٧٦
وتشمل الطبقة العامة سواد الناس من باقي أفراد الشعب، وسائر المجتمع.

وكان الشعب يتركب من جنسيات مختلفة، وقوميات متعددة، كالعرب والأثراء والفرس والأكراد والهندوس، ولم يقتصر هذا التركيب على بغداد عاصمة الخلافة - بل كان يشمل معظم المناطق والمدن، لانتقال الناس والشعوب من منطقة إلى أخرى، واستقرارهم فيها، وأن تعدد الدول الإسلامية، واستقلال بعضها عن بعض، كان يقتصر على النواحي السياسية والعسكرية، بينما كانت الحدود مفتوحة، والجسور عارة أمام أفراد الشعب من جميع الطبقات، ويتقلدون بحرية كاملة من قطر إلى آخر، ويستقلون حيث يشاؤون، وكما يحلو لهم، بحسب ظروفهم الخاصة، فمثلًا هناك مجموعات كبيرة من قبائل عربية مشهورة كانت تقطن خراسان ومرور وما رواه النهر وغيرها من الأماكن.

وعلى الرغم من أن الإسلام لم يفرق بين شعب وشعب، وأمة وأمة، وقوم وقوم، بل جعل الجميع متساوين أمام الله تعالى، وصرف بالمبدأ الإلهي، والشعار الإسلامي في القرآن الكريم فقال تعالى: "أي أبا الناس، إنا خلقناك شعوياً وقبائل لتعارفوا، إن أكركم عند الله أتقامكم، إن الله عليكم خبر" (الحجارات/13)، وبيّن الرسول الكريم أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأنبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، فقال عليه الصلاة والسلام: "أي أبا الناس، آلا إن ربك واحد، وإن أباكم واحد، آلا ففضل لعربي على أعجمي، ولا لأنبيض على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى" (1)، وعلى الرغم من كل ذلك فقد ظهرت النعرات القومية، وبرزت بشكل واضح في زمن العباسيين، ورفع شأن الفرس أولًا، ثم علا مركز الأثراء، ووقعت اشتباكات كثيرة بين الأقوام، وامتلاكات القلوب حقدًا وضيغة وكراهة، وتميزًا وانفصالًا.

(1) رواه الإمام أحمد، (مسند أحمد 5/411).

27
ولكن هذا التماثل والتفاوت والعنصرية كانت منحصرة في رجال الحكم والجيش والولاية، ومن سار في ركهم، وتعلق بأذالهم، ولم يمد إلى أفراد الشعب وبقية الوعي، بل كان المعيار هو العلم والعمل، ولم يكن للجنسية أو القومية شأن في رفع من ارتفاع من العلماء مثلًا، ولا في إخذم ذكر من انطوى اسمه في التاريخ، فالعروبة لم ترفع الشافعي أكثر مما يستحق، والفارسية لم تنسف من شأن أبي حنيفة ومكانته التي تباهاها بعلمه وفضله واجتهاد، والعجمة لم تؤثر في مكانة البخاري ومسلم، ولم يخطر في ذهن العلماء أن يختاروا مكانًا أو قطراً لأنه عربي أو أعجمي، بل كانوا يرونون في قراءة نفوسهم، مع جماعهم المسلمين، أن بلاد الإسلام دار واحدة، ينتقلون فيها، ويرحلون في جنباتها، ويسترزون في أية أرض خصبة ينفعون منها، أو ينفعون فيها، وأكبر دليل على ذلك حياة إمام الحرمين، كما سنرى.

وكان الفرق المادي والبذخ والإسراف كثيرًا في العصر العباسي، وخاصة في قصور الخلافة والcerptاء والحكام، وبرز ذلك في الملابس والأطعمة والاحتفالات والصور والآثاث، بينما ظهرت علامات البؤس والفقر والظلم والعدوان على فئات أخرى، وكان العلماء وغالبية الناس ينعمون بالبيقين في الإيمان، والقنانة في الرزق، والزهد في الحياة، والوسطية في المعيشة.

وقف بعض الخلفاء والأمراء والحكام مؤقتًا مشترأ في القضاء على هذه المفاسد الاجتماعية، فالخلفاء المقتدى به (الموافق سنة ٤٨٧ه) نفى المغنيات والمفسدات من بغداد، وقام العلماء أيضاً بواجب الإصلاح والتتبع، والترويج والدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر في جميع أرجاء الدولة، كما كان أتباع المذهب الحنبلي في بغداد يقومون بدور الشرطي على العوام والخواص معاً.

وكانت طبقة الرقيق منتشرة في المجتمع، ولكن معاملتهم كانت جيدة بشكل عام، وخاصة إذا قرنت مع معاملة الرقيق وأحرازهم في بقية العالم، كما أن النظرية إليهم في المجتمع الإسلامي لم تكن متذينة بسبب الاختلاف الإسلامي، والتعليم الدينية التي وردت في معاملة الرقيق، منها قوله:
إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطمهم مما يأكل، وللبلاسا مما يلبس، ولا كلفهم ما يغلبهم، فإن كلفتموه ما يغلبهم فأعينوه" (١)، وكانت أغلب أمهات خلفاء بني العباس من الجوارى والإماء (٢).

وكان المجتمع يضم في جنباته أهل الديمة من اليهود والنصارى، وكانوا يمارسون الحرية الدينية، ويتعمرون بالتسامح الدنيي، ويشاركون في جميع الأعمال العلمية والاجتماعية، ويتولون مناصب بارزة، ويصلون إلى مراكز عالية.

وفي العصر العباسي انتشر الغناء وجماعات الطرب والموسيقى والعزف في القصور ودورات المواصع، ومنحت الرذيلة في العراق، وفسا شرب الخمر، وكثرت المواخير والphanات، وانحلت الأخلاق بين الفتيات الحاكمة والمستقلة في المجتمع، وفي رجال الجيش، وخاصة في بغداد، بينما كانت الجماهير تلتزم بالأحكام الشرعية عقبة وشريعة، ايمناً وسلوكاً، نظرياً وعملياً، وكان الناس يلتلون حول العلماء العاملي، ويقدمون لهم أسمى آيات الاحترام والتقدير والإجلال والحفاوة، وينتمون بارائهم وتوجيهاتهم، مما أوغن نفوس الحكم على العلماء فنكلوا بهم، وأنزلوا فيهم النوازل أحيانًا، بينما اتجهوا إلى كسب خواطرهم، وطلب مرضاتهم، والترقب إليهم، ورفع مكتاتهم، ويقدمون العطايا لهم في أحيان أخرى، فكانت مكانة العلماء رفيعة وسماوية على الصعدين الرسمي والشعبي، كما سئل ذلك في بحث مكانة إمام الحرمين الجويني.

ثالثًا: التحایة العلمية والثقافية والحضارية (٣):

بعد أن يطلع المرء على الحالة السياسية والاجتماعية في القرن

(١) رواه البخاري وهذا نظرة، ومسلم، (ابن): صحيح البخاري ٥٥، صحيح مسلم بشرح النووي ١٣٢/١١.
(٢) انظر: محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ٢٢/١٧.
(٣) انظر: ظهر الإسلام ١٠٩/٣، تاريخ الأمم الإسلامية ٣/٣، محاضرات في تاريخ الخلافة =
الخامس يتادرب إلى ذهنه صورة سوداء قائمة عن الحالة العلمية والثقافية والحضارية، وينهي النحتاط الحضاري، وفقدان الثقافة، وركود العلم، وندرة العلماء، وذلك أن هذه الأمور مرتبطًا غالبًا بالاستقرار السياسي وازدهاره، والانتعاش الاجتماعي وعدادته، ولكن الحقيقة خلاف ذلك تمامًا، وأن الناحية العلمية والثقافية والحضارية كانت في طريق معاكس للحالة السياسية.

فعلى الرغم من الوهن أو التسبيع الذي أصاب الدولة الإسلامية في القرنين الرابع والخامس، فإن الثقافة والحضارة، والعلم والتعليم بقي شامخ الألف، عالي الرأس، واستمر العلماء بجروح الأرض، ويكشفون المجاهيل، ويزودون بالمعارف والبحوث، ويفحرون النتائج، ويقطعون الثمار البائعة، ويقدمون للإنسانية قطوفًا دانية شهية في جميع مجالات الحضارة والثقافة والعلم.

ويعتبر التدريس على ذلك أن نذكر بعض النماذج التاريخية، فالفقه الإسلامي بلغ مرحلة النضوج والكمال في هذين القرنين، واستمرت المذاهب، وقام الفقهاء في كل مذهب بتدوين الأحكام، وتقعند القواعد، وتأسビル أصول الفقه، كما بلغت الترجمة أوجها، ونقلت الثقافات القديمة إلى اللغة العربية والبلد الإسلامية، وتقدمت العلوم المختلفة، كالطب والفلك والفلسفة والرياضيات والكيمياء، وظهر التنابغ في كل فن، كان سينا والغزالي والفارابي، ووصل الأدب إلى القمة، وانشرت النوادي الأدبية، وأندية الشعر في المحافل العامة والخاصة.

ويرجع السبب إلى هذه النهضة العلمية والثقافية إلى العوامل التالية:

1 - دعوة الإسلام إلى العلم بمختلف ميادينه، ورفعه مكانة العلماء، مما جعل العلم غابياً فيه ذاته، دون أن يكون مرتبطاً بالدولة والخلافة ورجال الحكم، وقد دعا القرآن إلى النظر في الكون، ودفع إلى المشاهدة واستعمال العباسية، العش ص 167، مختصر تاريخ العرب ص 253، 261، الحضارة الإسلامية 1/12، باقون الحموي ص 47 من أعلام العرب، تاريخ الأمم الإسلامية، محمد الخضري 3/3.
العقل، وحثًا على البحث في خفايا الأشياء للاستفادة منها، وفتح الأ yük العقول على طلب النفع والفائدة من أية جهة كانت، لأن الحكمة ضالة المؤمنين إليها وجمدها النقطها.

2 - اتجاه الدول المرتبطة بالخلافة، أو المستقلة عنها إلى تشجيع العلم والعلماء، لتتوذج أركانها، وتجذب الناس إليها، وتبادي غيرها، بل لنفسها غيرة، ولم تبق بغداد - عاصمة الخلافة - المركز الأساسي للعلم والعلماء، بل أصبحت معظم المدن والعواصم موطنًا للعلم والعلماء، ومركزا للبحث، وكان حكام الأقاليم، أو أمراء الدول المستقلة، يشجعون العلم، ويستطيعون الأموال على ذلك، ويقربون العلماء، ويقدمون لهم التسهيلات المادية، ويبعدون لهم المجالس العلمية والمناظرات، وتألقوا المدن الإسلامية بالعلم في دمشق وحلب والقاهرة وبيطار ونورسبر والأندلس.

3 - الاختلاف المذهبي للدول والإمارات، فكانت كل دولة تسبق مع الدول الأخرى في تشجيع العلم والعلماء لنشر آرائها الخاصة، ومذاهبها الفكرية والدينية كما سور في الحالة الدينية والمذهبية.

وإضافة إلى هذه الأسباب أن الحالة السياسية المتقدة، والفساد الاجتماعي، كانت محصورة تفصيلياً في الجهات الحاكمة، ومن بقرب منهم، وكان الانفصال شبه كامل بين الطبقة الحاكمة وبين معظم أفراد الشعب، كما رأينا ذلك سياسياً واجتماعياً، ومن هنا بقي البحث العلمي قوي الجانب، وكان الحكام بحاجة إليه، أكثر من حاجة العلم لهم، كما كان الحكام يلجأون إلى العلم، ويستعينون بالعلماء لبسط نفوذهم السياسي، وتأمين استقرارهم الاجتماعي، ورفع مكانهم بين الناس، وكسب رضا الخليفة، أو توفير الهيزة لهم أمام الأمراء والحكام الآخرين.

ولذلك بلغت معظم العلوم أوجها في القرن الرابع والعشرين الهجري، وتقدم الفقه والحديث والتصوف والرياضيات والفلسفة والطب والجبر والهندسة والمنطق والفلسفة والجغرافيا وال 역사، وقد ازدهرت هذه العلوم في القرن الخامس الهجري، وبرز فيها فطاق العلماء، والأئمة.
الكبرة والأدباء المشهورون، والشعراء البازرون، والطلاب في كل فرع من هذه الفنون، وكان لهذه الظاهرة العلمية الكبيرة أثرها في حياة إمام الحرمين، وتكون ثقافته، واسع أفقه دراسةً وبحثاً وتأليفًا.

وفي القرنين الرابع والخامس فتح المدارس بكثرة، وشاع لدى معظم المؤرخين أن نظام الملك المعاصر لإمام الحرمين الجوني أول من فتح المدارس للعلم والتعليم، لأنه فتح مدرسة رسمية في كل مدينة تقريباً، وكانت تسمى باسمه، مثل نظامية بغداد، ونظامية نيسابور، وكان يفتح المدارس، ويوصي لها المخصصات المالية، ويوفر لها الطلاب، ويعين لها العلماء الذين يغدق عليهم الأموال لنشر العلم، ويشجع تعيين أشعر علماء العصر للتدريس في هذه المدارس.

والواقع أن المدارس كانت موجودة قبل نظام الملك، مثل مدرسة البهقي في نيسابور، والمدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر بن سبكتين، وآخر السلطان محمود في نيسابور أيضاً، والمدرسة التي بناها إسماعيل الاسترازي الواقف في نيسابور أيضاً، والمدرسة الرابعة بنيسابور التي بنيت للأساتذة أبي إسحاق الإسفرايني (ت 418 هـ)، وأنشأ أبو حامد البستي (ت 544 هـ) مدرسة وألحق بها مكتبة ومسكنًا للغزاة بالمناخ، ورتب لكل منهم معاشًا، وأنشأ الشافعي لليسابوري مدرسة سنة 349 هـ، كما أنشأ الشافعي في طهران مدرسة شافية للحائتي سنة 362 هـ، وأنشأ أبو علي الحسيني مدرسة لتعليم الحديث كان ينقاد عليها ألف طالب سنة 393 هـ، وكان للشريف المرتضى (ت 355 هـ) مدرسة يجري على طلابها الأرزاق، وغير ذلك من المدارس، وأهمها الجامع الأزهر الذي بناء الفاطميين في القاهرة، وأن مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي هو أول من زعم أن نظام الملك أول من بني المدارس، ورد عليه السبكي وغيره(1).

(1) أنظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، 132/3، مقال نظام الملك والمدارس النظامية للدكتور يحيى الخشاب ص 545 من مجلة اللغة العربية، العدد الخامس.
هذا لا يقلّل من أهمية العمل الجبار الذي قام به نظام الملك، وهو الحسن بن علي بن إسحاق الطروسي (ت 485 هـ) الذي تولى الوزارة لألب أرسلان وملشاك، وبني المساجد والرباطات، والمدارس وغيرها (1).

يقول المرحوم يوسف العش: "شهد القرن الرابع والقرن الخامس نهضة في أرجاء العالم الإسلامي ارتقت إلى الذروة، وهي نهضة فكرية وأدبية وفنية، وقد أعطت الحضارة الإسلامية العربية خير ما عندها في ذلك نضحاً ورفعة... ثم يقول: "والحضارة الإسلامية العربية بعد هذا العصر تأخذ في التقهقر شيئاً فشيئاً"، ثم يذكر أمثلته في العهد البويهي في بغداد، والدولة الحمدانية في حلب، والقاطمية في القاهرة، وأن الشيعة أحضروا معهم وسائل الدعوة وهي العلم والكتب، ونشروا العلم في كل مكان، وأنسوا دور العلم، ووقفوها على العلماء، وأنفقوا عليها الأموال الضخمة، وقبلا في هذه الدور الستهين إلى جانب الشيعة، وغابتهم في ذلك أن يدخلوا في فكر السنة مذهب التشيع، لكن هؤلاء عرفوا الخطة، وعرفوا واجبهم نحوهما (2)، وكان هذا الأمر أحد البواعث الرئيسية لنظام الملك والسلامة.

ففتح المدارس لتصحيح الاعتقاد، ونشر الوعي الصحيح، وتعليم الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة وأهل السنة والجماعة.

وقد تعددت مراكز الثقافة والعلم والمدنية والحضارة في القرنين الرابع والخامس، وكانت مراكز الثقافة تشمل المسجد والزاوية والكتاب والمدرسة والمارستان وبيت الحكمة والمكتبات والرابط وديوان الإنشاء وبيوت العلماء وغيرها، ولم تنفرد بغداد بذلك، بل نافستها مراكز أخرى متعددة، مثل قرطة في الأندلس حاضرة الأمويين، والقاهرة بمصر، وفيخار عاصمة السامانيين الذين شجعوا العلم والأدب وصارت بخارى في عهدهم كعبة العلماء.

(1) انظر: طبقات الشافعية 312/4.
(2) محاضرات في تاريخ الخلافة العباسيّة ص 127.
(3) المرجع السابق، صفحة 186، 212. 213.
والأدباء، وأصبحها والري (1) مركز البوهيين، وكانت الري من مفاخر مدن الإسلام في القرن الرابع والقرن الخامس، وكان بها مكتبة كبيرة، ومشفى يدرس بها الطب، وكانت مركزاً لعلماء الحديث وعلماء الكلام، والقرآن والزهد، وخوارزم وغزنة مركز الغزنويين، ونسابور ومرور في شرق الدولة العباسية، وحلب حاضرة الحمدانيين، ودمشق في سورية.

وكانت المناقشة العلمية والسياسية شديدة بين العواصم والمدن الإسلامية، وكان الخلفاء والأمراء والملوك والسلاطين وحكام الولايات يشجعون العلم، ويكرمون العلماء، ويتناولون في ذلك، وكان الحكام المتنفذون في الأقاليم، والملوك المنفصلون عن بغداد، والأمراء المستقلون عن الخلافة، يلجؤون إلى العلم، ويتخصصون به، ويعملون على نشر الثقافة وفتح المدارس، لدعم ملكهم وسلطانهم بجميع مقامات الحضارة، والاستعانة بالعلماء والعلماء لتفوقهم أسس الملك.

كما كان عدد الفرق الدينية والمذاهب الفقهية والكلامية باعتياً لنشاط الحركة العلمية، وتأتي نارها في عصر الجوني، فقد استخدمت هذه الفرق والمذاهب العلم وسيلة لتحقيق أغراضها، واستعانت بالأساليب العلمية وفنون الثقافة والأدلة العقلية لنشر مبادئها والانتصار لها.

وهكذا نلاحظ أن الحياة السياسية والاجتماعية تزداد ضعفاً وسوءاً وغرفاً وانقساماً في هذا العهد، بينما كانت العلماء والثقافة وجوانب الحضارة تتألق وتزدهر، وتنتشر وتتقدم، وتركز هذه النواحي آثاراً واضحة في حياة إمام الحرميين وتكوين ثقافته، وتعزز مناحيها، وكثرة تأليفه في فنون مختلفة، كما سري رابعاً: الناحية الدينية في الفرق والمذاهب:

ظهرت بذور الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية في نهاية العهد

(1) انظر: الإعلام بمناقب الإسلام ص 10، 11.
(2) الري مدينة فارسية على بعد أميال قليلا من طهران، وهي الآن أطلال. (أحمد التقاسم ص 399، معجم البلدان 4/360).
الأموي، وتبليغت في الوجود خلال العصر العباسي، وقامت فعلًا في نهاية القرن الثاني الهجري، وأخذت هيكلها الكامل، واستقرت مبادئها في القرن الثالث، وانقرض بعضها في القرن الرابع، وبقي المهم منها حتى القرن الخامس.

فاللمذهب الفقهية كانت عديدة، والمجتهدون كثر في القرن الثاني والثالث، ومنهم المذاهب الأربعة: الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، ومذاهب التابعين كالحسن البصري والثوري وإبراهيم النحوي وحماد، ومذهب الليث بن سعد والأوزاعي وزيد بن علي وغيرهم، وغالب أكثر هذه المذاهب في القرن الخامس الهجري، واستقرت مذاهب الأئمة الأربعة، وشملت جميع الأقطار الإسلامية، وتركز بعضها في مناطق دون أخرى، وكان الخلاف بين أتباعها منحصراً في المجال النظري والمناظر والتأليف والتدريس، ولم يصل الخلاف إلى الانقسام أو القتال والتناحر والشجار، إلا ما كان من الحنابلة في بغداد، فإنهم كانوا يميلون الشرطي وحامل العصا على عدة جبهات، فتارة يوجهون ضد الأشاعرة عامة، وتارة ضد الشافعية، وتارة ضد أصحاب الأهواء أو البعد أو الصوفية في قلب بغداد، وكانوا في الغالب يهتمون بشغار الأمور، ويتسمكون بالجزئيات، ويغفلون عن عظام الأمور، ولا يقيمون وزناً لقضايا الأمة والخلافة التي كانت تعصف بها العصيانات، وتهددها الأخطار الداخلية من الفلسفية وماضية، والأخطار الخارجية من الروم والكفار على توفر الدولة الإسلامية، وأخطار الانقسامات والتجزئة وظهور الدول المستقلة في أرجاء العالم الإسلامي، فمن القضايا التي أثارها الحنابلة في بغداد، وأشعلوا فيها نار الفتنة أنهم حاولوا سنة 447 هـ من أتباع الإمام الشافعي من الجهر بسم الله الرحمن الرحيم في الصلاة، ومنع الترجيع في الأذان، ومنع القنوت في صلاة الفجر، وغضب فقهاء الشافعية، وتطور الأمر حتى وصل إلى حركة الصدام والاقتتال، فتراجع الحنابلة عن قولهم وفعلهم، وهذا الحال(1)، ومن ذلك ثورتهم على الخطيب البغدادي وتسليم بابه

(1) الكامل، لابن الأثير 200/8.
ومحاولة قتله لأنه ذكر الإمام أحمد بن حنبل بين المحدثين، ولم يذكره بين الفقهاء، وقيل لغير ذلك.

وكان الخلاف على أشده بين المالكية والظاهرية في الأندلس والمغرب الغربي، وكان ابن حزم الظاهري الفقيه والمحدث الأسولى على رأس الظاهرية، كما كان الخلاف والتعصب مستحكماً بين الشافعية والحنفية في العراق وخراسان وما وراء النهر، وبين الشافعية والمالكية في مصر، ولكن كان خلافاً علمياً، ومقتصراً على الكتب والتأليف والمناقشات وتأصيل الأصول وتقديم القواعد لكل مذهب، وبيان الحجج والأدلة والبراهين على ترجيح هذا المذهب على ذلك، وعرف ذلك بعلم الخلاف، وسوف نفصل الفصل في هذا الموضوع عند دراسة كتاب الجويني "إحاق الحق".

وفي هذا القرن خرج المعتزلة من حلبة السباق والنزاع والقتال الفكرى بعد أن تولى المعتزلة منذ القرن الثاني لواء الدفاع عن الإسلام شريعة وعقيدها من الجانب العقلي وفي علم الكلام والفلسفة، ومررت فترات طويلة كانت المعتزلة هي الفارس الوحيد في هذا الميدان لدفع الفلسفة الإغريقية التي كانت وراء دولة يزنطة والديانة النصرانية، وضد الفلسفات الفارسية والهندية واليونانية وما شابهها، أو تقريعاً منها من أدان ومذهب، وما سرب منها إلى الفرق والمذاهب، ولم تقتصر المعتزلة على إشاع السيف والجدل مع غير المسلمين بل سلطة استندت على أهل السنة والجماعة، وأفعت بعض الحكام والخلفاء بآرائها، وأمام فرضها بالقوة وإجراة الناس عليها، إلى أن ألمت رحلها في القرن الخامس نهائياً، ولم يبق للمعتزلة إلا مجال التأليف والكتابة ومحاولة الدعوة لآرائها بالإقناع والبحث والتدريس، ومع في هذا القرن كبار المعتزلة كأبو الحسن البصري (430 هـ)، والقاضي عبد الجبار (415 هـ)، وأبو يوسف القزويني صاحب التفسير الكبير (488 هـ)، والحاكم الجاشمي (494 هـ)، وأحيى بالمعتزلة من عدة جوانب، وارتفع التكبير عليهم حتى اضطر شيخ المعتزلة أبو علي بن الوليد أن يلزم التدريس.

(1) انظر: البداية والنهيّة 102/12، 115، 116، الحاكم الجاشمي ص 47.
في بيته خمسين سنة حتى توفى سنة 478 هـ، وبدأت ملاحة المعزولة ومشاركتهم على يد محمود بن سبيكتين سنة 420 هـ ببغزنة والري ونمسابور، ثم تابع السلالة وغيرهم ملاحة المعزولة، ومنعوه من الكلام والتدريس بالاعتزاز(1).

ولكن المعزولة تركت أثرها الظاهر عند الشيعة عامة، والزيدية خاصة، وتبنى آراءهم بنو بويه في بغداد وخراسان وما وراء النهر، كما اعتمد عليها الزيدية في اليمن وبلاد الديلم.

وكانت الصوفية قد انتشرت في معظم البلاد، وتسرب إليها كثير من الطقوس والشعائر والمظاهر التي تنافى مع الإسلام، ودخل في عقائدهم كثير من مبادئ الباطنية والزهد الهندي وتعليم الرؤية، وسررب إلى صفوهم المشبوهون في العقيدة والسلوك للتناغم من جهة، والتعبير بأحكام الشريعة من جهة ثانية، لذلك قام الفني إمام الصوفية وزعيمهم في القرن الخامس بتصنيف رحلاتهم المشهورة "رسالة الفشري" ليبين الطريق الصحيح للتصوف، ويلمح العقيدة الصحيحة للمسلمين، ي ينبغي كل ما علق في العقيدة والسلوك والمظاهر من أباطيل وسخافات وانحراف.

وكان الشيعة متنشرين في البلاد الإسلامية، واستطاعوا أن يفرضوا نفوذهم على أغلب بلد الإسلام، فأقاموا فيها دولًا وحكومات وحكمًا، كالفارسيين في مصر وشمال إفريقيا والشام، والحمدانيين في حلب والموصل، والهوبشيين في بغداد وشرق الدولة الإسلامية، والزيدية في اليمن والديلم، وكان النزاع بين الشيعة وأهل السنة دائمًا لا ينقطع، وكانت صورة تختلف، فتارة كان تزايدًا فكريًا هادئًا، ولكنه في أغلب الأحيان كان يقرن بالقتال والسفك والنهب والحراق، وإذا كانت السلطة بيد الشيعة فلا يعني ذلك أن الأمر مستتب لهم، أو مستقر في أيديهم، فقد كان أهل السنة لا ينامون على ضيم، ولا يقبلون آراء الفاطميين في مصر، وآراء الشيعة في

(1) انظر: الحاكم الجشمي ص 36 وما بعدها.
بغداد، ولا يسكنون عليها، وكذلك العكس، وكانت الحالة السياسية وامتلاك السلطة عاملًا محرّكًا لإيقاد نار الفتنة والنزاع، وكان الجيش أحيانًا منقسمًا إلى فرق بحسب قوميته ومذهبه، فصمد مع بعضه أحيانًا، ويفنى الخلاف أحيانًا أخرى، وتكررت الفتن بين الشيعة والسنة حتى صارت أمراً عادياً في بغداد وغيرها

وكان وراء هذه الفرق والمذاهب، وأخطر من جميع ما سبق، وأكثرها فتتاً وتهديدًا وخروباً فتن الباطنية الذين تسرعوا وراء الصوفية أو الشيعة أو وراء مذاهب كلاجئهم كالجهنمية والمجسمة والمشبهة وغيرهم، وعملوا على إفساد الدين، وتحريف الأحكام، وإدخال الفلسفات القديمة بين المسلمين، وادعوا أن نصوص القرآن والسنة لها ظاهر وله باطن، والباطن لا يعرفه إلا فئة مختصة، واجتمع حولهم ناس من نويعات مختلفة، ومن يزيد النار من الإسلام والمسلمين، أو يحمل الحقق على الخلافة العباسية، أو كرد فعل ضد الظاهرة، أو يتأثر بالغضب لآل البيت والشعبي، ولم يقتصر نشاط الباطنية وخطرها على الفكر والقول والدعوة، بل أصبحت مؤسسة سريّة إرهابية يخشى جانبه، وتمارس القتل والاغتيال، وتهديد العلماء والوزراء ورجال الحكم، وصارت الدول تحسب لذلك الحساب، وقلت على أيديهم العديد، منهم نظام الملك والحاكم الجشمي.

وكانت نيسابور موطناً إمام الحرمين الجويني تعجّ بهذه المذاهب والفرق والفلسفات، وكانت موطنًا للمعتزلة ودعوتها وتدريسها، ثم انتشر فيها مذهب الأشعاعرة، وظهرت فيها الفتن بين الشيعة وأهل السنة، وبين المعتزلة والأشعاعرة، ولم يستقر الأمر لمذهب الأشعري في بغداد ونيسابور إلا في نهاية القرن الخامس وأول القرن السادس، وتبني السلالة مذهب الأشعاعرة، ولكن بعد صراع مرير، وسبت متبادل مع المعتزلة، وشتم على المنابر، وتشير

(1) انظر: البداية والنهج 12/8/58، خطبه 66، 67، 68، الحاكم الجشمي ص 45، الحضارة الإسلامية 13/1، الجويني ص 34 وما بعدها.

(2) انظر: رجال الفكر والدعوة ص 143، 148، 151، الحاكم الجشمي ص 72.
وراء السلطة والحكم، وفي أول عهد السلاجقة، بالذات نقل إلى أول ملكهم طغرلبك أقوال غريبة وتفسيرات مشوهة عن أبي الحسن الأشعري فتحمل عليه. ونادى بتكفير من يقول بذلك، وأمر بسباب الأشعري على المنابر، وذلك قبل دخوله بغداد ما بين سنة ٤٤٣ هـ وسنة ٤٤٧ هـ، فثارت حفيظة الأشاعرة برئاسة القشيري والجويني وغيرهما مما أدى إلى خروج الجويني من نيسابور، كما سنرى ذلك في رحلاته، ومنع طغرلبك الأشاعرة من الوعظ والخطابة، حتى اجتمع بجماعة منهم، ودار الحوار والمناظرة بينهم، وبنى له آراء الأشاعرة في العقيدة والصفات، فتراجع عن ذلك، وقال: إنما لعنًا من يقول بتلك الآراء (١).

وباختصار فقد كان القرن الخامس وعصر إمام الحرميين مملوءً بالفرق والمذاهب، وكان الاختلاف سببًا في الفتن والنكبات، وفي الصورة المقابلة فقد أعطى القرن الخامس ثروة عظيمة وضحمة في الإنتاج والتاليف، وظهر فيه كبار العلماء والفقهاء الذين تركوا آثارًا خالدة، وبقيت بصماتهم محفوظة حتى اليوم، فمن الشافعية القتال المروري والقاضي حسين وأبو الحسن الماوردي والشيرازي والشيخ أبو عبد الإسفرايني واستاذ أبو إسحاق الإسفرايني والحليمي وأبو محمد الجويني وغيرهم، ومن الحنفية أبو عبد الله الدامغاني والقووري وأبو زيد الدبيسي، ومن الحنابلة القاضي أبو يعلى الفراء، والحسن بن حامد، وابن الناب، ومن المالكية أبو الوليد الباجي، وابن عبد البر القرطبي، ومن المعتزلة أبو الحسن البصري والقاضي عبد الجبار، ومن المحدثين الحافظ أبو بكر البهقي والخطيب البغدادي الحاكم النيسابوري، ومن علماء الكلام القشيري وأبو بكر الباقلاني، ومن الظاهرة ابن حزم الأندلسي، ومن الشيعة الشريف المرتضى وابن المعلم محمد بن محمد (٤١٣ هـ)، وغيرهم.

وإلى هنا نتهي من هذا التمهد عن عصر إمام الحرميين، من النواحي

(١) انظر: البداية والنهائية ١٩٤/٢، طبقات الشافعية الكبرى ٣٨٩/٤، ٢٠٠٩/٥، ١٧٠/٥، ١٧٦.
السياسية والاجتماعية والعلمية والثقافية والدينية، لندرك الظروف التي أحاطت
بسيرة الإمام الحرميين، والمؤثرات غير المباشرة في حياته، لنتقل إلى عرض
سيرته ونشأته وتربيته، ونخوض في حياته الشخصية من النواحي التربوية
والثقافية والعلمية، ونعرض علومه وتصانيفه وإنتاجه وتأثيره في الفصول
القادمة.
الفَصَّل الأوَّل
سيّرة إمَام الحرَمِين

نُعْرِض في هذا الفَصَّل نَبِّذة مَختَصرة عن سيّرة إمَام الحرَمِين الْجَوْنِيِّ، لَنْعُرِف شَيًّا من تَرْجِمته، وَنَتَلْعَب عَلَى نَشَأةِ وَتْرَبِيَتَه، وَعَلَى طَلْبِهِ لِلْعَلَمِ وَشَغْفِه
بَهْ، وَرَحَالَتِهِ لِتَحِصِيلِ الْعَلَمِ وَجِمْعِهِ، لِإِبْرازِ حَيَاتِهِ الْخَاصَّة، وَهَوْيَتِهِ
الشخصية. ۱)

اسمه ونسبه:

هو عَبْدُ الْمُلْكُ بِنَ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ يًوْسُفُ بِنَ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ يًوْسُفُ بِن
مَحْمَدُ بِنَ خَيْبَةٍ، الْجَوْنِيِّ، النَّبِسَابُورِيِّ.

وَيَنْسِبِ إمَامِ الْحَرَمِينِ إِلَى جَوْنِي وَنَبِسَابُورِي، وَهُمَا مِنْ بَلَادٍ فَارْسِ، وَفِي
شَمَالِ إِسْرَائِيلِ الْبِلَامُ، وَجَوْنِي نَاحِيَةٌ مِنْ نَوَايِيِّ نَبِسَابُورِ، وَتَقَعُّ عَلَى طَرِيق
القوافلُ مِنْ بَسْتَمُ إلى نَبِسَابُورِ، وَيَبْحَثُ مِنْ الشَّرْقِ مَدِينَةٍ «دَيْنِي»، وَمِن
الشَّمَالِ جَالِسًا، وَتَعْتُبِرُ جَوْنِي مَنْتَزِهً، وَمِنْ تَرْعَايَةٍ بَيْنَ جَبِيلٍ، فِي الْقَسْم
الشَّمَالِ مَجْمُوعَةٌ تُقْرَى صِفْرَةً، الْوَاحِدَةُ بَيْنَ الْأَخَرَيْنِ، بَيْنَ مَهِيدَ وَأَهْلِهِ.

۱) انظر ترجمة الجويني في: طبقات الشافعية الكبرى، ۱۶۵/۵، العقد الثاني، ۵/۷۵، وفيات
الأعيان ۲/۴۴۱، طبقات الشافعية للإنسوي ۴۰۹/۱، طبقات الشافعية لنِبْهان هدایة الله
ص ۳۵، تبيين كتاب المفتري ص ۲۷۸، المنتظم ۱۸۹/۹، روضات الجنان ص ۲۶۳ ط
حجر، المختصر في أخبار البشر ۱۹۶/۵، النجوم الباعرة ۱۱۱، الأعلام ۴/۳، معجم
المؤلفين ۶/۱۸۵، هدایة العارفين ص ۲۲۶، مفتاح السعادة ۲/۳۲۸، كشف الظُروِن
۱/۸۶، ۱۹۵، تراجم الرجال، الجنداري ص ۱۹، البداية والنهاية ۱۲/۱۸، شفاه
الذهب ۳۵۸/۳.
القسم الجنوبي الأفقي التي تسقي القرى، وتبعد جوين عن نيسابور عشرةَ فراسخ (1)، وتمتع أهلها بالشهرة والصيت الوعاع، وخرج منها عدد من العلماء، وقد فتحها يزيد الجرشي الذي بعثه عبد الله بن عامر بن كزير والي البصرة من قبل عثمان بن عفان رضي الله عنه، بعد سنة ٢٨ هجرية (٣).

أما نيسابور فهي مدينة عظيمة من مدن فارس، والعجم يسمونها "تشاور", فتحها المسلمون على يد عبد الله بن عامر في أيام عثمان رضي الله عنه، وبنى بها مسجداً، وقيل فتحها الأحنف بن قيس في أيام عمر، وانتقضت ففتحها عبد الله بن عامر ثانياً صلحاً، وتوسط نيسابور مناطق أهلها بالسكان، وتبعد عن "الأري" سنة عشر فرسخاً، وتبعد عن "سروش" أربعين فرسخاً، وكانت مركزاً للعلم والعلماء، كما سنبين ذلك، كما كانت عاصمة للحكام والولاية كما سبق، وتولت عليها النخبة، حتى خرج النثر من وراء النهر سنة ٥١٨ هـ، واستولوا على مملكة خوارزمشاه، فهرب الناس إلى نيسابور، وتحصنوا بها، فلحن بهم النثر، ونصبوا عليها المجانين، وحاصروا أهلها، وقتلواهم، ولم يتركوا بها حائطاً، وحرقت منزلهم، ولم يبق لها أثر (٣).

ونسبة إمام الحمرمين إلى جوين منحدرة له من والده الشيخ أبي محمد الجويني، الذي ولد فيها، ونشأ فيها، وأخذ الفقه والأدب عن علمائها، ثم رحل إلى نيسابور لطلب العلم، واستقر فيها للتعليم والتدريس والتأليف حتى ذاع صيته، وشاعت شهرته، كما سنذكره بعد قليل، وعزف بالجويني، وانتقل النسب إلى أولاده، وعرف إمام الحمرمين بالجويني.

أما نسبة إمام الحمرمين إلى نيسابور فذلك بسبب ولادته فيها، بعد أن استقر بها والده، وترعرع إمام الحرميين في نيسابور، وهله فيها العلم، وأقام فيها طوال حياته باستثناء أوقات رحلاته، ثم تولى فيها التدريس والخطابة (١) مراصد الإطلاع/٣٦٦٩، النجوم الزاهرة/١٢١، الأنساب/١٤٤/ب.
(٢) فتح البلدان ص ٥٠٠.
(٣) مراصد الإطلاع/١٤١١/٣، فتح البلدان ص ٤٩٩، ٤٩٩٠.
والوعظ في المسجد والمدرسة النظامية إلى أن مات، ودفنه فيها، كما سنذكره تفصيلاً.

وإن نسبة إمام الحرمين إلى جوين ونيسابور، وهما من أعمال خراسان، توجي بأنه فارسي الأصل، أو أعجمي، وأنه غير عربي، ولكن كثيراً من كتب التراجم والرجال تذكر في ترجمة أبي محمد الجوزي والد إمام الحرمين، أنه عربي الأصل، فقال ابن الجوزي: وأصلهم من العرب، من قبيلة يقال لها: سُبُسُّ، وقيل ابن الأثير: وهو من بني سُبُس، بطن من طيء، وقال ابن كثير: أصلهم من قبيلة يقال لها سُبُسُ، وقال ابن السككي: وعن الشيخ أبي محمد أنه قال: نحن من العرب، من قبيلة يقال لها: سُبُسُ، وهذه تقول كثيرة تدل على أن نسبة والد إمام الحرمين عربي، وأن إمام الحرمين من دم عربي أصيل، وإن الواقع التاريخي يؤكد أن عدداً من القبائل العربية قد انتقلت عند الفتح الإسلامي وبعده إلى خراسان وما وراء النهر، واستقرت هناك، بالإضافة إلى استمرار تنقل العرب المسلمين أفراداً وجماعات إلى جميع الأصقاع الإسلامية للدعوة والمعلم والتجاره والجهاد والاستيطان.

ولكن لم ننقل عن إمام الحرمين أنه افتخر بالأنساب للعرب، أو اتبع على هذا النسب، سواء صح نسبه من دم عربي أم لم يصح، فإن إمام الحرمين كان عربي الفكر، وعربي القلب، وعربي اللسان، وعربي العقيدة، وإن عشائر العلمنيات اليوم، ومنتظمة العلما في الماضي والمستقبل لن يبلغوا عرابة إمام الحرمين، ونقطة بالعربية، وتأليفه بالنصيبي، وبلاغته في الأسلوب، وسلامة كتبه وعلمه على قواعد العربية، وأن النسب في نظر إمام الحرمين، وفي موازين الدين والإيمان، والشرعية والإسلام، لا يقدم ولا

(1) المنتظم 18/9.
(2) الكامل لابن الأثير 3/354/9.
(3) البداية والنهائية 85/12.
(4) طبقات الشافعية الكبرى 74/5، وانظر: طبقات الشافعية للإسناوي 338/1، جمهور أنساب العرب ص 420.
يؤخّر، والله سبحانه وتعالى يقول: «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكركم عند الله أنتم كأجراد، إن الله عليكم خير» (الحجرات/13)، وبين رسول الله أنه لا فضل للعربي على أعمجي، ولا لأعمجي على عربي إلا بالقوى والعمل الصالح، كما سبق، وقال عليه الصلاة والسلام: إن الله قد أذهب عنكم غياب الجاهلية، وفرحها بالأباء، مؤمن نقي، وفاحر شقي، أنتم بنو آدم، آدم من تراب، ليدعو رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهونًا على الله من الجُعلان التي تدفع بأنفسها (1).

ولادته:
اختفى علماء التاريخ وتراجعت الرجال في وقت ولادة إمام الحرمين الجوسي، لكنهم اتفقوا على تاريخ وفاته.

فذكر ابن الأثير أن مولده سنة 410 هـ، ثم ذكر في نفس الصفحة أن مولده سنة سبع عشر وأربعمائة، ولم يوافقه على القول الأول أحد من العلماء (2)، وذكر ابن الجوزي أنه ولد سنة 417 هـ، وهذه الرواية أرجح من السابقة، ولقرب العهد بين ابن الجوزي والجوسي، ولان الجوسي أستاذ لشيخ ابن الجوزي مباشرة، وكثيرًا ما يقول ابن الجوزي في كتابه: «وروي عنه شيخنا زاهر بن طاهر الشحاشي» (3).

وذهب معظم المؤرخين إلى تحديد ولادة إمام الحرمين الجوسي في الثامن عشر من المحرم (4) سنة 419 هـ، الموافق للثاني والعشرين من شباط عام 1028 م.

(1) رواه الإمام أحمد وأبو داود عن أبي هريرة مرفوعًا.
(2) الكامل 145/16، ونقل ذلك عن الكامل ابن العداد في المختصر في آخبار البشر 196.
(3) المنتظم 8/18، وأيد ابن الجوزي في تحديد ولادة الجوسي سنة 417 هـ، نقل تفريت بردي في (النجم الزاهرة 121/11) والجنداري في (تراجم الرجال ص 131)، وعلي ذلك تصحيفًا عن ثمانية عشر.
(4) ذكر الباقعي اليمني أن مولده في ثاني عشر المحرم، (مرآة النجاح 3/131)، وعلي ذلك تصحيفًا عن ثمانية عشر.

44
والغالب ترجيح هذه الرواية الثانية، لأن جميع المترجمين للجريني اتفقوا على أنه عاش تسعة وخمسين عامًا، وأنه توفي سنة 178 هـ، فتكون ولادته عام 129 هـ في المحرم، وأن أكثر الرواة ذكروا ذلك.

وسوف نفصل مرضه ووفاته ودفنه في نهاية هذا الكتاب.

كتبه ولقبه:

الكتبة اسم يطلق على الشخص للتنظيم كأبي الفضل أو بالنسبة للأولاد كأبي سلمة، وغالبًا ما يكون لولد الأكبر كأبي شريح (1)، وقد تطلق الكنية للعربية الصفرة كأبي بكر، وقد تطلق لما يلبس الشخص من أمور وحالات، كأبي هريرة، لأنه حمل حرة، وأبي تراب لعله لأنه نام على باب المسجد فتغطي بالتراب.

وكان إمام الحرمين الجيزي يكتُب بأبي المعالي، ويطلق عليه ذلك بين أهله وعشيرته وبلده، ثم انتقل إلى تلاميذه وأتباعه، وشاع وانتشار في الكتب والمصنفات، وهذه الكنية ليست بالنسبة لولده، وإنما هي للتنظيم والوصف والمدح، باعتباره يقصد معالي الأمور وأشرفها، وأنه حصل على المكانة العالية والرفعة في تحصيل العلم، والدعوة إلى الدين، والرد على الخصوم وإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، وبيان الصواب، وتحرير القوي، والسداد في المناظرات والاستدلال، فكتبه بأبي المعالي.

واللقب في الأصل النبذ بالغنية، وهو منهي عنه وحرام، لقوله تعالى:

واللبطون غالب بالألقاب (الحجرات/11)، ولكن قد يجعل اللقب علمًا من

(1) انظر: طبقات الشافعي الكبير 5/168، طبقات الشافعي للإنسوي 4/1، تبين كتب المغربي ص 275، طبقات الشافعي، ابن هديا الله ص 61، العقد الثمين 5/178، مفتاح السعادة 2/249، 4/37، البداية والنهج 178/12، وفيات الأمهات 343/2، الأعلام الزركلي 4/432، الجيزي، فوقيا ص 21.

غير نبذ ولا انتقاص ولا تعريض، فلا يكون حراماً كالأعرج والأخفش والأعضم، ويقصد منه محض التعبير مع رضا المسمى به، وقد يكون بقصد التعظيم والشهرة، ككرن الدين، وشمس الأئمة، وشيخ الإسلام.

وقد أطلق الناس والعلماء على الجويني لقبين، الأول: ضياء الدين، ويظهر أن ذلك وصف لعمه ودعوه وكبه وقردهه على إثارة الطريق للدفاع عن العقيدة وإضاءة النور على الطريق القويم، للإيمان الصحيح، والرد على الفرق الأخرى التي كانت سائدة في عصره، وهو تقدير له، وثناء على عمله وإنتاجه وآثاره.

واللقب الثاني الذي شاع وانتشر، وصار الجويني معروفاً به، هو إمام الحرمين، وصار هذا اللقب مختصاً به، وتم أطلق إمام الحرمين في الكتب والمصنفات والعلوم، فهو المقصود، بل زاد الأمر في كتب فقه الشافعية، فإذا أطلقت بعض الفقهاء عملاً، فإياها يعذون.

والمسبب في هذا اللقب أن الجويني خرج إلى مكة ل/query(38) الممكرمة فخرج ثم ذهب إلى المدينة المنورة للزيارة، ثم جاور ببعض أربع سنين للعبادة والتدريس والإفتاء والتصنيف ومجالسة العلماء، وهناك جمع أقوال المذهب الشافعي وطرقه، وصنف كتابه الكبير المشهور "نهاية المطابق" في دراسة المذهب، وأضاف إليه عامداً فقال: "أقام بمكة ومدينة أربع سنين يدرس ويفتي ويصف، وأمَّ بالناس في الحرمين الشريفين، فسمي لذلك إمام الحرمين".

(1) قال البخاري في ترجمة الشيخ أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين: "وانتقص كتبته شبه من مماليك". حديث من الفضة 1691/241/2، مفتاح السعادة 02/110، الزبر 3/196، طبقات الشافعية، الإسناني 4/91، شمطات الذهب 3/58/3، هدية العرفان 1/266.

(2) المختصر في أخبار البشر 196/2، 176/2، 18/12، 12/12، 201/2، 4/507، 6/850، 201/3، 18/18، 6/22، المتضمن 18/18.42
ويصف ابن السبكي مجاورة الجويني بالحرم، فيقول: "ثم زُمر له الحادي بذكر زُمر، وناداه على بعد الديار البيت الحرام، فلبى وأحرم، وتوجه حاجًا، وجاور بمكة أربع سنين، يدرس ويفتي، ويتجه في العبادة ونشر العلم، حتى شُرف به ذلك النادي، وأشرقت تلاع ذلك الوادي، وأسبلت عليه الكعبة ستورها، وأقبلت عليه وهو يطوف بها، كلما استد جُنح الليالي يُبِدِ بأعماله الصالحة ذيورها، وصفت نيته مع الله، فلما كانت الصفاء ذات لسان لشافته جهارًا، وشكر له المسئي بين الصف والمرور إقبالًا وإدبارًا"(١).

وقال الخوشناري: "ثم خرج إلى الحجاز، وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويزعم طريق المذهب، ويقبل على تحصيله، وبهذا قيل له: إمام الحرمين، قلت: هكذا قيل إنه لقب بهذا اللقب بهذا السبب، وكونه صار معتنيًا في الحرمين، متقدما على علمائها، مفتياً فيها، ويعتبر أن له وجه التفخيم له، كما هو العادة في قولهم: ملك البحرین، وقاضي الخافقین، ونسبة إمامه في الحرمين لشرفهما توصلًا إلى الإشارة إلى شرفه وفضله وبراعته ونبله وتحقيقه وفهمه"(٢).

وأطلق بعض العلماء على إمام الحرمين الجويني لقبًا ثالثًا، وهو "فخر الإسلام"، لأنه مما يفتخره به كل مسلم، وأنه فخر للإسلام أن ينجب من أمثاله تربية وعلماً وتحصيلًا وإنتاجًا"(٣).

أسرته:

كانت ولادة إمام الحرمين في أسرة علمية عريقة، تتورث العلم، ويأخذ بعضهم عن بعض، وكانت العلوم تحيط بالأسرة، مما كان له أبلغ الأثر في نشأة إمام الحرمين وتربيته وتوجيهه وتعميق ثقافته، وساعدته على تلقي العلم

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٧٠/٥.
(٢) مُراة الجنان ١٣٥/٣.
(٣) نظر: تبين كذب المغربي ص ٢٧٨، مُراة الجنان ١٣٩/٦، طبقات الشافعية الكبرى ١٧٩/٥.
في وقت مبكر، والإحاطة بأولياته منذ الصغر، لذلك نذكر نبذة مختصرة عن ترجمة أفراد الأسرة الذين أحاطوا به منذ الولادة، وخلال حياته.

1- والد الإمام الحرمين:

هو عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حمزه، الشيخ أبو محمد الجويني، الملقب بكرن الإسلام، ولد في قرى جوين، ونشأ فيها، وقرأ الأدب على أبيه يوسف بن عبد الله، أبيه يعقوب، كما أخذ الفقه في جوين عن أبيه يعقوب الأبويردي، ثم خرج إلى نيسابور، فلازم أبا الطبيب سهل بن محمد الصعلوكي، وتفقه عليه، ثم انتقل إلى مرو فاشتغل على أبيه بك القفال الجزوزي في الفقه والحديث، واستفاد منه وانفع به، وألقن عليه المذهب والخلاف، وقرأ عليه طريقته وأحكمها، وسمع الحديث من بلاذ شتي على جماعة، وصار له المعرفة الواسعة بالفقه والأصول والتحو والتفسير والأدب، ثم عاد إلى نيسابور سنة 407 هـ، وقدم للتدريس والفنون والمجلس المناطرة وتعليم الخاص والعام، وكان مهباً لا يجري بين يديه إلا الجد والبحث والتحريض على الدراسة والتحصيل والعلم، وكان مجتمعاً في العبادة، كثير الورع، شديد الزهد، محاطاًً به، حتى قال فيه الإمام عبد الواحد بن عبد الكريم الفصيري: كان أئمنا في عصره، والمحققون من أهل العلم يعتقدون فيه من الكمال والفضل والخصال الحميدة، ما إنه لو أجاز أن يبعث الله نبياً في عصره لما كان إلا هو، من حسن طريقته وورعه وزده وديانته وكمال فضله.

وكان الشيخ أبو محمد الجويني إماماً في التفسير والفقه والأدب وال العربية، وتخرج عليه خلق كثير منهم ولده الإمام الحرمين.

وصنف التفسير الكبير المشتمل على أنواع العلوم، وصنف في الفقه البصرة والتذكرة ومختصر المختصر والسلسلة وموقف الإمام والمأمور والفرق.

(1) ذكر ابن السبكي وغيره أن الشيخ أبا محمد الجويني رفع إلى نيسابور سنة 407 هـ، بينما ذكر الإسوي أنه عاد إلى نيسابور سنة 417 هـ.
والجمع أو الفروق (1)، وله تعليق في الفقه متوسط، وشرح الرسالة، قال ابن السبكي: «ويحتمل له شرح على عيون المسائل» (2) وشرع في تأليف كتابه «المحيط» مع عدم التقيد بالمذهب، فانتقده البيهقي، فرجع عن إتمامه، وله شعر، وآخر كتاب صنفه «عقيدة أصحاب الإمام المطلي الشافعي رحمه الله وكافأته السنة والجماعة» (3).

مرض الشيخ أبو محمد الجويني سبعة عشر يوماً، ثم توفي بنيسابور في ذي القعدة سنة ثمانية وثلاثين (4) وأربعمئة هجرية، وهو في سن الكهولة (5).

وفضائل الشيخ أبي محمد الجويني كثيرة ومشهورة، وكانت إرهاصاً لمكانة ابنه إمام الجويني، فكان الأصل الطيب ينبت التمر الطيب، وينج الخيرات الحسان، وإن صلاح الأب ينتقل إلى الأبناء، ويفيدهم إذا كانوا صالحين، والله سبحة تعالى يقول: «والمدين آمنوا، واتبعهم ذريتهم بإيمان، أحقنا بهم ذريتهم» (الطورس 21)، وبيت القرآن الكريم العلة في رعاية الخضر لاموال اليتيمين فقال تعالى: «وكان أبوهما صالحاً» (الكهف 27)، أما مجرد النسب وصلاح الآباء بدون إيمان ولا عمل من الأولاد فلا يفع ذلك شيئاً، والله سبحة تعالى يبرى نوحاً من ابنه، ويقول

(1) يوجد نسخة من هذا الكتاب مخطوطة، وقال عنه فؤاد سيد في «فهرس المخطوطة المصرية» (2147/1)، في هذا الكتاب ذكر العلل التي أوجب افتراق ما افترق، واجتمع ما اجتمع من مسائل في الشرع ربي تشتاب صورها، وتحتفل أحكامها، نسخة كتب في القرن الثالث بخط جيد، مكتبة ترخان 146، 315 ورقة تقريباً، حجم متوسط.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 165/3، انظر: نبين كتب المفتي ص 115.
(3) ذكر ابن السعاعي في «الذيل» أنه توفي سنة 458 هـ، بينما ذكر في «النابض» أنه توفي سنة 434 هـ.
(4) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى 165/3)، وفيات الأعيان 250/4، البداية والنهاية 257، طبقات الشافعية للإنسوي 338/1، نبين كتب المفتي ص 257، المتنبم 120/8، الأناسب 144 ب، مراة الزمان 59/4، مفتاح الجمعة 248/3، طبقات الشافعية، ابن هذى الله ص 88، روضات الجنان ص 463، دمية الفضل ص 196، الكامل في التاريخ 303/9.
له: ﴿إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾ (هود/42)، وأن الأناس

تقطع بين الناس عند تقييم الأعمال، وضعف الميزان للحساب، قال تعالى:

﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنسب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾

(المؤمنون/101)، ويعلن ذلك رسول الله ﷺ لأهله وأقرباته وعشيرته وابنته،
وان مجرد النسيب لا يعني عنهم شيئاً، ولا بد من الإيمان والعمل، فقال عليها
صلاة وسلام: ﴿يا بني كعب بن لؤي أنذروا أنفسكم من النار، يا بني
مرزب بن كعب أنذروا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنذروا أنفسكم من
النار، يا بني عبد مناف أنذروا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنذروا
أنفسكم من النار، يا فاطمة أنذرو أنفسكم من النار، فإن لا أملك لكم
من الله شيئاً، غير أن لكم رحمة سأبلاها بلالها﴾ (1)، ولذلك فلا عبرة لنقل
الخلافة أو المناصب الشرعية أو الوظائف الدينية أو غيرها للابناء فوراً بدون
كفاءة وتتوفر الشروط المطلوبة شرعاً.

ولما توفى الشيخ أبو محمد الجويني كان ابنه إمام الحرميين دون
العشرين سنة من عمره، أتعد مكانه لتدريس وتولي المناصب بعده لكفاءته
وجدارته وتفوقه، ثم فاق أبابا في ذلك كما سأري.

٢- أمام الحرميين:

انفق علماء التراجم والرجال على أن أمام الحرميين كانت جارية،
وان والده قد قصد ذلك لاختيار زوجة صالحة، ومن مال حلال، وذلك أن
والد إمام الحرميين كان في ابتداء أمره ينسخ الكتب بالأجرة، فاجتمع له مبلغ
خلال من كسب يده. لم يخلطه شبهة، فاشترى به جارية موصوفة بالخير
والصلاح، وحرص الوالد على أن بطعمها المال العائص من كسب يده
أيضاً، إلى أن حملت بإمام الحرميين، واستمر على تربيتها ورعايتها بالمال
الحلال، ولما ولدته أمرها لا تدع أحداً يرضعه غيرها إلى أن حدثت قصة
المصحة التي أثارت حفيظة الوالد، واضطرب لها أشد الاضطراب، وترك في
نفس إمام الحرميين آثاراً إلى المستقبل كان يذكراها في كل حين.

(1) هذا الحديث رواه الإمام مسلم والسني عن أبي هريرة مرفوعاً.
قصة العاصفة أن أم إمام الحرمين اشتكلت يومًا في طبخ الطعام، والإمام رضيع في المهد، فجاع وكيك، وبالصداقة دخلت إلى البيت جارية مُرضِبة للجيران، فأخذته، وشاغلت ببديهها، وآرعتها مِصْةً أو مَصينَ فدخل الوالد عليها، فرأى هذا الأمر العجب، وأنكر عليها ذلك، وقال: هذه الجارية ليست ملكًا لنا، ليس لها أن تصرف في لبنا، وأصحابها لم يذكروا في ذلك، وشُق عليه الأمر، ثم أخذ ابنه الرضيع، ونكس رأسه إلى الأسفل، ومسح على بطنه، وأدخل إصبعه في فمه، ولم يزل يفعل به ذلك حتى قاد جميع ما شربه، وهو يقول: «يسهل عليَّ أن يموت، ولا يفسد طاعه بشرب ابن غير أمه»، وكان إمام الحرمين إذا أصابه تلجلج، أو لحقه فترة وانقطاع عن المناظرة يقول: هذا من بقايا تلك المصصة (1).

وهذا الأمر يدل على ورع الشيخ أبي محمد الجويني والد إمام الحرمين، وعلى شدة التوقي من الشهات، وعلى حرمه على الكسب الحلال، والإنتفاق من الحلال، كما يبين أنه يعتن منهج الإسلام في هذه الأمور، ومنهجه في تربية الأولاد، وأن التربية تبدأ قبل الولادة، بحسن اختيار الزوجة الصالحة، وتغذية الأهل والأولاد بالمال الحلال، والكسب المباح، والإنتفاق الخاص من الشهات، وأن المال الحرام يفسد النفس، ويُفسد البنيّة والطباعة، وهو ما يَبَع عليه الإسلام، وِبِيْنَه الرسول ﷺ، فقال: "إِن اللَّه طَيْب لا يقبل إلا طبيّاً، وإن اللَّه أَمْرُ المؤمنين بما أَمَرَ به المرسلين، فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ كَلَّمْنَاكَ مِن الطَّيِّبَاتِ وَعَلَّمَنَا صَالِحَاتٍ"، وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا كَلَّمْنَاكُم مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم" ثم ذكر الرجل يُطِيل السفر، أُقِيمتْ أُغْرِي، يُبِدِ يَدِه إلى السماء، يا رَبّ، يا رَبّ، ومَعْمَعُه حَراَمٍ، ومشْرِبَة حَراَم، وْمُلْبِسَه حَراَم، وْغُذِي بالحرام فَأَنْتِ يُسَتَجِب لِهـ" (2)، فالحرم لا يكون وسيلة إلى المقاصد النبيلة، والغايات الجليلة، وكل لحم نبت من

(1) انظر: طبقات الشافعي الكبرى 168/5 وما بعدها، البداية والنهاءة 128/12، مفتاح السعادة 111/2، مرآة الجنان 131/3، شنادات الذهب 336، وفيات الأعيان 342 وما بعدها.

(2) هذا الحديث رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة مرفوعًا (الأربعين النوى، الحديث العاشر).
السحت فالتجار أولي به، والفساد لا يؤدي إلا إلى فساد، والحرام لا ينتج إلا سوءاً وشروراً.

وقد آتت هذه التربية ثمارها، وحقق هذه الحكمة النبوية الصافية، والعافية السامية، مقاصدها الكبيرة، وأتاه الله هذا الوالد في الدنيا قبل الآخرة، وأقر عينه بهذه النبتة الباقعة التي فاح أريجها، وتحده ذكرها إلى قيام الساعة.

3 - عمّ الإمام الحرميين:

هو علي بن يوسف بن عبد الله بن يوسف، الشيخ أبو الحسن، وقيل أبو الحسين، عمّ الإمام الحرميين، رجل في طلب العلم، وسمع كثيراً من العلماء والمحدثين، وعقد له مجلس الإلقاء بخاراسان، غلب عليه النصوص، وصنف فيه كتاباً حسنًا، سمّاه كتاب السلوية، ورتبه ورواه، وكان لطيفاً ظريفاً فاضلاً، وصار معرفواً الشيخ الحجازي، واشتغل بالحديث أيضاً، سمع من أبي نعيم الأسرازي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وأبي محمد النحاس، وأبي شاذان، وأبي عبد الله الفراء، ومن أخوه أبي محمد الجويني، وطائفة بني سابور وبغداد ومكة ومصر، وروى عنه الإمام محمد بن الفضل الفراوي وناصر ووجيه ابن طاهر الشخمي وغيرهم، مات في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وأربعونا هجرية(1).

ذكر السمعاني عماماً آخر لإمام الحرميين، وهو أبو سعيد عبد الصمد بن حموه الجويني، وقال عنه: كان ممّن يضرب به المثل في الورع الكامل وكثرة التهجّد والتلاوة(2).

4 - ابن الإمام الحرميين:

هو مظفر بن عبد الملك بن عبد الله الجويني، الشيخ أبو القاسم، ابن

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 298/5، طبقات الشافعية، الإسنوي 400/1، شذرات الذهب 222/3، الأنساب 144 ب.
(2) الأنساب 144 ب.
إمام الحرمين، ولد بالبري وحمل صغيراً إلى نيسابور، فاشتغل بها، وسمع من أعيان عصره، وتربي في حجر والده، ونشأ على العلم والأدب والفضل من صباه، أخذ الفقه والحديث عن الحفصي، والشامسي، وعن والده، وجماعة من أعيان عصره، وقال عبد الغافر الفارسي في ترجمته: كان إماماً عالماً، وقد قتل مسموماً في شعبان سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة هجرية (1).

ويظهر أن نسل إمام الحرمين قد انقطع، ولكن ذلك لم يطفيء الأندور التي أضاءها، ولم يؤثر على المشاعل العلمية التي رفعها، وأن العلم نسب بين أهله، فكل من قرأ علم إمام الحرمين في الفقه والأصول والكلام فقد اتصل نسبه العلمي والمعنوي بالجويني، وكان من أتباعه، وإن استمرار النسب وثرة الأولاد بمفردهم لا يغني من الحق شيئاً، فكم أنجب العوام والجهال؟ وكم تباهى بالذريعة والنسب الكثاف والمنافقون، وهم في غضب الله ونقته؟ قال الله تعالى في حق الوليدين بن المنيرة المخزومي الذي تباهى بالبنى والذرية: ۖ ذريني ومن خلقته وحيداً، وجعلته له مالاً ممدوحاً، وبينين شهوداً، وهمت له تمهدوباً، ثم يطمغ أن أزيد، كلا إنه كان لآبائنا عيداً، سأرته ضعفاً صعوداً (المذفر/11 - 17)، وحسب إمام الحرمين قدوة في ذلك برسول الله ﷺ الذي انقطع نسله من الذكور، ولكن ارتفع ذكره في النفوس والقلوب والعقول، وعلا شأنه في الخلفين، وسارت أخباره وسيرته في الآفاق، وعظم جاهه في الدنيا والآخرة.

يقول ابن السبكي في الجويني: «وُظِن أن آثار جده واجتهاده في دين الله يدوم إلى يوم الساعة، وإن انقطع نسله من جهة الذكور ظاهراً، فنشر علمه يقوم مقام كل نسب، وبمعنى عن كل نسب مكثوب، والله تعالى يسقى في كل لحظة جديدة تلك الروضه غواي (الماء الكثير) رحمةه، ويزين في أطلائه وكرامته بفضله ومنته» (2).

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 5/330، طبقات الشافعية، الإسنوي ۱۴۱۱/2.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 182/5، وانظر: مرأة الجنان 130/2.

53
5 - ختِن إمام الحرامين:

هو حَبْط الله بن سهل بن عمر بن القاضي أبي عمر، البسطامي
النسابوري، أبو محمد، وكان ختِن إمام الحرامين على ابنه، ويظهر أنها
البنت الوحيدة للإمام، ولدّ حَبْط الله سنة 443 هـ، وكان فقيهاً عالماً خيراً،
كثير العبدة والتهجد، لكنه عسرُ الرواية لصعوبة خلقه، سمع الحديث وأخذ
العلم عن عدد من العلماء، وروى عنه الحافظ ابن عساكر وابن السععاني
غيرهما، وتوفي فينسابور وقت الصبح في الخامس والعشرين من صفر سنة
532 هـ ودفن في حِيرة نيسابور(1).

وينبهر من هذا العرض المختصر لأسرة إمام الحرامين الجرير
الجو العلمي الذي كان يحيط به، والمنبت الطيب الذي ولد فيه، والبيت الجليل
الذي نشأ فيه، وتربي فيه، ونهل من معينه، ثم حافظ عليه، واستمر معه،
ووّاكب مسيرته في حياته بين أهله وأبنائه بروح علمية، واتجاه رياضي لدراسة
شريعة الله، ونقلها خلفاً عن سلف.

وبعد إمام الحرامين:

تربي إمام الحرامين على يد والديه في هذه الأسرة العلمية العريقة.
يقول عبد الغافر الفارسي عنه: "رباه حجرُ الإمامة، وحرك ساعدُ السعادة
مهده، وأرضعه ثدي العلم والورع، إلى أن تعرّع وأتبع(2)، واعتنى به
والده من صغره، وسعى إلى صلاحه وإصلاحه قبل ولادته، بل فكر في
مستقبله قبل زواجه، فقصد المال الحلال لتبزوغ من كسب يده الخالص،
وأطمع والده مما اكتسبه مما لا شبه فيه، وحرص على تغذيته بالباح، فلم
يمازج بطنه شيء من الحرام أو المشبوه، حتى تورع عن مصبة من مرضعة
جيرانه، وكان الوالد يحاسب نفسه على البسيع والقصير، ويرافق ربه في
الصغير واجتناب الشبهات، ويتورع في المأكل والمشرب، وسعى في

______________________________
(1) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى) 7/277، شدرة الذهب 4/103، الأناساب
321 (ب).
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 5/174.

54
استطاعة الطعام ليحقق الله له أمنيته في ولده، ورغبته في تربيته، ويستجيب له الدعاء في صلاحته وتنشئته.

وتراعع إمام الحرمين في هذا البيت الطاهر النقي، ووضع ليان العلم والأدب، وتربي على مهج القرآن والسنة، وسلك طريق التربية الإسلامية القوية، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أكرمه الله بحفظه، وتفقه في صيامه على والده، واشتغل به مدة، وكان الوالد يعجب بطبع إمام الحرمين وتحصيله وجودة قريحته، وما يظهر عليه من مخايل الإقبال، وتوقيع لابنه المكانة العالية، والتوفيق العلمي، وحسن الذكر.

يقول الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين: «رأيت إبراهيم الخليل عليه السلام في المنام، فأهويت لأقبّل رجلي، فشاعني من ذلك، تكرميّاً لي، فاستدبرت فقبلت عقبه، فأولت ذلك الرفعاً والبركة تبقى في عقبي».

قال ابن السبكي: «أوّي رفعاً وبركة أعظم من هذا الإمام الذي طبّق ذكره طبّق الأرض، وعمّ نفعه في مشارقها ومغاربها».

أما أخلاق إمام الحرمين فقد كانت في القمة، لما يتصف به من الأخلاق الحميدة، والسجايا الرفيعة، وكان مع علمه الكبير، ومكانته الاجتماعية في غاية التواضع والتواضع، وكان من التواعض لكل أحد بعقل يتخلّى منه الاستهازاء لمبالته فيه، ومن رقة القلب بحيث يبيّن إذا سمع بيتاً أو تفكر في نفسه.

وكان يتواضع في أخذ العلم، ولا يتأذى أن يأخذه من الكبير والصغير، وأن يستفيد ممّن هو دونه في العلم، وإذا استفاد فكرة أو حكماً أو حكما من آخر نسبها إليه، وأشار إلى مصدرها، فالاعتقالي هو الذي يلتقط الحكمة اينما.

1. طبقات الشافعية الكبرى/5، 359/3، وفيات الأعيان، 185/6، وانظر: شذرات الذهب، 2/131، العقد الثمن، 5/07، مفتاح السعادة، 2/110، 330، مرآة الجنان، 124/2.
2. طبقات الشافعية الكبرى/5، 180/5.
وجدها، وهو منهج التربية النبوية، كما كان إمام الحرميين لا يحابي أحداً في الحق، وبيان الصواب، وترزيز الباطل، ونقد الانحراف، وتصحيح الخطأ، ولو صدر ذلك من أبي أو أحد الأئمة المشهورين(1)، سوّف نشور إلى أخلاقه واجتهاداته وآرائه التي خالف فيه الشافعي والباقلاني وغيرهما.

تعليم إمام الحرميين:

توفرت لإمام الحرميين الجرئيني ثلاث وسائل رئيسية في تعليمه وطبه للعلم أدت إلى تفوقه على غيره، وسمّت به إلى المرتبة العليا للعلماء، وهذه الوسائل هي البيت ومجتمع بلده وموهبه الذاتية وشغفه بالعلم.

أما البيت فقد نشأ في أسرة علم وفضل كابرًا عن كابر، وترعرع في بيت العلم، ومشعل النور، وكعبة المعرفة، ومحراب العبادة والتقوى والورع، كما سبق.

وأما بلده التي نشأ فيها فهي نيسابور، وكانت من أكبر مراكز الثقافة بخاراسان، وكانت مجمع العلماء والفضلاء، وملتقى الطلاب، ومهد المدارس، يقول المقيزي: «إن أول من حفظ عنه أنه بني مدرسة في الإسلام أهل نيسابور(2)، ويفضّل بها بأنها «مئذن الفضلاء، ومنبع العلماء»، ويقول: «وقد خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى(3)، فأتاحت هذه المدينة الفرصة الطيبة لتتوفر العلم والعلماء الذين أخذ عنهم إمام الحرميين، واستفاد من ثقافتهم المختلفة، بالإضافة إلى المدن القريبة من نيسابور، وهي مشهورة أيضاً بالعلم والعلماء مثل مرو وسرخس وغيرها.

أما مواهب الإمام فكانت مواهب إلهية واسعة، وقد ظهرت عليه النجابة والتفتح والذكاء من حداثته، وتحقيقه في فراعة والده، وكافأه الله والده على ورعته وكسبه ونبيته وحرصه على تربية ولده تربية إسلامية في مرضاه الله تعالى،

(1) المرجع السابق.
(2) المراجع والاعتبار 196/4.
(3) معجم البلدان 8/356، 358، عن كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ص 6.
وكان الشيخ أبو الحسن علي بن فضالة المجاشعي النحوي يصف إمام الحرمين ويقول: "ما رأيت عاشقاً للعلم من أي نوع كان مثل هذا الإمام، فإنه يطلب العلم للعلم، وكان كذلك". 

ومع توفير هذه العناصر الثلاثة اتجه إمام الحرمين إلى طلب العلم وتحصيله من كل جانب، ودراسة جميع العلوم الشرعية.

١ - فقد حفظ القرآن الكريم عن والده، ولا بد أن يكون قد أتي على تفسيره الكبير، لفهم كتاب الله تعالى، وتدبر آياته، ودراسة العلوم التي يحتويها، والمعمّق في أحكام القرآن الكريم، ودلالات الألفاظ والمعاني على الأحكام الشرعية، ولم يكتمف الإمام بذلك بل واطب على قراءة القرآن الكريم على أهل الاختصاص من القرآن، ولم يقف ذلك عند الصغر، بل استمر عليه مع الكبر، وبعد تولي التدريس مكان والده، وكان يبدأ يومه بالذهاب إلى درس القرآن، فيكرا قبل الاستغلال بالتدريس إلى مسجد الأستاذ الشيخ أبي عبد الله الخبازي، فيقرأ عليه القرآن الكريم.

ولا شك أن حفظ القرآن الكريم وثلاوته وتدبره وفهم معانيه ومعرفة تفسيره ومقاصده والحفاظ على مدارسته هو أساس الدين، ومنبع الفوائد والعلوم، وحفظ الله وقوأ البيان، وثبت العقيدة والإيمان، وحسر صاحبه، وجعله مواظباً على عبادة الله تعالى وذكره والثناء عليه والتأدب بآداب الإسلام كاملة، وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لدينا أولاً أن يتقدم على ثلاث خصال: حبّ نبیكم، وحب أهل بيته، وقراءة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل الله يوم القيامة، يوم لا ظل إلا ظله، مع أنيبائه وأصفيائه".

٢ - ثم اتجه إمام الحرمين إلى سماع حديث رسول الله ﷺ، وهو كلما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، والحديث الشريف مبين للقرآن الكريم، وهو المصدر الثاني للأخلاق الشرعية العملية، وللأخلاق الفاضلة، طبب: ١٨٠/٥.

(1) طبقات الشافعية الكبرى.
(2) رواه الدلحمي في مسنود الفرودوس وأبي النجراة وهو نصر عبد الكريم الشافعي عن علي مرفعاً.
والعقيدة الصحيحة، وقد دعا رسول الله ﷺ لحفظ حديثه، وروايته ونقله، فقال عليه الصلاة والسلام: "نصر الله أماناً سمعتًا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فرب حامل فقهه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقهه ليس بفقهه".

1.

كما بين رسول الله ﷺ ووجب الاعتماد على الحديث في الأحكام والاجتماعات والفتوى والقضاء والحكم، وأن عصمة الأمة والأفراد تتوافق على التمسك بالكتاب والسنة، وقد توجه المسلمون منذ عصر الصحابة حتى يومنا هذا إلى الاعتناء بالحديث الشريف وحفظه ورواه، وتعليمه وتعلمه، والاستدلال به والرجوع إليه، وصار علم الحديث مستقلًا وقائمًا بذاته رواية ودراية، فقصده إمام الحرميين، فسمع الحديث في صيام من وآله، ثم اتجه إلى سماعه من علماء عصره، فسمع الحديث من أبى حسان ابن أحمد المزكي، وأبى سعد عبد الرحمن بن حمدان النضروي، وأبى عبد الله محمد بن إبراهيم بن بحى المزكي، وأبى سعد عبد الرحمن بن الحسن بن عليّك، وأبى عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز النيلي، ومنصور بن رايس، وغيرهم.

وأجاز له أبو نعيم الأصفهاني، صاحب "حلة الأولياء"، وسمع "سنن الدارقطني" من ابن عليّك، وسمع الحديث أيضًا من مختلف البلاد، ففي بغداد سماعه من أبى محمد الجوهر.

وكان إمام الحرميين يعتمد على الأحاديث في مسائل الخلاف، ويدرك الجرح والتعديل منها في الرواية، وجمع كتاب الأربعين، تنفيذاً لحديث رسول الله ﷺ قال: "من حفظ على أمني أربعين حديثاً في أمر دينه بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء".

1. أورد هذا الحديث من طرق كثيرة بروايات منوعة، وهو حديث ضعيف مع كثرة طرقه، ولكن العلماء يأخذون بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ودسّ العلماء في هذا الباب ما لا يمحى من المصنفات. (انظر: كشف الظنون 7/6).
عليهٰۢ) ويقول الفاسي في القرن التاسع: «وروينا له أربعين حديثاً وقعت لنا
بحمد الله عالياً»،(۳ وروى عنه الحديث كثيرون، منهم أبو عبد الله الفراوي،
إسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وزاهر الشهامي، ويقول ابن الجوزي:
وروى عنه شيخنا زاهير بن طاهر الشهامي»، وروى ابن السبكي حديث
"أما الأعمال بالنيات« بالسند المتصل عن طريق إمام الحرمين مرفوعاً(۴).

وقد طعن الإمام الذهبي قديماً، والشيخ محمد زاهر الكوثري حديثاً
في معرفة إمام الحرمين بالحديث، ورد ذلك ابن السبكي وغيره من كلام
تلميذ إمام الحرمين عبد الغافر الفارسي، ومن كتب الإمام ومؤلفاته، مما لا
مجال لذكره ولتوسع فيه(۵)، والواقع أن إمام الحرمين سمع الحديث وجمعه
ورواه لغيره، ولكن لم يتخصص فيه، ولم يتفرغ له، كما سنرى في آثاره.

قال السمعاني: وكان قليل الرواية للحديث ممراً عنه(۶).

۳- والعلم الثالث الذي انصرف له إمام الحرمين، وواكب على أخذه
حتى أنهه، وتفرغ فيه، هو علم أصول الدين، وهو أشرف العلم مطلقاً،
كما يقول السيوطي، لأنه يبحث عمّا يتوقف عليه صحة الإيمان وتنائمه،
ويسمى علم الكلام أيضاً، أو علم التوحيد، أو علم العقيدة اليوم، وهو علم
يبحث فيه عمّا يجب اعتقاده مما جاء له الشرع في الكتاب والسنة، ولما
انتشرت الفلسفة، واشتهرت العقائد والأفكار والأديان المختلفة بين
المسلمين، استعان العلماء بالبراهين العقلية والحجج المنطقيّة والنظريات
الفلسفية على إثبات العقيدة الإسلامية، وتزيف العقائد الأخرى، ورد على
الفلسفة والأديان الباطلة، ولذلك سمي علم أصول الدين بعلم الكلام،

(۱) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ۵/۱۸۲/۵، تبيين كذب المغتري ص ۲۸۵، شذرات الذهب
۹۳/۳۱۰.
(۲) العقد المنين، له ۵۰۷/۵.
(۳) المنتظم، ابن الجوزي ۱۸/۹.
(۴) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ۵/۲۰۸/۵.
(۵) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ۵/۱۸۷/۵، إتفاق الحق، لكلؤري ص ۴.
(۶) الأناسب ۱۴۴/۱ ب.
وعرفوه بأنه وعلم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإبراد الحجج عليها،
ودفع الشبه عنها،(1) وقد ظهرت الآراء والمذاهب والفرق الاعتقادية
المتعددة منذ القرن الهجري الأول، كما أسلفنا، وتبلورت أفكارها في القرن
الثاني الهجري، وبرزت الأشعرية في القرن الثالث وما بعده للدفاع عن
عقيدة أهل السنة والجماعة، وأصبح المذهب الأشعرية في العقيدة هو
المذهب الرسمي للدولة الإسلامية وعامة المسلمين منذ القرن الخامس وما
بعده.

واخذ إمام الحرمين الجوزن إلى علم أصول الدين في شبابه، ولما توفي
أبيه أعاد مكانة للتدريس، وهو دون العشرين من عمره، فكان يؤدي واجبه،
ويقوم بالتدريس، ثم يخرج بعده إلى مدرسة الإمام البدوي بنيسابور لتحصيل
أصول الدين على الأستاذ أبي القاسم الإسكاف الإسفرايني، واستمر يوظف
على مجلسه إلى أن توفي سنة 452 هـ، وكان إمام الحرمين يقول: دكبت
عليه في الأصول أجزاء محدودة، وطالعت في نفسي مائة مجلد، وكان يفصل
الليل بالنهاية في التحصيل حتى فرغ منه،(2) وقال أيضاً: «ما تكلمت في
علم الكلام كلمة حتى حافظت من كلام القاضي أبي بكر [الباقلاني] وحده
اثني عشر ألف ورقة»(3). وقد أتقن إمام الحرمين علم الكلام وأصول الدين،
وساعد على ذلك حفظه للقرآن الكريم، وتدبره لأيامه ومعاناه، وقدرته على
المناظرة والمحاجة والمجادلة، وتفتح عقله على الأدلة والحجج والبراهين
حتى فاق فيه جميع الأقران، وصار أعلم الناس بعلم الكلام، وألف فيه عدة
كتب ومؤلفات ورسائل، منها: الشامل في أصول الدين، والإرشاد، والعقيدة
النظامية، والمعم، في أصول الدين، ورسالة في إثبات الأستواء،(4) وسوف
نفصل الكلام عنها في آثاره وإنتاجه.

(1) انظر: مفاتيح السعادة 2/100، كشف الظنون 2/366، إمام الدراسة لقرآن الثقافة، للسيوطي
صف 3، 4 (على هامش مفاتيح العلوم للسكاكي).
(2) انظر: مرآة الجنان 3/145.
(3) انظر: طبقات الشافعي الكبرى 5/185.
(4) انظر: الإرشاد ص 280 من المقدمة، وانظر: شذرات الذهب 3/367، تبين كذب
المغترب ص 280.
ورزق إمام الحرمين النبي في علم الفقه، وهو معرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلة النقل والتفصيلية، وهو من العلوم الشرعية الأساسية التي دعا إليها رسول الله ﷺ فقال: «من يرد الله به خيراً ففقهه في الدين»(1)، والفقه علم بالحلال والحرام، وبيان لمنهج الله تعالى الذي شرعه لعباده لتحقيق مصالحهم، وجلب النفع لهم، ودرء الفساد عنهم، وهو ميزان لمعرفة النفس ما لها وما عليها عملياً، لتكون في المكان الذي أمره الله تعالى به، وتجتف الأمر الذي نهى الله عنه، وقد بدأ إمام الحرمين الفقه في صباه على والده الشيخ أبي محمد الجرجني الذي كتب عدة كتب في الفقه، منها المختصر، ومنها المطول، ومنها كتاب المحيط الذي ألف منه ثلاثة أجزاء متحرراً من المذاهب، ومنطقاً إلى البحث والتحري والاجتهاد، وقد أتى الإمام على مصنفات والده، ودرسها، وحفظها، ودققها وتصرف فيها، وقلبها، ظهراً لبطن، وخرج المسائل بعضها على بعض، ولم يرض في شبهة تقليد والده وأصحابه، وأخذ في التوسع والتحقيق في المذهب، والخلاف مع المذاهب الأخرى، وأخذ الفقه أيضاً على كبار الفقهاء في عصره، مثل القضي حسن المرهوري الذي تخرج عليه عدد كثير من الأئمة، ومثل أبي القاسم الفارابي شيخ الشافعية بعمر، وغيرهم.

كما أخذ إمام الحرمين الفقه عن العلماء الذين التقي بهم في أصبهان، وبغداد والحجاز أثناء رحلته، ثم بدأ في جمع طرق المذهب وأقواله وأدلته، وألف كتابه الكبير ونهاية المطلب في دراسة المذهب، ثم اختصره في مختصر النهالاً.

ويحكي أنه قال يوماً لتعليمي الغزالي: يا فقيه، فرأي التغير في وجهك، وكأنه استقل هذه اللفظة على نفسه، فقال له: افتح هذا البيت، ففتح مكاناً وجدته مملوءاً بالكتب، فقال له: ما قيل لي يا فقيه حتى أنيت على هذه الكتب كلها(2).

(1) هذا طرف من حديث صحيح رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعاً.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 185/5

21
5 - ولم يقف إمام الحرمين عند الفروع الفقهية في المذهب الشافعي بل درس الفقه المقارن الذي كان يعرف في ذلك الوقت بعلم الخلاف، وكان يدقق في الأقوال، ويبحث عن البراهين والحجج، ويعارض بين الآراء، ويبرز بين الأدلة، ويجلس للمناقشة والبحث، حتى اشتهر بذلك، وعرفه القاضي والداني، وألف كتابه "معيّن الخلق في تربية القول الحق" في مقارنة المذاهب، وترجيح مذهب الشافعي على سائر المذاهب.

6 - وتابع إمام الحرمين جدًا واجتهاده، ولم يقتصر على الفروع الفقهية في المذاهب، بل اتجه إلى أصول الفقه لمعرفة مصادر الأحكام الشرعية، وقواعد استنباط الأحكام، وشروط الاجتهاد، ودلالات النصوص على المعاني، وهو من العلوم الأساسية في الدين لضبط الخلاف، وتّميز القُلب من السمع، وكشف مناهج الأئمة والعلماء في الاجتهاد، وقد أخذ إمام الحرمين أصول الفقه على الشيخ الإمام أبي القاسم الإسكاف في مدرسة البهذي، وأكّد على قراءة كتب أصول الفقه التي وصلت، حتى صار إمامًا في أصول الفقه، وكتب فيه عدة مؤلفات، أهمها "البرهان"، و"الورقات"، و"التحقبة".

7 - ولم يغلّ إمام الحرمين عن علم اللغة العربية، وهي علم أساسية للفقه والعلم والباحث والمؤلف، والقرآن الكريم نزل بلغة عربية فصحى، ودلالته على الأحكام والمعاني ت تقوم على قواعد اللغة، ومراعى الألفاظ، ومجالات البلاغة والفصاحة، ولا يمكن للمسلم عامة، وللمجتهد الفقيه الخاصة، أن يستفيد من القرآن والسنة إلا بعد معرفة اللغة العربية، ومبادئها، وأسسها، وفقهها، وقواعدها، وأدابها، وكانت المعرفة بعلوم العربية أو درجة إتقانها معيارًا ومقياسًا للدرجة العلمية والفقهية والاجتماعية للمسلم، وكلما كان متقنًا لأسلوب العربية، وأداهها كان باستطاعته الفهم الدقيق، والغوص العمق، والاستنباط الغزير من القرآن والسنة، وقد وردت آيات كثيرة تدل على هذا المعنى وتأكيد، منها قوله تعالى: { وإنّا لنسبرغ رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان}.
عربية مبينة (الشعراء/192 - 195)، وقوله تعالى: "إِنَّ أَنْزَلْنَا قُرآنًا عِرْبِيًّا لِّكُلِّمَكُمْ تَعَلَّمُونَ" (يوسف/2)، وكان رسول الله ﷺ أفضح العرب، وكان حديثه أبلغ الكلام بعد كتاب الله تعالى، و جاء في الحديث الشريف في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "بعثت بجوامع الكلام" وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد: "أوتيت فواحة الكلام وجوامعه"، وكان من أهم مؤهلات الإمام الشافعي في الجهاد والاستنباط وتأليف أصول الفقه لأول مرة أنه قرشي، وأنقى اللغة العربية، وعاش في البادية مع القبائل العربية، وحفظ شعر الحذليين ونقبله لنفسه حتى كان كلامه حجة.

وصارت اللغة العربية لغة القرآن والإسلام، وانتشرت في أرجاء المعمورة مع انتشار الإسلام، واتجه المسلمون إلى تعلمه وإتقانها مع تعلّم الإسلام وحفظ القرآن، حتى أصبحت العربية لغة العالم والحضارة والثقافة في العالم.

وإنما الحرمين حفظ القرآن الكريم الذي يقوم اللسان، ويغرس الفصاحة والبلاغة، كما أنه درس تفسير القرآن لإدراك أسراره وبلاغته ودلالة ألفاظه، واتجه إلى اللغة العربية فأخذ منها بنصب وافر، حتى نضج فيها، وكان يدرس ويخطب ويناظر الساعات الطوال دون أن يتعثر لنها بكلمة، كما ألف الكتب العديدة بأسلوب عربي بين، وآلفاظ صحية، وعبارات قوية، مع الإيجاز والبيان، والبلاغة والفصاحة، لذلك قُلنا سابقاً: إنه عربي اللسان، وإن الكثيرين يعجرون عن مجازاته في البيان والإعجاز اللغوي.

ولم يقطع الإمام الحرميين عن أخذ علم اللغة بعد كهولته وتوليه المناصب العالية واشتهاره، وكان يتحين الفرص للاستفادة من علماء عصره، ولما قدم أحد علماء النحو إلى نيسابور، وهو الشيخ أبو الحسن المجشعي، استقبله الإمام الحرميين، وكان يستضيفه في بيته، وباثن نحون، يقول الشيخ عبد الغفار الفارسي: "لقد سمعت الشيخ أبو الحسن المجشعي القادم إلى سنة تسع وستين وأربعمائة يقول، وقد قبله الإمام فخر الإسلام، وقابله بالإكرام، وأخذ في قراءة النحو عليه، والتلمذ عليه، بعد أن كان الإمام الأئمة
في وقته، وكان يحمله كل يوم إلى داره، ويقرأ عليه كتاب "إكسير الذهب في صناعة الأدب" من تصنيفه(1).

يقول عبد الغافر الفارسي عن إمام الحرمين: وأخذ من العربية وما يتعلق بها أوفر حظ ونصيب، فزاد فيها على كل أدبي، ورزق من التوسع في العبارة وعَلْوُها ما لم يعهد من غيره، حتى أنسى ذكر سحابن، وفوق فيها الأقران، وحمل القرآن، فأعزز القصصاء اللد، وجاوز الوصف والحدة(2).

8- وبلغ إمام الحرمين من إتقان اللغة ومعرفته بها أن كتب الشعر وأنشده، ولكنه كان لا يحب أن يعرف بذلك، أو يشتهر به، ولا يحب نقله عنه، كما كان شأن والده أبي محمد الجويني.

يقول الأديب الكبير أبو الحسن الباحزري عن الوالد: وقد اختلفت إليه، فصارت دُعُمُ أباهي بِمِجَالِسَتِه غَرَأً، ولمّا مات جماعة، وظلّ لي ولغيري من تلاميذنا بهذا، وأسندوه، ولا بمقدار ما يتعلق به ليس مما خطر من فيض علمه، غير أن عثرت في بعض تعليقاته على بيتين يثري بهما واحداً من أصدقائه، وحلت به مشاعر وشي الأدب من صنعائه، وهم:

رابيت العلم بكاء حزيناً ونادي الفضل واحزناً وؤسي سألتهما بذلك فقيل: أودى أبو سهل محمد بن موسى(3)

ثم يقول الباحزري عن إمام الحرمين: دُوَّلَ شُرُعُ لا يكاد يديه، وأرجو أن يضيفه قبل إلى سواقة أبيه، وذكر أنه بيض صفحه عمسه يشدد من شعره شيئاً يكتب فيه(4).

ومن شعر أبي المعالي إمام الحرمين:

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 179/5، مأة الجنان 134/2، 128، تبين كتب المغتري ص 283.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 174/5.
(3) دمية القصر ص 196.
(4) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 184/5.

64
نهاية إقامة العقول عقال، وغاية آراء الرجال ضلال
وأراحانا في وحشة من جسوينا
وغاية ديننا آذى ووبال(1)

ويقول إمام الحرمين، وقد ذكر عليه الأستاذ أبو نصر عبد الرحيم القشيري، ابن الإمام عبد الكريم، فنشأ الإمام مرتجلًا:

"يجلس ك👀ين إذا ما بدأ ويدو كجمس ويرنو كريم لعبد الرحيم بن عبد الكريم (2)

معناني التجابة مجموعًا ومن شعر الإمام الحرمين مبينًا سبيل العلم وطريقه:

أصبح لن تناه العلم إلا بستة سأنتبه عن تفصيلها بيان ذكاء وحرص وانتقار وغيرة تلقيق أستاذ وطول زمان (3)

وهذه الأمور قواعد ومبادئ تربية أساسية وهامة، ولن يفلح في العلم وتحصيله والفلاح فيه إلا من جمعها كلها، أو جمع أكثرها، مع التفاوت النسي في كل منها بين إنسان وأخر.

ومن شعر الإمام الحرمين الذي قاله في مقدمة كتابه "غياث الأمم" وقال عنه ابن السبكي: "هو عندي بخطه" قوله في مخاطبة الوزير نظام الملك:

"فلا زال ركبك المعتنين منيجه بذرريت الكلمه، ولا زلت مقصداً يدين لك الشم الأئمة تحمعاً ولو أن زهر الأحق أبدت تمردًا لجاءك أن يؤم إلى نعك، أو تندورها الردى...

(1) انظر: شذرات الذهب 3/311
(2) وقال ابن هدياً الله في ترجمة الإمام فخر الدين الرazi: "وكان رحمه الله ذا شعر جيد، وكان من كلامه: "نهاية إقامة...، وأراحانا في وحشة...، ويدو كجمس ويرنو كريم، نفادوا جميعاً مسرعين، وزالوا، وكم من جبال قد علا شرفاتها رجال، فزالوا، والجبال جبال طبقات الشافعية، ابن هدياً الله ص 82 وما بعدها.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 13/5
(4) المرجع السابق 5/208، وانظر متى هذين البتين في ديوان الشافعي ص 66.
وإلي لغرس [في القديم] غرسته وربته حتى علا وتمدداً وقفاً، وآخاف ذيلاً جاء يسألك اليداً. النماذج من العقول وصوحت وللإمام الحرمٍ قصيدة، ووجهها وصية لولدها.

لأنك أعلى الناس نفساً وهمة وأقربهم عرفًا وأبدهم مداً، وأسجاهم بحرًا وأسخاهم بداً، وسقٌّها حتى تمادي بها المدى، أنت بعظامها لاتهب البنيد (1) فلا أشرع العود منها وصوحت يقول ابن السبكي: «وقد رأيته قد ضرب على البيتين الآخرين، وسرت بذلك، فإنني سمعت الشيخ الإمام [والد ابن السبكي، وهي تقي الدين علي السبكي] رحمه الله، يحكي عن شيخنا أبي حيان [شيخ النحاة محمد بن يوسف الأندلسي] أنه كان يتعاظهما، ويقول: كيف يرضى الإمام أن يخطب النظام بهذا الخطاب؟ ممّ يذم الدنيا التي تجري مثل الإمام إلى مثل ذلك (2).»

(1) وهذا فإن همّة الإمام الحرمٍ لم تطف في طلب العلم عند حيد أو وقت أو نوع من العلوم، وإنما جدًّا واجتهد في العلم والتعلم، وأخذ المسائل، وتحمل المعلومات، وكان يقتبس من كل نوع من العلوم ما يحكمه، أو يحتاج إليه، مع المواضبة على التدريس والإقامة والتفاؤل والوعظ والمناظرة وغير ذلك.

وكان مبدعاً في علم المناظرة وأصول البحث وأداب الجدل، مبرزاً فيها، قوي الحجة في البحث والخلاف والحجاج، ناضج البهران، حاضر البديهة، شديد الذكاء، يعتمد على حجج القرآن وأدلة العقل وبراهين.

(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 200/5. وقد ذكرنا هذه الأبيات الشعرية عن الإمام حتى لا نعود إليها ثانية في فصل إنتاجه وأثاره.
المنطق، وهو ما دونه أيضا في كتابه «الكافية في الجدل».

وتوعس علمه في دراسة المذهب، وعلم الخلاف بين المذاهب، وشمل ساعده على جميع طرق المذهب من أقوال الإمام الشافعي وأصحابه.

قال ابن السبكي: «وسعى في دين الله سعياً يبقى أثره إلى يوم الدين، ولا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالكلام والأصول والفقه، وأكثرهم تحقيقاً، بل الكل من بحره يغтроءون، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً» (1).

أخذ الإمام الحمران بالتحقيق العلمي، ولم يرض بتقليد والده وأصحابه في شبابه، ونظر في كتاب والده فنقحها وقابها ظهراً لبطن.

ونقل ابن الوردي أن الإمام الحمران أدعى الإتجهاد المطلق، لأن أركانه كانت حاضرة له، ثم رجع عن دعوته، وعاد إلى اللاقع به، وتقليد الإمام الشافعي لعلمه أن منصب الإتجهاد المطلق قد مضت سنة، ولكن رجوعه عن هذه الدعوة لم يمنعه من الإتجهاد وإبداء النظر والرأي، وإعلان الحق الذي وصل إليه واقتنع به، ولو خالف رأي والده أو مشابهه، أو خالف قول الإمام المذهب الشافعي، أو الإمام أهل السنة والجماعة في علم الكلام، وهو أبو بكر الباقلاطي، وإنفرد الإمام الحرميين بأراء وأقوال مستقلة سنشير إليها فيما بعد في فصل آثاره وإنتاجه.

رحلة الإمام الحرميين وخروجه من نيسابور:

ذكرنا سابقاً تفرَّق العلماء في المدينة والأمصار الإسلامية، وأن التنافس كان شديداً بين الأقطار وحواضر الدول الإسلامية، وكانت هذه الوعوص مراكز للثقافة الإسلامية وازدهار العلم توفر العلماء في مختلف الفنون والعلوم، وظهر في كل جانب علماء وفقهاء، وأئمة ومجلدون، ومحدثون.

(1) طبقات الشافعية الكبرى 139/0 139/0، 170، 175، ونظر: مرأة الجنان 3/125، 170.

(2) انظر: المختصر في أخبار البشر 2/197.
ومدرسون، وقراء ومقتون، وقضاة وفلاسة، فضاعت الرحلة في طلب العلم، وظهرت الرغبة لدى طلاب العلم والعلماء أن يسافروا من فار إلى آخر، ومن مدينة إلى ثانية لتحقيق العلم، ويعودون العلماء لأخذوا عنهم شفاهاً وتفاهم، وجلسوا بين أيديهم، وبيتهم من معينهم، لأن طلب العلم لا يشفع، لأن العلم بحر واسع، لا تدرك شواطئه، ولا يعرف غوره، والله سمحاته وتغالي يقول: وما أعطتم من العلم إلا قليلاً» (الإسراء/85)، وفي ذلك يقول الشاعر:

ما حرى العلم جميعاً أحد لا ولي حصله ألف سنة

وانتشرت الرحلة في طلب العلم، بل صارت الرحلة منقبة وميزة وفضيلة، وهذا ما فعله إمام الحرمين الجويني، ولكنه في المرحله الأولى من حياة اقتصر على تحصيل العلم عن والده وعلماء نيسابور والمدن والقرى القريبة منها مثل سرخس ومرور وأصبهان وغيرها، وفي هذه المرحلة تأسس إمام الحرمين على العلوم الأساسية، وتكوين تكوين قويًا ومريئًا، مع ذلك أنه وجود قربه وجد واجتهاده وشرعه على تناول المعارف ليلة ونهارًا، وشعبه بالعلم وجه له، حتى لمع نجمه، وقاق أقرانه، واشتهر أمره وذاع صيته، وتولى التدريس مكان والده، واستمر في تلقى العلماء، ومناظرتهم والاستفادة منهم، إلى أن وقعت فتنة في نيسابور أجرت إمام الحرمين أن ترك موطنه، وأن يفارق مسقط رأسه، وأن يستقل من أعمال الدينية ووظائفه الرسمية في التدريس والخطابة والوعظ، واضطر أن يخرج من بلده ليتوجه في أنحاء المعمورة، ويسبح في أفواه البلاد الإسلامية، وكانت هذه الفتنة مع مارتها وقوتها بابًا مربحاً لإمام الحرمين، فخرج إلى بغداد، ثم توجه إلى الحجاز، وأحرم بالحج وأدى فريضته، وزار المدينة المنورة، وجاور عند المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف، وأمم الناس، وأظهر علمه لهم، وقام بالتدريس، وبقي هناك أربع سنوات، حتى لقب بإمام الحرمين، والتقى بالعلماء واستفاد منهم كثيرًا، وجمع المذهب الشافعي في كتابه، ثم عاد إلى بلده ووطنه سالماً غانمًا، وجامعاً راحبًا، وهو مرفوع الرأس، ناصع الجبين،

88
فاستقبل الناس أحسن استقبال، وعاد إلى أعماله ونشاطه بعد زوال الفتنة وأسبابها، فرب ضياءة نافعة، والله سبحانه وتعالى يقول: فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً (النساء/19)، ويقول: وعسى أن تكرهوا شيئاً، وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئاً، وهو شر لكم، والله يعلم، وآتنم لا تعلمون (البقرة/216).

أما عن سبب خروج الإمام الحرميين من نيسابور فيرى أكثر المؤرخين أن السبب في خروجه يرجع إلى الفتنة التي وقعت بخاراسان خاصة، وامتد أثرها إلى العراق والشام ومصر، وخلاصة تلك ترجع إلى الأحوال السياسية والدينية والمذهبية التي كانت سائدة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، وهي استيلاء الشيعة على معظم الأقطار الإسلامية، واستسلامهم للسلطة والنهوض، وشيوخ آراء المعتملة والباطنية في ذلك الوقت، مما أدى إلى وقوع الفتنة المتكررة بين الشيعة وأهل السنة، وبين المعتملة وأهل السنة، وكان الصراع محتملاً بين الشيعة وأهل السنة سياسيًا وفزاعياً، وكان نمو بوية أصحاب السلطة والنهوض في بغداد والدولة العباسية، وكانوا ينصرون الشيعة الزيدية، ويتبنون آراء المعتملة، إلى أن ظهر في شرق الدولة الإسلامية السلاجقة، وهم من أهل السنة، وبدؤوا بالانتشار والتوسع حتى وصلوا إلى نيسابور ثم بغداد، وقضوا على بني بويه والنهوض الشيعي، ولكن انتصار السلاجقة لا يعني القضاء المبرم على الشيعة المعتملة، واستمر نفوذهم السياسي والفكري ثانوياً في كل مكان ومن وراء ستار، ولم يرموا السلاح دفعة واحدة.

وفي عام 445 هـ كان زعيم السلاجقة السلطان طغرلي بك، أبو طالب محمد بن ميكائيل، وكان من أهل السنة، وعلى المذهب الحنفي، وكان خيرًا عادلاً، محبًا إلى أهل العلم، كثير العبادة، وكان يناصر أهل السنة، ويقف في وجه المبتدعون والباطنية، ومع تسعى في الإصلاح الفكري والاجتماعي، وحرص على قمع الانحراف، ومنع الشذوذ والبدع والتأويلات الخارجية على الدين، وكان وزيراً أبا نصر مصبر بن محمد الكندري، وكان معترفاً
راضيًا، خبيث العقيدة، ويؤمن بمبادئ القدرة والكرامة والمجسمة في التشبيه والصفات وسب الشخنين وسائر الصحابة، وكان شديد التعصب لمذهبه وفرقه وشديد الكراهية على الشافية خصوصًا. وفي ذلك الوقت كان الإمام أبو سهل بن الموفق، محمد بن هبة الله البسطامي النيسابوري زعيم الشافية في نيسابور، وكان صاحب مال وعزم وجاه وسلاسة، ومعرفة بالجود والكرم، وكانت داره مجمع العلماء، وملتقى الأئمة من الشافعية والحنفية، وكان يتوقف له استلام الوزارة مكان الكندري، فخشي الكندري منه، وأراد أن يستغل نفوذه، وأن ينفث حقه وتعصبه، فنذر للسلطان طغرل بك ابن الموفق، فلزم السلطان بذلك، واتخذ الكندري هذا الأمر ذريعة للطعن بالأشعري، والتنبل من الشافعية، والتقليد بالسنة، والانتقام من ابن الموفق، فضم إلى أمر السلطان بلغ المبتدعة لعن الأشاعرة، وتولى نفسه الإشراف على ذلك، وإجبار الأئمة والخطباء في نيسابور بإعلان ذلك في خطبة الجمعة، واستعان ببطاقة من المعترف الذين استترون بالمذهب الحنفي، وقصر إهانة علماء الشافعية، وإيقاع الأذى بهم، ومنهم من الوعظ والتدرس، وعزلهم عن خطابة الجامع، ونقل المعترفة بعض الآراء المحنفة عن أبي الحسن الأشعري إلى السلطان طغرل بك، وأنه يقول بها، ونسوا إليه مذاعمهم دقيقة، وحكوا عنه مقالات مشبوهة، وحجوا السلطان عن مقابلة علماء نيسابور وشرح الحال له، فأعلن العلماء مjahذة الباطل، وحاولوا الاتصال بالجند، وإقناع العسكر بذلك، فلم يفلحوا، فصدر الأمر من السلطان بالقبض على الرئيس الفراني، والاستاذ أبي القاسم الفشري، وإمام الحرمين الجويني، وأبي سهل بن الموفق، ونتفههم، ومنعهم من المحافل، وأغروا بهم العامة والأوبياش، وتم القبض على الفشري والفراني وأودعوا السجن، وحبس، وكان ابن الموفق يقاطع في بعض النواحي، فنجا، ثم دعا الناس إلى القتال والجهاد لإطلاق سراح العلماء، وتم له ذلك، وأما إمام الحرمين فقد أحس بال أمر فاختفى، ثم خرج خفية عن طريق كرمان إلى بغداد والحجاز، وخرج العلماء من نيسابور، ومنهم الحافظ أبو بكر البهقي. واشتد الأمر على ذلك في مختلف البلدان، وهجر العلماء أوطانهم.
ورفضوا الإذاعة لهذا الاضطهاد والإذلال، وفارقوا الأهل، واتجهوا إلى بيت الله الحرام بالحج مستغيثين بالله، ملتجنين إليه متضرعين له، ويقال: لقد جمعت تلك السنة أربعمائة قاض من قضاء المسلمين من الشافعية والحنفية هجروا ببلادهم بسبب هذه الواقعة، ورجل كثير منهم إلى أوطانهم، وتشتت فريق ثاني، وجاور بالحرمين فريق ثالث في العبادة والعلم.

وقد انتهت هذه الفتنة، وتوقف اللعن والسب على المتابر، بعد خروج القشيري والفراتي من الحبس، وكتب أبو القاسم القشيري رسالة باسم "شكاية أهل السنة بحكاية ما تالهم من المحتة" وشرح فيها القصة، وتبين أسبابها، وكشف النقاب عن الشهادات، وتبين أقوال أبي الحسن الأشعري، ورد ما نسب إليه من افتراءات وتشويهات، وعرض عقيدة المسلم، ووضح تدليل الباطنية، وتلبس أصحاب الأهواء، وأنهم نسبوا الأشعري إلى مذهب ذميمة وحكونه عنه مقالات لا يوجد في كتبه منها حرف، ولم يقل أحد من المخالفين له والموافقين شيئاً مما قال، ووصل الأمر إلى السلطان طغرل بك، فاستدعى جماعة من علماء نيسابور ورؤساء الأشاعرة منهم القشيري، وسألهم عمراً وصلبه وما تم، وفيما له الحق، ونطقوا بالصدق، ورجع السلطان وقال: إن لئنّا المبتدعة ومن يقول بالانحرافات المذكورة، ولم تستمر فترة حتى مات السلطان طغرل بك، ثم قتل من بعد الوزير الكندي شر فتلة، ونكبل له، وقطع إرباً إرباً، وتولى الحكم السلطان ألب أرسلان ووزيره نظام الملك، وقاموا بالتصحيح الكامل، وفتح المدارس، وبناء المساجد، وتأييد العلماء، وقطع المفسدين وأصحاب الأهواء، وملاحقة المبتدعة، وكان إمام الحرمين قد رجع إلى أهله ووطنه، واستلم وظائفه وأعماله، وفتح له نظام الملك: مدرسة نظامية نيسابور، فتولى التدريس فيها مع الوظف والخطابة والإمامة والمحاولة مدة ثلاثين سنة دون منازع حتى لقي ربه، وتزالت نوبة التعصب والفتنة.

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 389/3، 389/4، 208/5، وما بعدها، تبين كذب المغتري ص 108 وما بعدها 380، البداية والنهائيه 14/12، مفتاح السعادة 102/2، 110/2، مرة 330.
وذكر بعض كتب التراجم والرجال أن الإمام الحريمين سافر إلى بغداد والهجاز، وجاور بمكة، وتنقل في البلاد، والتقى بالعلماء، ثم عاد إلى نيسابور دون أن يرتبط ذلك بالفتنة والتعصب، وهو ليس غريبًا لأن الرحلة في طلب العلم كانت شائعة ومتميزة، ولا يستنكرها أحد، وقد يكون الإمام الحريمين عزم عليها، ثم أحمس بالفتنة والتعصب، فخرج قبل استفحل الأمر، ويضيف الدهبي وابن العمام أن الإمام الحريمين صحب الوزير الكندري مدة يطول معي في البلدان، ويلتقي بحضوره بكمار العلماء، ويلقي الدروس في العسكري وبغداد، وهذه رواية غريبة لا تتفق مع شخصية الكندري الذي كان معتزليًا رافضًا متعصبًا على أهل السنة، وقد كان وراء الفتن، وأغري العامة بالعلماء من أهل السنة، وأنه قتل شرًّة قتلة، ويعتبر ابن العمام أن الكندري قد تاب وحسن توابته قبل قتله، وله صحب الإمام الحريمين في هذه المرحلة (1).

وأيًا كان السبب فقد خرج الإمام الحريمين من نيسابور، وطوَّع البلاد، وأخذ العلم، وسمع الحديث، وناظر العلماء، وألقى الدروس، واستفاد من هذه الرحلة ثم عاد إلى مسقط رأسه، واستقر فيه حتى وفاته.

شيخوخ الإمام الحريمين:

وفي ختام هذا الفصل عن سيرة الإمام الحريمين، وحياته الشخصية، وطبه للعلم، ورحلاته في سبيل المعرفة نحب أن نذكر باختصار نبذة عن شيوخه وأساتذته الذين أخذ عنهم، وسمع منهم، والتقى بهم.

والواقع أن الإمام الحريمين كان يأخذ العلم عن كل عالم يلقاه في حياته، وأثناء سفره ورحلاته، وخلال مناظراته وتدريسه، فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدتها نطقها، وقد يوجد في الأنهار ما لا يوجد في البحار، وأن العلم لا

__________________________
= الحجتان 3، العبر 3، النجوم الزاهرة 5، شيرات الذهب2/358، 310،
المستلم 18/9.
(1) انظر: البرهان في أصول الفقه 37/1 وما بعدها.

72
نهاية له، وكان الإمام الحريم يستفيد من تلاميذه، وتأخذ عنهم أحياناً بعض الأحكام والآراء، وينسب ذلك لهم بكل اعتزاز، ولا يجد في غضابة، وقد نقل ابن السبكي في ترجمة الإمام أبي نصر عبد الرحيم بن الإمام عبد الكريم القشيري أنه: "تخريج على الإمام الحريم...، وواضب على درسه وصحبه ليلاً ونهاراً...، وكان الإمام يعتن به، ويسافر أكثر أيامه معه مستفيداً منه بعض مسائل الحساب في الفرائض والوصية" ثم يقول ابن السبكي: "وأعظم ما عظم به أبو نصر أن الإمام الحريم نقل عنه في كتاب الوصية من "النهاية وهذه مرتبة رفيعة"(1)، ولذلك كثر عدد شيوخه وأساتذته، وخاصة أنه أخذ العلم عن جميع علماء نيسابور وأصبهان ومرؤو في مقتبل عمره، ثم سمع وتعلم من غيرهم أثناء سفره ورحلته إلى بغداد والحجاز، والمدن التي مر فيها، وكتفته حذر شيوخه.

١ - والده، الشيخ أبو محمد عبدالله بن يوسف الجوسي، الفقيه الأصولي المفسر، الذي تربى الإمام الحريم على يديه، ونهل من معينه، واكتسب من معارفه، ولازمه في طفولته وشبابه، وأخذ عنه الأدب والعلم، وورث عنه جميع الكتب التي ألفها، وقد ذكرنا ترجمته سابقاً، فلا نعود إليها.

٢ - أبو القاسم الإسفرايتي، الإسكاف، وهو عبد الجبار بن علي بن محمد بن حمّاس، أستاذ الإمام الحريم في الكلام، وهو شيخ جليل كبير، من أافاض علماء عصره، ومن روؤس الفقهاء والمكلفين، ومن أصحاب الأشعري، وكان إمام دورة البهقي، وبقى بالتدريس والنظر والفنوى، ويلزم طريقة السلف في الزهد والورع، وكان عالماً عابداً، أخذ عنه إمام الحريم أصول الدين والكلام، وتخريج بديعته، وكان يواظب عليه، وقال الإمام الحريم: "أنت عمّلّك على في الأصول أجزاء معددة، وطالعت في نفسي مائة مجلّدة توفي أبو القاسم الإسكاف يوم الاثنين في الثامن والعشرين من صفر سنة ٤٥٢ هـ"(2).

(1) طبقات الشافعية الكبرى ٦٠٠، ١٦٠، ١٦٩، ١٦٢، ١٦٢، ١٧٠، ١٧٠، تبين كذب المفتي ص ٢٣٥، العقد الثمين ٥٠٧.

٧٣
3 - أبو عبد الله الخبازي، محمد بن علي بن محمد بن حسن، مقرئ
نسابور ومسنده، وهو إمام كبير محقق مستحضر، ولد سنة 372 هـ، وقرأ
علي والده وعدد من قراء القرآن، وصنّف التصانيف وتصدر للإقراء، وتخريج
علي يديه ألبسناع بنبابور وزغزنة، وكان يدخل في غزنة على السلطان
محمود بن سككتين فيكوه غاية الإكرام، وكان كثر الهدوء والتهجد، مُجاب
الدعوة، وكان إمام الحرمين يُبَّرَ كُل يَوْم قَبِ الاِشْتِغال بِالتدريس إِلَى مسجد
أبي عبد الله الخبازي بقرأ عليه القرآن، توفي الخبازي سنة 449 هـ.

4 - فضل الله بن أحمد بن محمد الميِّهِي، الشيخ الإمام الزاهد التقى
الولي، روى عن زاهر بن أحمد السُّرْخِيِّ الفقيه، وغيره، وروى عنه إمام
الحرمين وغيره، وكان صوفيًا أشعريًا، صحيح الاعتقاد، حسن الطرقية، قال
ابن السعائي: كان صاحب كرامات وآيات، واهتدى به فرق من الناس، توفي
سنة 440 هـ بقريته ميِّهِيَة

5 - القاضي حسين بن محمد بن أحمد، أبو علي المرورودي، الفقيه
الشافعي، المعروف بكتاب الشافعية القاضي، صاحب التعليقة في الفقه،
كان إمامًا كبيرًا، وصاحب وجه في المذهب، وصنّف في الأصول والفروع
والخلاف، وقُال له: خَيْرُ الأمَّة، وخَيْرُ المذهب، وتخريج عليه عدد كثير من
الأئمة، وكان يُسِى: فقه خراسان، وأخذ عنه إمام الحرمين، وكان يقول:
إنه خَيْرُ المذهب على الحقيقة، توفي سنة 422 هـ بمرورود.

6 - الحافظ أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن
إسحاق، صاحب كتاب «حلية الأولياء»، كان من الأعلام المحدثين، وأكبر
الحفاظ الثقات، جمع بين الفقه والتصوف، والرواية والدردษา، اخذ عن

(1) انظر: طبقات الفراء /2، طبقات الشافعية الكبرى /170، 171، تذكرة الحفاظ
    3/127.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى /306.
(3) انظر ترجمته في (طبقات الشافعية الكبرى /4، وفيات الأعيان /4، 336، تهذيب الأسماء
    2/41، شذرات الذهب /124/3، 310/3.

74
أفضل العلماء والمحدثين في عصره، وأخذوا عنه، وانتفعوا به، ورحل إليه الناس للسمع منه، ومنهم إمام الحرمين الذي حدث عن أبي نعيم، ثم أجازه بالرواية، له كتاب «تاريخ أصبهان»، وكتابه «حليه الأولياء» مشهور مطبوع ومفيد، وهو من أحسن الكتب، وقائل السلفي: «لم يصنف مثل كتابه حليه الأولياء»، وقال ابن النجار: «هو ناج المتحدثين، وأحد أعلام الدين»، وله كتاب «فضائل الصحابة» و«دليل الغنوة» و«المستخرج على البخاري» و«المستخرج على مسلم» وغيرها، توفي في محرم سنة 430 هـ بأصبهان، وله أربع وتسعة سنة (1).

7 - أبو القاسم الفوزاني، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن فوزان، الفقيه الشافعي المروزي، كان إمام الشافعية في مرو، وأخذ الفقه عن القفال الشاشي، وصنف في الأصول وفروع الشافعية والخلاف والجدل، وروى عنه البغوي وآخذه عن إمام الحرميين في مرو، وكان بينهما جفاء، لأن إمام الحرميين كان يحضر حلقته وهو شاب، وكان الفوزاني لا ينصف ولا يصغي لقوله، لكونه شاباً، ففيه في نفسه منه شيء، وقيل: إن الفوزاني قدم نسباً عندما بلغه موت الشيخ أبو محمد الجوزي بقصد الجلوس مكانه في الإفتاء والتدريس، فظهر إمام الحرميين جاء معاذباً، ولما علم بقصده تناظر مع إمام الحرميين، ثم انصرف إلى مرو، ولذلك يقول إمام الحرميين في كتابه عنه: وفي بعض التصانيف، أو قال بعض المصنفين وصنف الفوزاني كتابه الكبير في الفقه «الأباني»، وتوفي بمرور في رمضان سنة 432 هـ، وعمره ثلاث وسبعون سنة (2).

8 - ومن مشايخ إمام الحرميين في الحديث عدد كثير، فقد سمع الحديث من أبي حسان محمد بن أحمد بن جعفر المزكي الذي سمعه الذهبي

(1) انظر ترجمته في (طبعات الشافعية الكبرى 4/575، وفيات الأعيان 1/1094، طبقات القراء 1/71).
(2) انظر ترجمته في (طبعات الشافعية الكبرى 5/469، وفيات الأعيان 2/314، طبقات الشافعية، ابن هديا الله ص 59، تهذيب الأسماء واللغات 2/280).
مسند نيسابوري(1)، ومن أبي بكر أحمد بن محمد بن الحارث الأصبهاني التميمي، ومن أبي سعد عبد الرحمن بن حمدان النيسابوري النضروي، ومن منصور بن راشد، وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن يحيى المزركي، وسمع سنن الدارقطني من أبي سعد عبد الرحمن بن الحسن بن علی بن دك، وسمع من أبي عبد الرحمن محمد بن عبد العزيز النيلي، وسمع بغداد من أبي محمد الجوهري، وغيرهم، كما أخذ إمام الحرمين الفقه والحديث عن محدث عصره، الفقه الحافظ الأصولي أحمد بن الحسين، أبي بكر البهقي النيسابوري، صاحب التصانيف الكثيرة، والمؤلفات المفيدة، وقد استفاد منه إمام الحرمین، وأثنى عليه، وقال فيه الكلمة المشهورة والمُشَهورة: "ما من شافعي إلا وليد الشافعي في عنقه منه، إلا البهقي، فإن له على الشافعي من، لتصانيفه في نصرته لمذهب واتباعه، يعني بذلك كتبه في الحديث والفقه وخاصة "السنن الكبرى" و"معرفة السن والآثار" و"المسبوق" في نصوص الشافعي، والخلافات، وقد زامل إمام الحرمین الحافظ البهقي، واشتراك معه في التدريس والتحفة، والفترة التي ذكرناها، وتوفي البهقي سنة ٤٥٨ هـ(2).

(1) انظر: تذكرة الحفاظ ١٠٣٦/٣.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٢٠٠٤ وما بعدها، تبين كذب المفتي ص ٢٩٥، وفيات الأعيان ١٥٧١.
الفصل الثاني

إنتاج إمام الحرمين وآثاره

إن وفرة الإنتاج وغزارة يتبع الجهد المبذول في الإعداد، ويتناوب مع الطاقة المخزونة، ويتاثر بقوة الوسائل وسلامتها وجودتها.

いただける القوية التي لقيها إمام الحرميين منذ نعومة أظفاره، والرعاية الصالحة في نشأته، والتوجه السديد في طفولته وشبابه، والجهد الكبير الذي بذله في تحصيله، والذات الدائم على العمل، والجهد الشديد في طلب العلم، والموافقة على الدروس والاستفادة من العلماء، مع ما منحه الله تعالى من الفطرة السليمة، والصبرة المتفتحة، والذكاء الراق، كل ذلك حقق الشمار الطيبة، والإنتاج الفؤاد، والأثر العظيم، والأعمال المجيدة، والذكريات الحميدة، وأنتج أطيب الأثر في المجال العلمي مما جعل اسم إمام الحرميين يتردد على الإسماع، وتنقله الألسنة في حياته، وبعد مماته، إلى يوم الدين، ويزداد صيته في كل مكان.

وترتك إمام الحرميين آثاراً خالدة في التراث الإسلامي، وخلف وراءه البصمات البارزة في مختلف الشؤون العلمية، وكان تأثيره واضحًا في معاصرته، ومن بعدهم، واحتلت كتبه ومؤلفاته مكانة مرموقة بين الشره العلمية التي خلفها لنا الآباء والأجداد، وبدل فيها السلف طاقات ضخمة في حمل الرسالة الإسلامية، والحضارة الإنسانية، ثم في أداء الدعوة إلى الدين الحق، وما يصلح الفرد والمجتمع، وما تحتاجه البشرية من إشعاع ونور.

كانت مؤلفات إمام الحرميين وتصانيفه كثيرة وعديدة، وتمتاز بالجودة.
الإتقان، والعمق والتحليل، والإبداع والتجديد، والثقة في البحث، والتدقيق في الأحكام، والتحقيق في الآراء، وترد على هذه المؤلفات بالسخاء في الأسلوب، والبراعة في التعبير، والبلاغة في التракيب، والانتماء في الكلمات، والوضوح في المفردات، فترتفع إلى مستوى غوي رفيع يزين الجوانب العلمية، ويقربها للأذهان.

كما كثر عدد التلاميذ الذين جلسوا بين يدي إمام الحرمين، وأخذوا عنه، ونيلوا من علمه، ورشفوا من معينه، وقبلوا عنه علمه وكتبه وآراءه، ثم نشروا في الأصقاع وحفظوها إلى من بعدهم.

وأمثلت كثرة التصانيف وقدّد التلاميذ مقتربة مع المواضيع على التدريس والوعظ والإمناء والإشراف على أمور الأوقاف، كما اقترب كل ذلك مع كثرة العبادة وذكر الله تعالى وقيام الليل.

وباختصار فقد كان إمام الحرمين موضوعاً علمياً، أخذ من جميع العلوم، وصنف في أكثر المعابد، ولكن كان مبدعاً ومحظياً في التأليف والتدريس في ثلاثة علوم أساسية، وهي علم الكلام وأصول الدين، وعلم الفقه والخلاف، وعلم أصول الفقه، وشارك في علم الجدل والمناظرة، وفي الفقه العام والحقوق الدستورية، حتى قال علماء التاريخ والترجم: إنه صنف في علوم الشريعة كلها.

ولاقت كتب إمام الحرمين في القديم قبولًا حسناً على المستوى الرسمي عند السلطان ألب أرسلان وزعيم الشهير نظام الملك الذي قابلها عليها بالشكر والتقدير وتقديم الخيل والمراقبة الثمينة، كما نالت كتب إمام الحرمين شهرة فائقة على المستوى العلمي، فدورها التلاميذ، ونسخها الكتاب، واهتمام بها علماء عصره، وذاعت في الآفاق، وتفاها الفقهاء وعلماء الأصول وعلماء الكلام بالتقدير والتمييز، والدراسة والتقييم، والشرح والمؤلفات، وانتشارت كتب إمام الحرمين وأرواؤه وأقواله على المستوى الشعبي في نيسابور وبغداد والبحار والبلاد التي رحل إليها أو مر بها، ثم شاعت في أرجاء الدولة الإسلامية وبين جميع المسلمين، وتناقلوها جيلاً عن
 jakieś، حتى وصل إلينا معظمها والحمد لله.

ثم لاقت كتب الإمام الحرميين عناية خاصة في العصر الحاضر، وأقبل عليها العلماء في مختلف الفنون، وبدأت هذه الكتب تطبع وتشير تدريجيًا، واقتصر الأمر في النصف الأول من القرن العشرين على بعض كتبه، كالعقيدة النظامية، ومغيب الخلق، وفي النصف الثاني من القرن العشرين بدأت تظهر بقية كتبه الشمية والكبرية إلى النور، وخاصة في الأعوام العشرة الأخيرة، كالبرهان، والكافية، والشامل، والإرشاد، ومع الأدلة، وبقى حتى الآن أهم كتبه على الإطلاق مخطوطة لم ير النور، وهو "نهاية المطلب" مع توفر عدد من النسخ المخطوطة منه.

ثبت بكتك الإمام الحرميين:

ويمكننا تصنيف مؤلفاته وإنتاجه إلى ما يلي:

١ - كتب العقيدة وأصول الدين وعلم الكلام، وهي:

١ "- الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد.

٢ "- الشامل في أصول الدين.

٣ "- لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة.

٤ "- العقيدة النظامية.

٥ "- مسائل الإمام عبد الحق الصفلي وأجوبتها.

٦ "- كتاب أسماء الله الحسنى.

٧ "- شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل.

٨ "- رسالة في أصول الدين.

٩ "- مختصر الإرشاد للباقلاني.

١٠ "- التلخيص في الأصول، ولعله هو الكتب السابق بعنوان آخر.

١١ "- الكرامات.

٢ - كتب أصول الفقه، وهي:

١ "- البرهان في أصول الفقه، وهو أهمها.
2. الإرشاد في أصول الفقه.
3. الورقات في أصول الفقه.
4. كتاب المجتهدين.
5. رسالة في التقليد والاجتهاد.
6. التحفة.

3. كتاب الفقه، وهي:
1. نهاية المطلب في دراسة المذهب، وهو أعمها وأبرزها وأوسعها.
2. السلسلة في معرفة القولين والوجهين على مذهب الشافعي.
3. رسالة في الفقه.
4. منظورات في الاجتهاد في القبلة.
5. منظورات في زواج البكر.
6. مختصر النهاية، أو تلخيص نهاية المطلب.

4. غياث الأمهم في النبات الظلم، وهو في الفقه العام، ونظام
الحكومة، وأصول الحكم، والسياسة الشرعية، والأحكام السلطانية.
5. كتاب في الخلاف، أو الفقه المقارن بين المذاهب، وهي:
1. الدرجة المضمّة فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية.
2. غنية المسترشدين في الخلاف.
3. مغشي الخلق في ترجيح القول الحق.
4. الأساليب في الخلافات، وأشار له إمام الحرميين كثيراً في كتابه
البرهان،(1).

6. كتاب في أصول البحث وآداب المناظر والجدل، وهو الكافية في
الجدل.

7. كتاب في العلوم الأخرى، وهي:
1. كتاب في النفس.

(1) انظر: البرهان 2، طبعت الشافعية، السنوي 412/1. 80
2- ديوان خطبه المنبرية.
3- كتاب الأربعين في الحديث.
4- قصيدة، وهي وصية لوليده، ويوجد منها نسخة خطية ببلين، برقم ۲۲۱.
5- تفسير القرآن الكريم (۱)

وتلاحظ من هذا العرض تنوع الكتب والمصنفات التي خلفها إمام الحرمين، وهي تدل على سعة ثقافته، وتنوع مؤلفاته، وشملت كتبه للعلوم الإسلامية (۲). وسوف نخصص كل كتاب بالتحليل والشرح، ونبني بالتفصيل ما يتعلق به من ناحية الموضوع والأفكار التي وردت فيه، وما قدّمه العلماء حوله من شروح أو تعليقات أو حواس، وعن مصير كل كتاب في الوقت الحاضر، واستقراره بين المخطوطات ودور الكتب والمكتبات والمتاحف في أرجاء العالم، وما طبع منه، أو تحقق ونشر.

تلاميذ الإمام الحرمين:

لم يقتصر أثر الإمام الجويني وإنتاجه في التأليف والتصنيف الكثي
المبارك، ولم يكن مترغماً للبحث والكتابة، وإنما كان قبل ذلك وبعد ذلك
وفرقة كل ذلك واعظاً وخطيباً، ومعلماً وأستاذاً، ومدرساً وإماماً، وكانت
معاهدته الذاتية، وشخصيته العلمية، ومكانته الكبيرة، وذكائه ورفاته، ذات
تأثير كبير في طلبه وتمايزه، وزم هوية متزلفة، فروض الحوسبة العالية من التلاميذ الذين نهلوا
من معينه، واعتبروا من بحروه، واكتسبوا منه فضله وعلمه، وتأثروا بشخصيته
وموانئه، وجدوا بين يديه، واتقوا حوله في مجلسه، وواظبوا الطلب عنه،

۱- د. حافظ خليفة في كشف الطالون ۱۳۰۶/۱۳۰۸، وطاش كبرى زادة في مفتاح
السعادة ۲/۱۱۰، والصحيح أن هذا التفسير لأبي محمد الجويني والد الإمام الحرمين.
۲- انظر: مرآة الجنان ۱۲۷، تراجم الرجال ص ۱۹، طبقات الشافعية الكبرى ۱۷۸/۵،
النجم الزاهر ص ۱۲۱، مفتاح السعادة ۲۳۰، العقد الثمين ۵۰۷/۵، المنظم ۱۹/۹،
روضات الجنان ص ۴۳۳، طبقات الشافعية، الإستديو ۱/۱۰۴، وفيات الأعيان ۲۴۴/۲،
المختصر في أسرار البشر ۲۱۹/۹، شذرات الذهب ۲۱۹/۳، هدية العارفين ص ۲۲۲،
طبقات الشافعية لأبن هديا لله ص ۹۹، نبين كذب المفتي ص ۳۸۱، الجويني ص ۵۹،
الكافية في الجدل ص ۱۲، اليعاسواق ۲۹/۱.

۸۱
وقد كان تلاميذ الجوني من الأكابر والفضلاء، والآية والعلماء، وكان عددهم كبيرًا، يقول ابن السبكي، نقلًا عن كلام عبد الغافر: «وتخرج به جماعة من الأئمة والفحول، وأولاد الصدور، حتى بلغوا محل التدريس في زمانه»، ويقول أبو الفدا: وله عدة تلاميذ من الفضلاء كالغزالي وأبي القاسم الأنصاري وأبي الحسن علي الطبري، وهو المعروف بالكيا الهراسي»، ويقول ابن الجوزي: «وكان يحضر درسه كل يوم نحو ثلاثمائة، وتخرج به جماعة من الأكابر حتى درسوا في حياته»، ويقول الذهبي: «وكان له نحو من أربعمائة تلميذ رحمه الله» وهذا لا يعارض كلام ابن الجوزي، فمن يحضر من التلاميذ يصل إلى الثلاثمائة، ومجموع التلاميذ يصل إلى الأربعمائة، ويقول الفاسي يصف حزن الناس على إمام الحرمين الجوني عند وفاته: «وكسر تلامذته محابره وأقلامهم وأقاموا على ذلك عامًا كاملاً، وكانوا يمثلون أكثر من أربعمائة تلميذ»، وقال ابن كثير: «واشتعل عليه الطلبة، ورحلوا إليه من الأقطار، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة متفقه»، وقال ابن خلكان: «وحضر دروسه الأكابر من الأئمة»، وقال:

(1) طبقات الشافعية الكبرى 176/5
(2) المختصر في أخبار البشر 196/2
(3) المتunal 199/9
(4) العبر 291
(5) العقد تنمز 508/5
(6) البديعة والنهائية 128/12
(7) وفيات الأعيان 242/2
طاش كبري زادة: «فظهرت تصانيفه، وحضر مجلسه الأكبر والجمع العظيم، وكان يعقد بين يده كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة والطلبة»(1)

وقال السمعاني: «بارك الله في تلامذته حتى صاروا أئمة الدين، مثل الخويفي والغزالي والكما الهريسي والحاكم عمر النوفاني رحمهم الله»(2).

ونلاحظ من مجموع هذه النصوص وغيرها أن تلامذة إمام الحرمين الجويني بلغوا مكانة عالية في حياته، وبعد وفاته، وصاروا أئمة في العلم والدين، وتولوا التدريس والإفتاء والتصنيف متأنين بأسلوبهم وشيوخهم، وأن الأئمة والعلماء في عصره كانوا يحضرون دروسه للاخذ عنه والاستفادة منه، وأن كثيراً من التلاميذ والعلماء كانوا يقصدون نسباية للفقه على إمام الحرمين، وأنه لم يعهر أحد في زمانه نسباية إلا وتوجه إليه ينهل من معينه، ويتزود من فضه، وأن كثيراً من التلاميذ كانوا يأتون إليه بعد أن درسو العلوم على غيره، فأتون إليه للتوسع والتعصّب والإحاطة، وكانهم في دراسات علياً عند الجويني.

وكان إمام الحرمين الجويني يمنح تلاميذه الحبة والتقدير والاحترام، ويهسن التعامل معهم، ويؤثر عليهم تأثراً عميقاً بعلمه وشخصيته، وكان كثير التواضع معهم، كما سرى في خلقه وشيمه، ولا يتأف أن يأخذ عن تلاميذه بعض المسائل، وينبغي لهم، كما سرى في سيرته مع عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيري، وكان يعرض للتلاميذ فضله ووجهه واجتهاده، ويشجعه على ذلك، وكان يصف بعض تلاميذه فيقول: «الغزالي بحرٌ مغدق، وعكايا أسد مخرق، والخوافي نار تحرق»(3).

وسوف نذكر بعض تلاميذ الجويني الذين اشتهروا في كتب التراجم، ونعطي نبذة مختصرة عن حياة هؤلاء التلاميذ، كأثر من آثار الإمام رحمه الله.

---

(1) مفتاح السعادة 2/300/3.
(2) الأنساب 144/3.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 196/3
1 - إبراهيم بن المطهر، أبو طاهر الشباك الجرجاني:
حضر دروس إمام الحرمين بنيسابور، ثم صحب الغزالي بعده، وسافر معه إلى العراق والحجاز والشام، ثم عاد إلى وطنه بجُرِجَان، وأخذ بالتدريس والوعظ، وظهر له القبول، وبنى له مدرسة، ثم قتل بقعة ومات شهيداً سنة 513 هـ (1).

2 - أحمد بن محمد بن المطهر، أبو المظفر الخوافي النيسابوري:
الفقيه الشافعي، الإمام المشهور، كان أنظر أهل زمانه، وأعرفهم بطريقة الجدل في الفقه، تفقه على الشيخ إبراهيم الضرير، فخرج به بعض التخرج، ثم انتقل بعده إلى خدمة إمام الحرمين وصحبه، فتفقه عليه ولازمته وبرع عندده حتى صار أوجه تلامذته، وكان من عظماء أصحابه وأخصاء طلبه، يذاكره في ليل ونهاره، ويسامر علانية إذا دجا الليل وماح في أسراره، وكان إمام الحرمين يعجب بفصاحته، ويشن على حسن مناظره، ويصفه بالفضل، يقول ابن خلكان: وكان رفيق أبي حامد الغزالي في الاشتغال (أي على إمام الحرمين)، ورزق الغزالي السعادة في تخصصه، والخوافي السعادة في مناظراته، ولي الخوافي القضاء بطرس، ونواحيها، والخوافي نسبة إلى خواف، وهي ناحية من نواحي نيسابور كثيرة القرى، توفي سنة 500 هـ بطوس (2).

3 - إسماعيل بن أحمد بن عبد الملك بن علي النيسابوري، أبو سعد بن أبي صالح، المؤذن:
كان والده محدثاً مشهوراً، وكان هو فقيهاً كبيراً، وإماماً من الأئمة، تفقه على إمام الحرمين وأبي المظفر بن السمعاني وأبي إسحاق الشيرازي، وكان قد تفقه قبل ذلك على أبي القاسم الفوشنجي، وقال ابن عساكر: «كان

_________
(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/36.
إمامًا في الأصول والفقه، حسن النظر، مقتَدِماً في التذكير...، وسكن كرمان إلى أن مات فيها، وجبَهَا عند سلطان كرمان، معظِّمًا بين أهلها، محترمًا بين العلماء في سائر البلاد، وقرأ كتاب الإرشاد على مصنفه إمام الحرمين، وكان ذا رأي وعقل وتدبير وفضل وافر وعلم غزير، توفي ليلة عيد الفطر سنة 532 هـ ودفن يوم الفطر(1).

4- إسماعيل بن عبد الملك بن علي، أبو القاسم الحاكمي:

كان إمامًا ورعاً بارعاً حسن السيرة، برغ في الفقه، وهو من أهل طوس، ومن تلاميذ إمام الحرمين، سافر إلى العراق والشام مع الغزالي، وكان شريكاً له في الدرس، وكان أكبر سنًّا منه، وكان الغزالي يكرمه غاية الإكرام، ويقدمه على نفسه، توفي سنة 579 هـ، بطوس ودفن إلى جانب الغزالي، وسماه ابن كثير: إسماعيل بن عبد الله، أبو القاسم الحاكم(2).

5- سعد بن عبد الرحمن، أبو محمد الاستربادي:

الفقيه، تفقه بنيسابور على ناصر العمري، وبقى الروذ على القاضي حسنين، ثم لازم إمام الحرمين، وصار من أخصِّصَه، وكان إمامًا ورعاً، قال عبد الغافر الفارسي: هو الفقيه البارع، أحد أركان الفقه، المختصين بإمام الحرمين بعد أن درس الفقه قديماً على ناصر وغيره من فقهاء نيسابور، توفي سنة 490 هـ بشوال(3).

6- سلمان بن ناصر بن سيفر، أبو القاسم الأنصاري:

الإمام الشيخ المتكلم، أخذ عن إمام الحرمين، وصنف بشرح الإرشاد في أصول الدين، وكتاب "الفناء" في الخلاف، وكان بارعاً في أصول الدين، وأصول الفقه والتفسير والفقه، وهو من أهالي نيسابور، وكان فريد عصره في

---

(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 4/477، البديعة والنهياء 209/12، البحث الكبير، المنشئ 52/10.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 4/238.
فنه، دقيق النظر، وافقاً على مسالك الأئمة وطرقهم في علم الكلام، بصيراً بمواضع الأشكل مع قصور في تقرير لسانه، فكانت معرفته فوق نطقه، ومعناه أوفر من ظاهره، توفي سنة 512 هـ (1).

7 - سهل بن أحمد بن علي، الحاكم أبو الفتح الأرغاني:
كان إماماً كبير المقدار في العلم والزهد والفقه، وهو صاحب الفتائى المنسوبة إليه المستخرجة من كتاب «نهاية المطلب»، تفقه بمرور على الشيخ أبي علي السنجي، ثم قرأ على القاضي حسين، وحصل طريقته، ثم دخل نيسابور وقرأ الكلام وأصول الفقه على إمام الحرمين الجويني، وناظر في مجلسه، وارتفع كلامه، ثم عاد إلى بلده أرغاني، وهي ناحية من نواحي نيسابور، وتقلد قضاءه سنتين مع حسن السيرة وسلوك الطرقية المرضية، ثم خرج إلى الحج، ولقي مشايخ العراق والحجاز والجبل وسمع منهم وسمعوا منه، ولما رجع عنز نفسه عن القضاء، ولزم البيت للعبادة والتضنيف إلى أن توفي سنة 499 هـ، وأوصى أن يدفن بالصحراء (2).

8 - عبد الجبار بن محمد بن أحمد الخواري:
هو الشيخ أبو محمد البيهقي إمام الجامع المنسي بنيسابور، وأحد تلامذة الإمام الحريم، وهو من بلدة خوارق ببيهقي، وكان إماماً فاضلاً عارفاً بالمذهب متوفياً، تفقه على إمام الحرمين، وعلق عليه المذهب الكبير، وهو كتاب «النهاية» برفع فيه، وكان سريع القلم، نسخ بخطه كتاب «النهاية» للجويني أكثر من عشرين مرة، وكان يكتب ويبعه، توفي سنة 536 هـ (3).

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 96/7، تبين مذهب المفتري من 307، شذرات الذهب 54/4.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 391/4، وفيات الأعيان من 3/2، 358/1، 102/12، 162/12.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 144/7، شذرات الذهب 113/8، النجوم الزاهية 270/5.
9 - عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن، الأستاذ أبو نصر بن الأستاذ أبي القاسم القشيري:

هو الرابع من أولاد الأستاذ أبي القاسم القشيري، وأكثرهم علماءً، وأشهرهم اسمًا، وأمه فاطمة بنت أبي علي الدقاق الفقيهة، وهو من أهل نيسابور، راه أبوه أحسن تربة، وتخرج به في العربية وأصول الدين والحسب والتفسير، ولما توفى أبوه انتقل إلى مجلس إمام الحرمين، وواجد على درسه وصحته ليلاً ونهاراً، حتى حصل طريقته في المذهب والخلاف، وكان إمام الحرمين يعتد به، ويتفرغ أكثر أيامه معه، ويستفيد منه بعض مسائل الحساب في الفرائض والوصايا، وكان إمام الحرمين يشد به وينسب ما يأخذ منه له، ولما فرغ من تحصيل الفقه تأهله للخروج إلى الحج، وعقد له مجلس وعظ في بغداد حضره الجم الغفير من الناس والعلماء، ومنهم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وكان يشبه أبيه في علومه ومجالس، وبعد رجوعه كان يواطب على درس إمام الحرمين، ويشغل بزيادة التحصيل، وأقام يدرس ويعظ ويروي الحديث إلى أن توفي سنة 514 هـ، بنيسابور، قال ابن السبكي: "أعظم ما عُظم به أبو نصر أن إمام الحرمين نقل عنه في كتاب الوصية من النهاية، وهذه مرتبة رفيعة.

10 - عبد الرزاق بن عبد الله بن علي بن إسحاق الطوسي:

أبو المعالي المعروف بالشبهاء الوزير، وزير السلطان سُنجر، وهو ابن آخى نظام الملك، كان فاضلاً، تفقه على إمام الحرمين، وأخذ عنه حتي صار من فحول المناضرين، وصار إمام نيسابور في عصره، ومن مثاله العلماء، ولي التدريس بمدرسة عمه نظام الملك مدة، ثم صار وزيراً مدة، وكان يجتمع عنه الأئمة ويناظرهم، ويشترك في كلامه عليهم، وكان فصياً جريئاً، توفي سنة 515 بسُرح، ثم حمل إلى نيسابور ودفن بداره.

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 159/7، نبين كتب المحترق ص 308، البداية والنهاية 187/12، وفيات الأعيان 1377، فوات الوفيات 559/1.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 18/7، البداية والنهاية 189/12، النجوم الزاهرة 222/3.
11 - عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر، الحافظ، أبو الحسن، الفارسي ثم النيسابوري:
كان إماماً في الحديث وال العربية وقرآن القرآن، وتفقه على إمام الحرمين، أبو المعالي الجويني، ولازمه سنة أربع سنين، وهو سبط أبي القاسم عبد الكريم القشيري وسمع عليه الحديث الكثير، وأخذ العلم عن جدته وأخواله، وكان أديباً ماهرًا بلغاً، وكان أحسن المؤرخين أديباً، وأصبحهم سناً، وأحسنهم بياناً، وكان خطيب نيسابور وإمامها، صنّف "السيّاق" في تاريخ نيسابور، وينقل العلماء عنه كثيراً، وصنّف كتاب "مجمع الغرائب" في غرب الحديث، خرج إلى خوارزم، وزغزة، ولقى الأفضل، وعقد له المجلس ثم رجع إلى نيسابور، وتوفي سنة 529 هـ بها.

12 - عبد الكريم بن محمد بن أبي متصور الزعائي، النيسابوري:
هو من أهل الدامghan، دخل نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين، ثم عاد إلى بلده، وولى القضاء بها، وتوفي سنة 545 هـ بالدامghan.

13 - علي بن عبد الرحمن بن أبي الوفاء، أبو طالب الجيّري:
هو إمام فاضل زاده من بيت علم، وكان يسكن صومعة بالجيرة، حدث عن أبي إسحاق الشيرازي وغيره، وتفقه على إمام الحرمين، ومات سنة 548 هـ.

14 - علي بن محمد بن علي الطبري، أبو الحسن، الملقب عدم الدين، المعروف بالكيا الهراشي:
الإمام، الفقيه الشافعي، قال ابن السبكي: "أحد فحول العلماء، ورؤوس الأئمة، فقهاً وجدلاً وأصولاً وحظياً لمثله أحداث الآحامم"، وهو

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 171/7، تذكرة الحفاظ 172/2، وفيات الأعيان 291/2.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 180/7.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 226/7.

88
من أهل طبرستان، خرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين الجويني مدة
إلى أن برع، وكان حسن الوجه، جهوري الصوت، فضيح العبارة، حلول
الكلام، وهو أجمل تلامذة الجويني بعد الغزالي، وكان من وجه الأصحاب
ورؤوس المعيدين في الدروس على جماعة حتى تخرجو به، وكان مواظباً
على الإفادة والاستفادة وبعد وفاة إمام الحرمين خرج إلى بيهج ودرس بها
مدة، ثم خرج إلى العراق وأقام فيها يدرس في المدرسة النظامية في بغداد إلى
أن توفي سنة 504 هـ، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق، وله كتاب "شفاء
المستنشرين" وهو من أروع كتب الخلافات، وألف في أصول الفقه والتفسير
وغيرهما(1).

15 - عمر بن الحسين بن الحسن، ضياء الدين، أبو القاسم الرازي:
خطيب الري، والد الإمام فخر الدين الرازي، كان أحد أئمة الإسلام،
ومقدماً في علم الكلام، وقد أخذ علم الكلام عن أبي القاسم الأنصاري
سلمان بن ناصر، تلميذ الإمام الحرمين، وألف كتابه "غاية المرام" في علم
الكلام، وقال عن الجويني: هو شيخي وأستاذني، وكان أبو القاسم الرازي
فقيهاً وأصولياً وصوفياً ومحدثاً وأديباً، توفي سنة 559 هـ(2).

16 - عمر بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الخطيب الأرغياني،
المعلوم بالأحداث:
وهو أخو أبو نصر محمد بن عبد الله الأرغياني، وكان فقيهاً صالحاً
سديداً، كثير الخير، ورد نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين، وسمع أبا
القاسم القشيري وغيره، وتوفي سنة 634 هـ في نيسابور(3).

17 - عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر، أبو حفص السرخسي الشيرازي:
كان فقيهاً محقاً مؤففاً حسن السيرة، كثير الدروس للقرآن، وتفقه على

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 231/6، كتب المفتي ص 288، وفيات الأعيان
2448/177/12.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 244/7.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 2447/7.

89
الإمام أبي المظفر بن السمعاني وغيره بمرو، وسمع بسرخس وبلخ وأصبحان عدداً من المحدثين، وشيَّرَ من أعمال سرخس، وقدم نيسابوراً، وكان من وجوه تلاميذ الجوني، وصنف التصانيف في الخلاف والنظر، وصار يضرب به المثل في علم النظر، وأقام بمرو حتى توفي بها سنة 529 هـ.

18 - غانم بن الحسين، أبو الغنائم، الموشيلا: من أهل أرمينيا من بلاد أذربيجان، وكان جده الموشيلا نصراياً، ومعنى موشيلا اسم كتاب للنصاري، قال ابن السمعاني عن غانم: «فقيه فاضل ورع مفتى مناظر، ورد بغداد، وأقام بها متفرقاً على أبي إسحاق الشيرازي»، وتفقه بنيسابوراً على إمام الحرميين الجوني، وكان يناظر أبا سعد المتولي، توفي في حدود سنة 525 هـ بآرمينيا.

19 - محمد بن أحمد بن أبي الفضل أحمد بن حفص الماهياني: من أهل مرو، وmahian من قراها، وهو إمام فاضل ورع حسن السيرة، جميل الأخلاق، كانت له معرفة تامة بالفقه، تغرب مدة بنيسابور عند إمام الحرميين يتفقه عليه بعد أن تفقه بمرور على أبي الفضل محمد بن أحمد التيميمي، ثم سافر إلى بغداد، وأقام بها مدة عند أبي سعد المتولي، ودرس عليه الفقه حتى برع فيه. توفي سنة 525 هـ.

20 - محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأموي، أبو المظفر الأبيوريدي، الشاعر القرشي: الأديب الماهر، المجمع على علمه وذكائه، وقوة نفسه، وكرة تعفه، قال ابن السمعاني: «وأوحد عصره، وفرّيد دهره في معرفة اللغة والأنساب، وقال شعراً أورد فيه ما عجز عنه الأوائل من معاني لم يسبق إليها، سمع الحديث من كثيرين، وتفقه على إمام الحرميين، وامتدحه بقصائد بديعة، وله

______________________________
(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/250.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/251.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/269 هامش.
تصنيف كثيرة، منها "تاريخ إبراهيم ونساء" والمختلف والمؤلفات والطبخات العلم، ودُوِّن شعر عظيم قُسّمه إلى العراقيات والنجديات والوحدانيات، وكان يفتخر بالأمويين، توفي مسمومًا بِصبهان سنة 507 هـ.

２１ - محمد بن حاتم بن محمد بن عبد الرحمن، أبو الحسن، الطائي:
من أهل طوس، ورد نيسابور، وتفقه على إمام الحرمين، ثم سافر إلى العراق والشام والحجاز والثغور، وسمع الحديث، ثم رجع إلى نيسابور، وسكنها إلى أن مات سنة 512 هـ.

２２ - محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأرديان، أبو نصر:
قدم من بلده إلى نيسابور، واشتغل على إمام الحرمين الجوني، وبرع في الفقه، وكان إمامًا متفقا ورعاً، كثير العبادة، حسن السيرة، مشتغلًا بنفسه، توفي سنة 528 هـ ودفن بِظاهر نيسابور.

２３ - محمد بن محمد بن أحمد بن أحمد، الطوسي، أبو حامد الغزالي:
الإمام الجليل، وحجة الإسلام، قال ابن عساكر: "لم تَر العيون مثله لسانًا وبيانًا ونطقاً، وخاطراً وذكاءً وطباعاً، ولم يكن للشافعية في آخر عصره مثله، طلب العلم في مبدأ أمره بغرض، اتخذ نيسابور، واختلف إلى دروس الإمام الحرمين الجوني في طائفة من الشبان من طوس، ودَّد واجهد حتى تخرج عن مدة قربة، وبرَّ الأقران، وحمل القرآن، وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه، وصار أنظر أهل زمانه، وكان الطلبة يستفيدون منه، يدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه، بدأ التصنيف في ذلك الوقت، وكان أستاذه الإمام الحرمين يبتغي به ويعتدي بمكائه، وبي قبض إلى أن توفي إمام الحرمين، فخرج إلى العسكر ولقى نظام الملك فاكروه وعظمه.

(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 9/6، المكتوم 92/6، البداية.
ودخل بغداد ودرس بال匿اشية فيها مع اشتغاله بالتصنيف مدة، ثم عزم نفسه
عن الدنيا، وخرج إلى الجح ثم عاد إلى دمشق ثم توجه إلى بيت المقدس
فجاور فيه مدة، ثم عاد إلى دمشق وافتاك، ثم قصد مصر، ثم عاد إلى
موطنه طوس واشتنغل بنفسه، وصنف الكتب المفيدة في الفقه وأصول الفقه
والعفيدة والرد على الفلسفية والباطنية، توفي سنة 505 ه بالطبران، ودفن
بها، وهي قصة طوس(1).

24 - مسعود بن أحمد بن محمد بن المظفر، الخوافي، أبو المعالي:
وهو ابن الإمام أبي المظفر أحمد الخوافي المشهور الذي تقدمت
ترجمته، وهو من أهل نيسابور، كان فقيهاً مناظراً، ذا رأي حسن، وتدير
صائب، وأحد مدرسي النظامية، نيسابور، تفقه على إمام الحرمين، ومات
بمواف سنة 556 ه(2).

25 - هاشم بن علي بن إسحاق بن القاسم، أبو القاسم الأبيورد: فقه فاضل عالم، تفقه على إمام الحرمين الجويني، وسمع الحديث
ببغداد ومكة ونيسابور وأمل، وتوفي سنة 527 هـ (3).
وردوي عن إمام الحرمين عدد من المحدثين والعلماء قبل زاهر بن طاهر
الشجاعي، وأبو عبد الله الغراوي وغيرهما(4)، وكتبه بهذا العدد من تلاميذ
إمام الحرمين، وقد لاحظنا كيف صار تلامذته أمة وعلماء وقد كان تأثير إمام
الحرمين فيهم قويًا وظاهرةً، وكانوا حملة علمهم، ونقلة كتبه، وليسان شرهته،
وأثره من بعده.

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، 191/6، 191/16، 173/12، 306/12، 203/5، 247، ورق اللفك والدعوة ص 157.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، 327/17، 324/5.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، 327/17.
(4) انظر: طبقات الشافعية الكبرى، 327/17، ميزان الاعتدال 14/24.
الفصل الثالث
إمام الحركين وعلم الكلام

علم الكلام وعلم أصول الدين:

عرضنا سابقاً أن إمام الحركين درس أصول الدين وعلم الكلام بتوسع، وعمق في أخواره، وحفظ منه آلاف الأوراق، وجمع جوانبه، وأخذه عن كبار علماء عصره، حتى أصبح أعلم الناس في زمانه بأصول الدين وعلم الكلام.

وكان الدافع لدراسة أصول الدين أولاً، وتأكيده بدراسة الفلسفات المتنوعة، هو الحرص على الإسلام، والدعوة إليه، ورد شبهات الأعداء عنه، وتفكير حجج الطاعنين به من الكفار والمشركين خارج الدولة الإسلامية، ومن المناقشين والمarchsدين الذين انضموا تحت لواء المسلمين، وترووا بالباطنية وغيرها من الفرق الضالة، للديس على الإسلام، والشكيك فيه، وإثارة الشبه بين المسلمين، وزرع البلاء في العقيدة، ومحاولة دس الأفكار الدخيلة والباطلة بين أفراد المسلمين وفرجهم ومذاعبهم، والاستعانة بفلسفة اليونان، ومنطق الرومان، وأوهام المجوس والفرس والهندوس، وعقائدهم الدينية الوثنية، وذلك بعد ترجمة ثقافات هؤلاء القوم إلى العربية، حتى أمر المهدي في منتصف القرن الثاني الهجري علماء الجدل والكلام بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين وأهل الزيغ، فنهض العلماء يدرسون الفلسفة والثقافات الأجنبية، ويتعمقون فيها، ويسألون غورها، ويعرفون أسراها، ليستخدموها في الرد على أصحابها، وكتشف أصفها، ولجأوا إلى أسلوب المنطقة، والاعتماد على الحجج المنطقيّة، والأدلة العقلية، وأول من حمل هذا اللواء
المعتزلة الذين حققوا انتصارات حاسمة في وجه الفرق المنحرف، والتيارات الوافدة، والأراء الخادمة، وكادوا يمجدون العلم، ويرفعونه مكاناً عالياً، لمواجهة الأعداء، لكنهم اعتمدوا على نفس السلاح العقلي في فهم القرآن، وفي تحديد مفاهيم الإسلام، مما أوقعهم في خبط شديد، وانحراف كبير، وسلطوا سلاحهم على نفس المسلمين، واستطعوا إقناع بعض الخلفاء والحكام بآرائهم، لقوة حجتهم العقلية، وحاولوا حمل الناس بالسلطة والقوة والإجراه عليها، كالأقول بخلق القرآن، والنزية العقلية في صفات الله تعالى، ومسألة نفي الرؤية وغيرها، ودامت الفتنة بذلك فترة طويلة، كما عرضت في الحالة الدينية سابقاً، وخاصة في خلافة المأمون والمعتصم والواقف، وتبت العلماء والأئمة أملاً هذا التيار، وأظهر الإمام أحمد بن حنبل صموداً رائعًا في الثبات على الحق، حتى رفع الخلافة المتوكل الامتحان القسري، وطلب من المع المناظرات والمجادات، واستمر النزاع الفكري على أشبه، مما دفع حماة الإسلام، وعلماء الدين، الذين يغاظون على أمتهم، ويحملون لواء الدعوة، ويشرون بثقة المسؤولية، ويسعون بالأمانة الملحة على عاتقهم، أن يبدعوا عن سواعدهم لتفتيض آراء المعتزلة والدفاع عن العقيدة والشريعة، ونفض الفلسفات المادية، والأوهام الوثيقة، وذلك بالحكمة والوعظة الحسنة، وكشف الغطاء أمام المسلمين بالتدريس والتعليم والتوجيه، والدعوة والتآليف، واعتمدوا على الحجج العقلية مع الأدلة النقلية، للرد على أصحاب الأهواء والضلال، وإنقاذ المسلمين من سعبر المعتزلة الذي صوبوه عليهم، وظهر في هذا الخصوص مذهب الأشعرية والماتريدية لبيان منهج الإسلام في العقيدة وأصول الدين بالأدلة العقلية والأدلة النقلية، بالإضافة إلى العلماء الذين حافظوا على منهج السلف بالاقتصار على الحجج النقلية والوقوف عند النصوص اعتقداً وسلوكاً ودعوة، ومن خلف هؤلاء وقف الفقهاء والعلماء والدعوة يحملون راية الدعوة الإسلامية، ويبلغونها للناس، وينافون عن الدين، ويردون كيد الأعداء في ن꼬رهم، مما أدى إلى الحفاظ على العقيدة والشريعة، صافة من كل شاذة، تطبقاً لقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرتين على الحق، لا يضرَّهم من خذلهنّم، حتى يأتي أمر الله، وهم».
كذلك)، وفي رواية: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس".

وصارت دراسة أصول الدين وعلم الكلام وتدريسها والتأليف فيه سبيل القويم أمام المسلمين، فانكب العلماء على دراسته وتدريسها والتصنيف فيه، وهو ما سلكه إمام الحريم الجويني رحمه الله، فأخذ أصول الدين عن أبيه وشيخه، ثم واصل البحث بنفسه، وطالع كتب الفلسفة وعلم الكلام والمنطق، وحصل على المعلومات الكثيرة، ووضمه بشكل كامل، ثم صنف عدة مصنفات في أصول الدين والعقيدة وعلم الكلام، وهذه الأسماء واحدة في الحقيقة والجوهر، وفي الهدف والغاية، ولكنها تختلف في العرض والأسلوب، كالاقترض على مجرد الأدلة النقلية من القرآن والسنة، والوقوف على أقوال السلف، أو الاعتماد على الحجج المنطقية والأدلة الفكرية والبراهين العقلية مع الأدلة النقلية، وهو ما صرح به إمام الحريمين في مقدمة كتابه "الإرشاد"، فقال: "وصدقنا المعتقدات عربية عن قواطع البرهان، ونبدأ أن نسلك مسلكاً يشمل على الأدلة القطعية، والقضايا العقلية"، ويريد بذلك البراهين القاطعة بحسب عصره، التي تعتمد على العقل والمنطق والفلسفة، وهي المطالب العقلية التي تخص أهل ذلك العصر.

وقد ساهم إمام الحريم الجويني في هذا المجال بعدها كتب ومصنفات، ويرجع السبب إلى تعدد هذه المصنفات في موضوع واحد إلى الأسباب التالية:

١- مراعة المستويات المختلفة التي ألتفت لها هذه الكتب، فكان بعضها مختصراً كالإرشاد وعلم الأدلة، والرسالة في أصول الدين والتلخيص في الأصول، وبعضها مطولًا كالشامل، بل كان بعض هذه الكتب إما

(1) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه عن ثوبان مرفوعًا.
(2) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن معاوية مرفوعًا.
(3) الإرشاد ص ١.
اختصاراً من كتب كالأرشاد فهو مختصر من الشامل، أو من كتب غيره، مثل مختصر الإرشاد للباقلاني، والتلخيص في الأصول، وبعضها كان شرحاً لكتابه المختصر، كالشامل الذي يعتقد أنه شرح كتابه "لمع الأدلة"\(^1\) .

2- عامل الزمن وتقدم السن لإمام الحرمين، فقد ألف بعض هذه الكتب في مطلع حياته، وأثناء متعكر النشاط والدعوة والتدريس والمناظرة، وكان يتبع المدرسة الأشعرية في أغلب ما كتب، وكلما نضج عقله، واتسع فكره، وتوسعت مداركه، وازدادت معارفه، كان يسبر ذلك في مصنفاته، ولعله بدأ باختصار كتاب الإرشاد للباقلاني، ثم ألف كتابه لمع الأدلة، ثم توسعت بذلك وشرحه في كتابه الكبير "الشامل" الذي يعتبر موسوعة علمية في علم الكلام وأصول الدين، وفي آخر حياته ألف كتابه "العقيدة النظامة" التي تعتبر من آخر كتبه، وتتمثل آخر الآراء التي استقر رأيه عليها، وأن آراءه في "العقيدة النظامة" تنسج ما ورد في كتابه الآخرين "الشامل" و"الإرشاد" مما صرح به فيما كراه في الصفات، أو مما فهم عنه خطأ في مسألة علم الله تعالى بالجزئيات، ثم التصريح بعلم الله تعالى في ذلك، مما ستفصل فيما بعد.

3- العمان والخصوص في أصول الدين وعلم الكلام، فقد كانت أكثر كتبه تتناول جميع مسائل أصول الدين وعلم الكلام في توحيد الله تعالى وصفاته وفي النبوة والمعجزات، وفي مقدمات علم الكلام ومصطلحاته كالعلم والنظر، وفيما يتعلق بعلم الكلام، كالحديث عن العلما والإمامة، وذلك ظاهر في كتبه "لمع الأدلة"، والإرشاد، "الشامل"، بينما تضمنت بقية كتبه جانباً من علم الكلام أو العقيدة الإسلامية مثل كتابه "مذكر العقول" الذي يبحث عن وسائل المعرفة عند الإنسان، وكتابه "أسماء الله الحسنى" الذي خصصه لبيان وتدوين وشرح اسماء الله تعالى، علماً بأنه ذكرها مختصرة في كتبه الأخرى كالشامل (ص 140) وما بعدها، وكتابه "شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل" وعنوانه يدل على مضمونه.

\(^1\) انظر: الكافية في الجدل ص 21.
ومن الجدير بالذكر أن كتب إمام الحرميين في أصول الدين وعلم الكلام قد حظيت بالقبول عليها، وقبولها لدى العلماء في دور العلم والمدارس، وتناولها الكثيرون بالعناية والرعاية، وقد تم طبع أربعة كتب منها في عصرنا الحاضر، وهي "الجهز الأول من الشامل"، والإرشاد، والعقيبة النظامية، ومعه الأدلة، وبقي سائرها لم ير النور، وأكثر هذه الكتب وصلتنا النسخ الخطية منها، بينما ضاع بعضها، أو لم يتم العثور عليه حتى الآن.

وسوف نخصص كل كتاب بمثابة مختصرة عن أحواله ومضمونه، ثم نبئين آراء إمام الحرميين باختصار في علم الكلام، ونوعيه بعض الآراء التي نسبت إليه وإناته بها، ورجوع الإمام عن علم الكلام، ثم رأينا في دراسة علم الكلام اليوم.

1 - ومع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة:

وأجر كتاب عبارة عن رسالة في العقيدة الإسلامية، أو مجرد كتاب مختصر في العقيدة التي يؤمن بها أهل السنة والجماعة من المسلمين، عرضها إمام الحرميين بيان حقيقة المذهب السني في العقيدة، مدفوعة بالأدلة الموجزة، والإبراهيم العقلية المقضبة، وقد كتب هذه الرسالة غالباً في أول حياته تلبية لدعوة أصحابه وطلابه الذين كانوا يهتديون به، واجلسون إليه، واقتصر في الرسالة على مسائل العقيدة وعلم الكلام التي رآها أجد من غيرها بالذكر، ويشتد حولها الخلاف بين المتكلمين والمعتزلة وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية.

وجاءت موضوعات الرسالة مسلسلة ومتعلقة مثل بقية كتب إمام الحرميين في علم أصول الدين، فبدأها بالكلام عن العالم وحدوده للوصول إلى وجود الله تعالى وقدهم، ثم انتقل للحديث عن الله تعالى وصفاته، وأن صانع العالم وخالقه أزلي الوجود، قديم الذات، يتصف بعدة صفات واجبة وحامة، ومن صفاته الكلام، فقال إمام الحرميين: ففصل: وكلام الله تعالى 97
مقروء بالأمسية القرآء، محفوظ بحفظ الحفظة، مكتوب بالمصاحف على الحقيقة، والقراءات أصوات القارئين ونغماتهم ..(1)، وهذه المسألة من أهم مسائل علم الكلام التي أدت إلى فتح المأمون في خلق القرآن، ثم انتقل إمام الحرمين إلى ذكر ما يستحب عن أوصاف الباري تعالى، وانتقل إلى إرادة الله وإرادة العباد، وأن الحوادث كلهها تقع مرادة لله تعالى، وأن مذهب أهل الحق أن الباري تعالى مرفق، وأن الرب سببانه متفرد بخلق المخلوقات، ثم انتقل للحديث عن الرسل والنبوات ومعجزات، وأن المعجزة تثبت صدق مذعري النبوة، وختام الرسالة بفصل عن إمامة المسلمين، وإن أمير المؤمنين بعد النبي ﷺ أبو بكر ثم عمر الفاروق ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، وأن النبي ﷺ لم ينص على إمامة أحد بعده، إذ لو نصَ على ذلك لظهر وانتشار، وقال: ففصل: الخلفاء الراشدون لما تربوا في الإمامة فالظهور ترتيبهم في الفضيلة كذلك.

وقد الكتاب نشر في القاهرة من المؤسسة المصرية العامة للتاليف في سلسلة تراثنا، بتقديم وتحقيق الدكتورة فوقية حسين محمود، مدرسة الفلسفة بكلية البنات بجامعة عين شمس، ودراسة المرجع الدكتور محمود الخضيري، عام 1385 هـ/1965 م، مع تقديم عن سيرة إمام الحرمين، ومصنفته ومكانته وتعليق على التحقيق (ص 1 - 72)، ونص الكتاب (ص 74 - 117) ثم الأصوات وأدوات المصادر والمراجع والتفسير (119 - 160)، ونشر الكتاب عن نسخة خطية بدار الكتب المصرية وأخرى عن مكتبة بيرلين.

وكتاب شروح كثيرة، منها "شرح لمع الأذلة"، في التوحيد، تأليف أبي محمد عبد الله شرف الدين بن محمد بن علي الفهري الشهر بابن التلميساني، المتوفي سنة 444 هـ، يوجد لهذا الشرح نسخة مخطوطة بميناء أحمد الثالث بتركيا رقم 9879، ولها فيلم بقلم 1245 بمعهد المخطوطات العربية، ونسخة بمكتبة الأسكندرية بأسبانيا، ورق الفيلم

(1) انظر: لمع الأذلة ص 92.
1906، وقد اعتمدت محققته الرسالة على هذا الشرح أبضاً عند التعليق والتحقيق.

2 - الإرشاد إلى قواعط الأدلة في أصول الاعتقاد:

هذا الكتاب مطبع بمطبعة السعاداء، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر سنة 1379 هـ/ 1959 م، وحققه وعلق عليه وقدّم له وفهريه الدكتور محمد يوسف موسى، الأستاذ بكلية أصول الدين، بجامعة الأزهر، والاستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد المدرس في معهد القاهرة بالقسم الثانوي بالأزهر.

ويتألف الكتاب من مقدمة التحقق 31 صفحة مرقمة بالأبجدية، يَّن فيها الدكتور محمد يوسف موسى روح العصر الذي ألف فيه الكتاب، ونبذة عن المؤلف، ورأى في دراسة علم الكلام، ودراسة عن الكتاب، الذي جاء في 458 صفحة، منها 34 صفحة للفهرس.

والقصد من الكتاب دِبَن الفقيد الدينية والاستدلال لها، ثم الدفاع عنها، ومناهضة أصحاب المقالات والمذاهب المختلفين للدين، وذلك في أسلوب قوي واضح ومركز، من غير تقعيد، فليس بالمطول الذي يدعو للمملة والسأمة، ولا بالوجيز في مبالغة، وهو إلى هذا فيه من أصالة الرأي، واستقلال الفكر ما يجعله أحقّ بأن يدرّس رسمياً في الأزهر من الكتب التي بيد الطلاب.

وكتاب "الإرشادة" تلخيص طبيب لكتاب "الشامل"، وعنوان الإرشاد مطابق لموضوعه.

١) انظر: مقدمة لمع الأدلة ص 59 وما بعدها، الجويني ص 87.

٢) كان المستشرق الفرنسي لوسياني قد نشر هذا الكتاب عام 1930 بخط مغربي، معتمداً على ثلاث نسخ من الجزائر وتونس وباريس، في 444 صفحة من القطع الكبير، مع ترجمة الفرنسية له، ثم اعتمد المحققان على هذه المطبعة، وعلى ثلاث نسخ أخرى، اثنتان في دار الكتب المصرية، والأخيرة من المكتبة الأحمدي بحلب.

٣) انظر مقدمة الإرشاد ص ص، وانظر نقد الكتاب للاستاذ محمد عبد الغني حسن في "مجلة الثقافة"، بمصر ص 28 وما بعدها، ونقد الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى في "مجلة الكتب المصرية" ص 444.
مضمون كتاب الإرشاد:

ويتضمن الكتاب مقدمة لإمام الحرمين، بيّن فيها البراعة لتأليف الكتاب، وهي الاعتراف، والاعتماد على الأدلّة العقلية، فقال: وألفينا الكتب المبسطة المحتوية على القواعد الساطعة، والبصريات الصادعة، لا تهضب لدركها همّم أهل هذا الزمان، وصادفنا المعتقدات غريبة عن قواعط البرهان، رأينا أن نسلك مسلكًا يشمل على الأدلّة العقلية، والقضايا العقلية، ثم رتب الكتاب على أبواب وفصول، تغطي موضوعات علم أصول الدين والعقيدة مع مناقشة الشبه، والرد على المعتزلة والفرق المنحرفة الأخرى، ومهدّد لذلك بعض الفصول في أحكام النظر ووجوده وحقيقة وحصل العلم به، فقال: وفالموجه أن يقال لم آراد إرشادًا: سببكن أن تتغامر في الأدلة نظراً قريباً، وتجه فيها نهجًا مستقباً، فإذا صح منك النظر، واستندت (أي استنادت) منك العبر، أفضّت بك إلى العلم؟ (1) (ص: 3 - 16).

ويبدأ إمام الحرمين كتابه في مسائل الكلام بإثبات حدوث العالم للتدريج بالقاريء إلى وجود المحدث، وهو الله تعالى، مع شرح المصطلحات الكلامية. (ص: 17 - 29)، ثم انتقل إلى الكلام عن الله تعالى وصفاته، مبتدأً بالصفات الواجبة لله تعالى كالقدم وقيامه نفسه، ومختلفة للحوادث، وما يستحل على الله تعالى، بأنه ليس جسمًا، وهنا يردّ إمام الحرمين على دعاء التجسيم والتشبيه، ثم يردّ على النصارى، ويعرض خلال ذلك لمسألة الاستواء على العرش، ويفسر بمعنى القهر والغلبة والعلو، (ص: 30 - 51).

وينقل إمام الحرمين إلى باب العلم بالوحدانية، وإثبات الصفات المعنوية الواجبة لله تعالى، وأنه: حيّ، مريد، عالم، قادر، سميع، بصير، متكامّل، ويفصل الحديث عن مسألة كلام النفس، وعن كلام الله تعالى في (1) الإرشاد ص: 5.

١٠٠
القرآن، وهي المسألة التي يقال إن هذا العلم سمى بعلم الكلام بسببها، وتعرّض للرد على الجهمية، وناقش أقوال المعتزلة، وبيّن حقيقة الكلام ومعناها، وانتقل لشرح معاني أسماء الله الحسنى، وعرض بعض الصفات التي وردت في القرآن الكريم، كالكائن، والموضوع، اللحمة، واختار قول المتاخرين أن الصحيح حملها على التأويل، بالقدرة والبصر والوجود، وناقش أقوال المخالفين، واحتج آرائهم بالنقل والعقل، ثم ذكر ما يجوز على الله تعالى، كإثبات جواز الرؤية، والقول في خلق الأعمال، وكشف آراء القدرية وردها وذم القائلين بها، وعرض أثناء ذلك لمسألة التكليف بما لا يطاق، والتحسين والتقليد، والصلاح والأصلح على الله تعالى، مبينًا إسراف المعتزلة في تمجيد العقل وتقديسه، ومحاولاتهم تطبيق النصوص لهما ياباه الشرع ومنهج السنة والسلف (ص 52 - 301).

ثم تناول بقية مسائل العقيدة والإيمان في إثبات النبوات، وتأييدها بالمعجزات، وتمييز الكرامات عن المعجزات، وتطرق للسحر، وأنه لا يظهر إلا على يد فاسق، وإثبات الحق والшибاطين، وخصص القول في إثبات نبوة سيدنا محمد عليه السلام ومعجزاته، ووجه إعجاز القرآن، ثم عاد للكلام عن أحكام الآتيه عامة، وعصمتهم، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثم قال فيه: وقد جرى رسم المتكلمين بذكر هذا الباب في الأصول، وهو بمجال الفقهاء أجد، وعرض القول في السعميات والأجلاج والرزق (ص 370 - 371).

وختم الكتاب بالحديث عن الإعادة بعد الموت، وجعل من أحكام الآخرة، وفصل في الجنة والنار، والصراط والميزان والحوض، والثواب والعقاب، والصغرى والكبيرة والشفاعة ومعنى الإيمان وزيدته ونقصانها، وباب التوبة (ص 371 - 409)، وانتهى إلى القول في الإيمان التي ذكرها أكثر العلماء في أصول الدين، مبينًا أن الكلام في هذا الباب ليس من أصول الاعتقاد، وأن الإيمان تتلم بالاختيار، ولم يرد نص في تعيينها لأحد، إلا إذا توفرت فيه الشروط والبيعة، مقررًا إثبات إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.
رضي الله عنهم، ومحمّداً من الطعن بالصحابية والافتراء عليهم. (ص ۴۱۰ - ۴۱۴).

ثم يقول: «فهذه رحمكم الله وأصلح بالكم قواطع في قواعد العقائد، يستقل بها المبتدئ، ويشوق بها المنتهي إلى جلّة المصنفات، وهو كما يقول: فالكتاب وسط ليس بالطويل المطل ولا بالقصير المخلّ، لذلك كان له تأثير عظيم في حياة المسلمين العلمية والفكرية، وتلقّاه العلماء بالدراسة والتدريس، ومنحه عناية فائقة، ورعاية لائقة في المجالات العلمية.

شرح الإرشاد:

وأما يدل على مكانة هذا الكتاب العلمية في عصر إمام الحرمين وبعده تناوله بالشرح من تلامذته وغيرهم، وما بقي موجوداً في خزانات المخطوطات حتى اليوم ما يلي:

١- شرح الإرشاد لتعليم الإمام الحرميين أبي القاسم سليمان بن ناصر الأنصاري، المتوفر سنة ۵۱۲ هـ، ويوجد منه نسخة بخزانة القرويين بفاس.

٢- نكت الإرشاد في الاعتقاد، لأبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان الأوس، المالكي، المتوفر سنة ۶۱۶ هـ المعروف بابن المرأة، ويوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية، وفيلم بجامعة الدول العربية، وقفع شرح ابن المرأة في خمسة مجلدات، أوراقها حوالي ۹۰۰ صفحة، ولا يشمل هذا الشرح كتاب «الإمامة» الذي جاء في آخر كتاب «الإرشاد».

٣- الإسعاد على الإرشاد، لأبي فارس عبد العزيز بن إبراهيم بن بهزاء، المتوفر سنة ۶۲۲ هـ، ويوجد لهذا الشرح نسختان مخطوتان بخزانة القرويين بفاس.

٤- شرح أبي بكر بن ميمون على كتاب «الإرشاد»، ويوجد لهذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة أحمد الثالث بتركيا، ثم صُورتها جامعتها الدول العربية بفیلم.

۱۰۷
5" المقترح، شرح لكتاب الإرشاد، لعنبر المظفر بن علي، الشافعي، ويوجد منه نسخة مخطوطة بالجزائر.

3 - الشامل في أصول الدين:

وهذا أكبر كتب إمام الحريم في أصول الدين وعلم الكلام والعقيدة، وقد وصفه حاجي خليفة بأنه يتكون من "خمس مجلدات" (1)، ووصفه المعاصرون بأنه "بعد بحق دائرة معرف كبير، طرق فيها الجويني شتى فروع العلم والمعرفة" (2) في أصول الدين وعلم الكلام.

ويتجه الظن إلى أن إمام الحريم الجويني عمَّل كتابه "الشامل" شرحًا لكتابه "لمع الأدلاء" (3). فعرض نفسه الموضوعات بتوع وإفادة وتفصيل وأدلة ومناقشة مستفيضة لمسائل علم الكلام، واستعراض الآراء، والرد على المخالفين، ومع هذا التوسع فإن إمام الحريم أكسب القلم عن تسجيل جميع الآراء في المسألة الواحدة التي لا يرى فائدة منها، وقد يذكر تقديساً للكلام إلى أكثر من وجه، ثم كتب الوجه الأول، ويسكت عن بقية الوجه، ويقصد من ذلك التبيين والإشارة إلى تعدد الأقوال، في المسألة، ثم يقتصر على ذكر الوجه الراجح أو الصحيح، أو الوجه الأهم، مع أدلة وتعليمه (4).

وقد لقي هذا الكتاب قبولًا عظيماً من العلماء، وأقبل عليه الأشعراء وغيرهم، وأصبح معتمداً في الرجوع إليه، ونقل ابن السبكي أن الإمام فخر الدين الرازي كان يحفظ "الشامل" عن ظهر غيب (5)، كما تناوله ابن الأمير بالاختصار في القرن الثامن الهجري.

(1) انظر: كشف الظليل 5/1، الكافية في الجدل ص 19، الإرشاد، مقدمة التحقيق، صفحة في الجويني ص 80.
(2) انظر: كشف الظليل 2/504.
(3) انظر: مقدمة الشامل ص 79.
(4) انظر: مقدمة الكافية في الجدل ص 21.
(5) انظر: مقدمة الشامل ص 86.
(6) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 8/81، 82.
وهذا الكتاب العظيم لم يظهر للنور حتى اليوم بشكل كامل، ويظهر أن أكثره قد ضاع مع ما فقد من تراث الإسلام والمسلمين، أو أنه لا يزال في مكتبات مجهولة لم يعرف حتى الآن، إلى أن بادر المستشرق الألماني هلموت كلوبرن فنشر جزء منه عن نسخة ناقصة في مكتبة كوبنهاجن بإسبننبرو، وقال إنه اكتشفه بعدما ظل مجهولاً مدة قرون طويلة، وطبع هذا الجزء طبعة غير دقيقة سنة 1281 هـ/ 1961 م، نشر دار العرب بالقاهرة.

ثم قام ليفين من أساتذة الفلسفة بمصر بتحقيق الجزء الأول من الشامل عن نسخة إسبنبرو ونسخة دار الكتب المصرية، وهم الدكتور علي سامي النشار أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، والاستاذ فيصل بدير عيسى المعبد بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة، والسيد سهير محمد مختار المعبد بكلية البنات الإسلامية بالقاهرة، ونشرت الكتاب منشأة المعارف بالإسكندرية عام 1389 هـ / 1969 م.

وقدّم المحققون لكتاب الشامل مقدمة مطولّة، تقع في 96 صفحة، استهلّها بالحديث عن المدرسة الأشعريّة، والمذهب الأشعري في العقيدة، وقالوا: إن ظهور الأشعريّة أعظم حادثة فكرية في تاريخ الفكر الإسلامي، ثم عرضوا البواكير الأولى للحركة العقلية الإسلامية، من خلال عرض المذاهب الكلامية، ودمجوا في المقدمة بين تاريخ الإسلام السياسي وبين نشوء المذاهب والفرق والأئمة، وذكروا ظهور الأئمة، وخاصة أئمة المذاهب الفقها الأربعة: أبي حنيفة ومالك بن الع纹ي والشافعي وأحمد، ويبني آراء هؤلاء الأئمة في مسائل التوحيد وعلم الكلام، وموقفهم من النزاعات التي أثيرت في زمانهم، ثم قدموا نبذة مختصرة عن حياة إمام الحرمين، وكتابه الشامل، وعن نسخ المخطوطات التي اعتمدوا عليها.

ويحتوي كتاب الشامل على الموضوعات التالية، وقد سمي إمام الحريمين كل موضوع كتاباً وهي: "كتاب النظر، كتاب التوحيد، كتاب العلل،...".

---

(1) انظر: مقدمة الشامل ص 139.
(2) الشامل ص 5.

104
كتاب الصفات، كتاب الإرادة، كتاب القدر، كتاب النبوة، كتاب إيطال
القول بالتولد، كتاب الرد على الطبيعيين، كتاب التعديل والتجزئة(1).
ويقتصر الجزء الأول من الشامل الذي حقق ونشر على الكتب الثلاثة
الأولى فقط، وهي كتاب النظر، كتاب التوحيد، وكتاب العلل، مع نقص
ورقات من الكتاب الأول.

يبحث إمام الحرمين في كتاب النظر عن النظر الصحيح والنظر الفاسد،
ويحدد المعاني الدقيقة للمصطلحات الفلسفية التي يستخدمها، ويبع
تعريفات محددة لللفظات التي يدور البحث حولها كالشيء والعالم والحدود
والجوهر، ويدخل في مناقشة مع المعتزلة، ويتطرق بعد ذلك إلى العلم مبينًا
العلم الضروري، والعلم المكتسب ليكون ذلك مدخلاً لمعرفة الله تعالى،
ويستمر إلى معالجة بعض الموضوعات الفلسفية المحسنة مثل: هل المعدوم
شيء أم لا؟ وهل المعدوم معلوم؟ وما هي أقسام الموجودات؟ وما هي حقيقة
الجوهر؟ ويختم الجويني الكتاب الأول من الشامل بالردد على شبه أهل الزيغ
والانحراف.

وفي كتاب التوحيد بدأ الكلام عن الواحد وحقيقة ومعانيه ليصل إلى
فكرة التوحيد في الألوهية، ووضعًا التوحيد الحق، ومميزًا له عمًا سواء، مع
التعريف للتصنيم الذي يتفاني مع العقيدة والحقيقة، وردًا على معتقد
الخصوص، وشرح آراء النظام وغيره من المعتزلة وقدم حجهم، كما ذكر آراء
الكرامية وغيرهم من الفرق المنحرفة، وكشف مزاعمهم وردًا أباطيلهم، ثم
عرض آراء النصارى في فهم الألوهية، وذكر آراء فرقهم المختلفة من
البيرونية والعقوقية والملكانية وغيرهم في الاتحاد، واللاهوت والناسوت
والآفاقين وصلب السيد المسيح، وناقشهم في كل ذلك، مبينًا الحق
والصواب، متمددًا على نصوص كثيرة من كتابهم "الإنجيل" وأنهم قد فهموا
بعض كلماته خطاً، وعُقب على كل ذلك بباب يتضمن صفات الله تعالى.

(1) انظر: مقدمة الشامل ص 87.
وفي الكتاب الثالث والأخير «كتاب العلل» تحدث عن العلة ومعناها وحقيقته، وتسع في شرح أحكام العلل وشرائطها، وفرق بين العلة والسبب، وبين ارتباط العلة بالعمل، ليرتب على ذلك النتائج والأحكام والقواعد في علم التوحيد وأصول الفقه (1).

ويظهر أن موضوعات كتاب الشامل تتفق مع موضوعات وسائل كتاب «الإرشاد» مع التوسع الكبير، والأدلة والمناقشات، ويظهر ذلك بشكل جلي في الكتب الثلاثة السابقة التي تم العثور عليها، وتم تكييفها ونشرها وطبعها، ونرجو الله تعالى أن يتوفر الكتاب كاملاً لينشر ويستفاد منه.

مختصر الشامل:

وللشامل مختصر كبير ومفيد، بعنوان «الكامل في اختصار الشامل» لابن الأُمير، أو ابن أمير الحج، المتميّز في القرن الثامن الهجري، ويعتبر المختصر في 272 صفحة، ويوجد منه نسخة مخطوطة بكتبة أحمد الثالث بتربيا برمم 1322، وهي بخط المؤلف، ويوجد لهذا المخطوطة نسخة مصورة منه بمعهد إحياء المخطوطات القديمة بجامعة الدول العربية برقم 188، وقد وعد محقق كتاب الشامل في المقدمة أن يقوموا بتحقيق ونشر هذا المختصر لإحياء هذا التراث العظيم (2).

وقال ابن الأُمير في مقدمته: "وكنت قد وقفت على الكتاب المسمى بالشامل في أصول الدين، من مصنفات الإمام العالم، جامع أشناط الفضائل، المبرز على الأوّلات والأوائل، الجويني، المشهور بإمام الحرمين، عفا الله عنه، فوجدته كثير الفوائد، مفرداً في فه، قد جمع معظم القواعد، وحَرَّر فيه المناهج، ودَفَق النظر، وذكر الحق المحض... فاختصرت الكتاب في هذه العجالة، وذكرت فيه أدلة وقواعده وشواهد...، وسميته الكامل في اختصار الشامل (3).

(1) المراجع السابق ص 80 وما بعدها، الجويني ص 81.
(2) انظر: الشامل ص 77، الجويني ص 88، الكافية في الجدل ص 20.
(3) انظر: الشامل ص 88.

106
كما يوجد في مكتبة الأزهر: "مختصر الكامل في مسائل الشامل" تحت رقم 19 توجيد، وله اختصار للمختصر السابق "الكامل".(1)

4 - العقيدة النظامية:

وهذا الكتاب جزء من مصنف كبير لأمام الحرمين الجريني، اسمه "الرسالة النظامية في الأركان الإسلامية" ويعرف أيضاً بالنظامي، ويحتوي على العقيدة وأحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج، وقد أفرد النسخ قسم العقيدة عن باقي الأقسام، وسمّى "العقيدة النظامية"؛ لأن باقي الكتاب فيه أحكام الفقه على المذهب الشافعي بالخصوص، أما قسم العقيدة فعام لجميع المسلمين، وهذا ما صرح به الفقيه أبو بكر بن العربي في النسخة المخطوطة التي رواها عن الغزالي عن المؤلف نفسه، وتم نشر الكتاب عليها مع نسخة أخرى.

وكتاب العقيدة النظامية مطبوع ثلاث مرات، الأولى صاحبها وعلّق عليها صاحب الفضيلة العلامة الأستاذ الشيخ محمد زاهد الكورثي، ونشرها صاحب مطبعة الأنوار بمصر سنة 1367 هـ/ 1948 م، ثم قام المستشرق الألماني كلوير بنشر هذا الكتاب بمطبع شركة الإعلانات بمصر، مع ترجمة ألمانية له، وأخيراً صدرت الطبعة الثالثة بتحقيق الدكتور أحمد السقا، بمكتبة الكليات الأزهرية بمصر سنة 1399 هـ/ 1979 م، ومجموع الكتاب في طبعته الأولى مع مقدمته وفهرسه ومواضيعاته يقع في إحدى وسبعين صفحة.

بيت الشيخ الكورثي رحمه الله في المقدمة فضل علم أصول الدين وعلم الكلام وشرفه وجدواه لأن معلموه يتعلق بالإيمان والفقه، وصون عقائد المسلمين من الشكوك، مبناً منهج السلف فيه "الاقتصاد في المقول، والاقتصاد على ما في الكتاب والسنة من الأدلة جرياً مع حاجة الزمن"، ولما استفحل شرّ الفتن، واتسعت الفتوحات وكثر الاتصال بأرباب الأديان والنحل وصنوف أهل الأهواء والململ، أوجب ذلك الراية على أهوائهم "بطرق

(1) انظر: المراجع السابقة.
عقلية يعترفون بها، ويخلعون لأحكامها، وهو ما فعله الخلف في هذا العلم، وليس ذلك تطوراً في عقيدة الإسلام أصلاً في صميمها، لكنه تطور في طريق الدفاع عنها، ثم بَنْن الكورتي مكانة إمام الحرمين في هذا المضمور، وأن له القصد المعلي فيه، وأن مؤلفاته همزة وصل بين منهجي السلف والخلف(1).

ويمتاز هذا الكتاب أيضاً بأنه آخر كتب إمام الحرمين في العقيدة وأصول الدين وعلم الكلام، ويتضح في هذا الكتاب خلاصة آراء إمام الحرمين، وما استقر عليه، وأنه ذكر كثيراً من الآراء المختلفة لما ذكره في الشامل، والإرشاد، مما يدل على رجوع إلى ما جاء في العقيدة النظامية.

وهذا الكتاب مختصر وجريف في بيان عقيدة الإسلام والمسلمين، باسلوب فريد، مع جودة في البيان، واحترامه على أشياء لم يدُنها إمام الحرمين في موضع آخر، وصرّح في مقدمته فقال: وقد صدرت بها بقواعد عن العقائد على أساليب لم أسبق إليها، ثم أتبعتها بما لا يفوق الذيل عنه من أركان الإسلام، وسميّتها "النظامية في الأركان الإسلامية")، ويبين أهمية موضوعاته، يقول: "وانه الآن أبدى سرًا من أسرار التوحيد لو قويل بكل ما يدخل في مقدور البشر ميسورًا لما كان له كفاءة"، ويقول: "وهذا الفصل في إثبات حدث العالم أنجز وأرفع من طرق حوتة مجداد، وهو خير لفاهمه من الدنيا بحذافيرها، لو سأولته الشوقين")، ويقول: "مع أيثار الاختصار والاقتصاد على فيه مقتين وبلاغ يشفي الغليل، ووضوح السبيل، إن شاء الله")، ويقول أيضاً: "وها أنا أذكر نكتة يسعد مَن يعبها، ويفوز الفوز الٍكبر من يدرِهها... فما سعادة من أنعم فكره في هذا قليلاً، ولم يتجاوزه

(1) العقيدة النظامية ص 3، وانظر: كشف الطون / 597/1، الجرموني ص 86، الكافية في الجدل ص 22، روضات الجنان ص 473.
(2) العقيدة النظامية ص 8.
(3) صفحة 44.
(4) صفحة 14 - 13.
(5) العقيدة النظامية ص 13.
حتى تنضج الفكرة، وتنفده يد السبره (1).

ويقول الجويني نفسه عن هذا الكتاب في كتابه الآخر «غياث الأمم»:

«ومن رام اقتصاداً، وحاول ترقياً عن التقليد، واستبداداً، فعله بما يتعلق بعلم التوحيد من الكتاب المترجم بالنظرية، فهو محتوى على لباب الآلاب، وفيه سر كل كتاب في أساليب العقل» (2).

وجاء عنوان الكتاب بالنظامية، تسنية باسم الوزير نظام الملك، تقديرًا له، واعترافًا بفضله على المسلمين، وتحليلاً لذكره على الأعمال المجيدة التي قام بها من فتح المدارس النظامية في كل مدينة، وتعيين كبار العلماء والفقهاء للتدريس فيها، ورعاية هذه المدارس في الوعي الإسلامي الصحيح، وتدريس فقه الأئمة الأربعة، وعقيدة أهل السنة والجماعة، وما عرف عن نظام الملك من الاستقامة والتقوى والورع وحسن الطبيعة، ولذلك وضح إمام الحرمين كتبه باسمه، وهذا من عادات القوم، بتسمية الكتاب باسم الخليفة أو السلطان أو الأمير أو الوالي أو الحاكم؛ وقد أطرى إمام الحرمين في مقدمة كتب نظام الملك بالثناء والمحذة، وذكر الاصلاحات التي قام بها، والإنجازات التي حققتها، والآثار التي تمت على يده.

ويحتوي كتاب العقيدة النظامية على تمهيد من نقطتين: القول فيما تجب معرفته في قاعدة الدين، وباب في حدث العالم، ثم بين إمام الحرمين خطة الكتاب بعنوان: «فصل في ترتيب تراجم العقائد، وحصره في ثلاثة أبواب، باب في العلم بأحكام الله، فأثبت العلم بالصانع، ثم تكلم عنما يستحيل على الله تعالى، وفيما يجب له من الصفات، وفيما يجوز في أحكام الله تعالى، والباب الثاني في مناط التكليف من صفات العباد، والباب الثالث في النبوات التي بها تصل الأوامر التكليفية بالعباد، وبها ترتبط الأمور السمعية والغيبات في الحشر والنذر، والوعيد والوعيد المشعرين بالثوراب والععقاب، وغير ذلك مما أُتي به المرسلون، وأخبر به الصادقون، ثم قال:

(1) المرجع السابق ص 29.
(2) غياث الأمم ص 140.
وتنجيذ قواعد الدين مجاز هذه الأبراب، ثم الإمامة ليست من العقائد، ولو غفل عنها أمره لم تضره، ولكن جرى الرسم باختتام علم التوحيد بها، ونحن نذكر طرفاً منها؛(1)، ويظهر أنه عدل عن هذا الوعيد، وخصوص هذا الموضوع بكتاب مستقل، كما سنرى، وقال في آخر كتاب "العقيدة": "ودقة كنت وعدت أن أذكر فصولًا في الإمامة، ثم بدا لي أن أجري للمجلس السامي كتاباً في الإمامة، فقد تأهته فيها الفرق، ولم يخل فريق من تعدّى الحد والسدر والإفراط والتفريق.(2)

5 - الكتب الأخرى في أصول الدين:
إن الكتب الأربعة السابقة لإمام الحرميين الجويني في العقيدة وأصول الدين قد تمّ طبعتها وظهرت للنشر، وإن الحرميين الجويني كتب أخرى في هذا الخصوص، لا يزال بعضها مخططاً في دور الكتب، وبعضها لم نعلم بوجوده حتى الآن، وهذه نبذة عن كلّ منها مع أماكن وجود النسخ والمخطوطات الموجودة منها(3).

1 - كتاب أسماه الله الحسينى:
وهو كتاب يدل اسمه وعنوانه على مضمونه، ويتناول أسماء الله الحسنى، التي نثبت بالنصر سماعًا، مع بيان معنى كل اسم، وهذا الكتاب يغطي أحد موضوعات العقيدة وأصول الدين، ولكنه ينحصر في الجانب التقليدي والسماعي، ولا مجال فيه للعقل والاجتهاد.
ويوجد نسخة من هذا الكتاب بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم

(1) المعقدة النظيفة ص 13.
(2) المرجع السابق ص 68.
(3) المراجع: الكافية في الجدل ص 63، الجويني ص 65 وما بعدها، كشف الطنون 1، ب 87/1، 2009/4، وفيات الأعيان 2/3427.
ويظن أن هذا الكتاب ليس لإمام الحريمين الجويني، وإنما هو لوالده
أبي محمد الجويني، وهذا لا يستبعد، ولكن لا مانع أيضًا من كونه لإمام
الحريمين بعد تعديله أو تنفيذه، لأن إمام الحريمين جاء على جميع كتب والده،
وأعاد النظر فيها.

۲ "مسائل الإمام عبد الحق السفلي وأجيوبتها للإمام أبي المعالي:
وتضمن هذه المسائل أجوبة الإمام الحريمين عن حدوث العالم، وذهول
بعض العوام عن وجه الدلالة على صدق الأنباء، والمثليين، والأعراض،
والمنجنيين والمعجزات، ومعنى تمثيل جبريل، وقدرة الله تعالى على كل
شيء."

ويوجد لهذه المسائل مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ١١ فقه
ماك، واهتم بدراسة الأستاذ الإيطالي الدكتور أمبرتو ريزينتانيو الأستاذ
بجامعة روما بإيطاليا وعين شمس بمصر سنة ١٩٥٣ م.

۳ "شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل:
ويتضمن هذا الكتاب على إثبات النصوص في التوراة والإنجيل، وهي
تشتمل على البشارة بالرسول محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وما وقع في هذه
النصوص، وفي غيابها من نصوص التوراة والإنجيل، من التحريف والتتبديل، وهو ما ذكره القرآن الكريم بنص قطعي.

ويوجد لهذا الكتاب نسختان مخطوطة بمكتبة آيا صوفيا، برقم
٢٤٤٦ ، و يوجد له نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول
العربية برقم ١٥٩ فيلم.

١١١
4. مختصر الإرشاد للباقلاني:

ويوجد منه نسخة مخطوطة بجامعة الدول العربية برقمه 211 علم الكلام، ويشك في نسبة هذا الكتاب لإمام الحرميين، ويوجد لهذا الكتاب نسخة بالميكروفيلم بجامعة الدول العربية.(1)

5. التلخيص في الأصول:

ولعله هو الكتاب السابق بعنوان "التلخيص" وقد ورد مثل هذه الأسماء لإمام الحرميين والباقلاني في علم أصول الفقه، وقد ذكر إمام الحرميين كتاب "التلخيص" في كتابه "الشامل في أصول الدين"، ولعله كتاب في أصول الفقه، وهو كتاب "المجهدين".

6. رسالة في أصول الدين:

ويوجد منها نسخة مخطوطة في باريس برقمه 272 ضمن مجموعة رسائل، كما يوجد نسخة مخطوطة بعنوان "رسالة في التوحيد" بدار الكتب المصرية برقمه 940 لإمام الحرميين.

7. مدارك العقول:

ويعد كتاب في أصول الدين، ولم يتمه إمام الحرميين كما قاله حاجي خليفة في "كشف الظلوم"، وابن خلكان في "وفيات الأعيان"، ويظهر أنه شرع فيه في نهاية حياته، ومن آخر كتبه، كما أشار إليه بنفسه.(2)

8. الكرامات:

ويعد كتاب ذكره إمام الحرميين في كتابه "العقيدة النظامية" ص 82، فقال في "فصل في الكرامات": «وقد كثر خبط الناس في إثباتها ونفيها، وقد ألغيت في إثباتها والرد على منكرها كتابًا، وإذا الآن أذكر لبابه في أسطره.

(1) انظر: الكافية في الجدل ص 16
(2) انظر: غيات الأمم ص 279. 112
رسالة في إثبات الاستواء والقوى، وتنزه الباري جلّ وعلا عن الحصر والتمثيل والكيفية:

نسخة مخطوطة بالموصل رقم 351):

آراء إمام الحرميين في علم الكلام:

إن الأسلوب الفلسفي والعقلي الذي شاع وانتشار في علم الكلام وأصول الدين في العصر العباسي وما بعده ليس مقصوداً لذاته، وإنما كان وسيلة لنشر العقيدة الإسلامية وتثبيت الإيمان في النفوس، ورد الفنوس، ورد الشبه والأضلال، والمقارنة مع المذاهب الفلسفية والحضارات اليونانية والفارسية والهندية، فاستخدم علماء المسلمين هذا الأسلوب سلاحًا للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وهذا واجب العلماء في كل زمان ومكان في دراسة العقيدة والشريعة، والتخصص فيها، والتربة إلى الآراء الدخيلة على الدين، وإتقان الوسائل والعلوم الشائعة بين الناس في كل عصر، ليرتدواخلق إلى الحق، وي请点击 إلى الاصطراق القوي، ويبينوا لهم الصواب والرشاد، ويدحضوا الباطل وأهله، ويبدعوا إلى مرضاة الله تعالى، والالتزام بشريعته، وهو واجب العلماء اليوم بمعرفة العلوم العصرية، والأخلاق الحالية، والثقافات المتعددة، ليسخرواها في أساليب الدعوة الإسلامية، وقناة الجمعيات بالجسور المبين، والحق المستحسن في أمور دينهم ودنياه، وكشف مكامن الأعداء الفكرى، والعقوف في وجه الغزو الفكرى الدائم.

وكان إمام الحرميين من أعلام القرن الخامس الهجري الذي حمل على عاتقه واجب الأمانة والتبلغ، والدعوة والإرشاد، وكرس حياته في دراسة العلوم الشرعية، والمعارف السائدة في زمانه، وبالغ في دراسة علم الكلام، وصنف الكتب الكثيرة فيه، وخاض المناظرات الدائمة في حياته، وكان

(1) انظر: مخطوطات الموصل، للدكتور داوود الجليلي الموصلي ص 246، الرقم المتشتت.

113
يرى: «لقد قرأت خمسين ألفاً في خمسين ألفاً، ثم خليت أهل الإسلام بإسلامهم فيها، وعلمهم الظاهرة، وركبت البحر الخضم، وخشيت في الذي نهي أهل الإسلام عنها، ك ذلك في طلب الحق، وكنت أهرب في سالف الدهر من التقليد، والآن رجعت عن الكل إلى كلمة الحق، علّكم بدين العجاز»(1).

وكان الأشاعرة يحملون لواء الدفاع عن الإسلام وعقائد المسلمين في ذلك العصر، ويمثلون مذهب أهل السنة والجماعة، وتوسطوا في الأسواق والوسائط بين تطرف المعتزلة، وبين أهل الظاهر، وكان العلماء الذين أثروا السلامة في الصراع الفكري، والتزموا جادة النصوص والأدلة النقلية، ورفضوا الخوض في الجدل والمناظرة، بينما حمل الأشاعرة واجب الدعوة، وتصدّوا لشطب المعتزلة، ووقفوا في وجه الفلاسفة الفارغة، والانحرافات المتعمدة، والشبه المتشرئة، وانخرط إمام الحرومين في مدرسة الأشاعرة، وصار في كتبه تدريسه على طريق الأشاعرة في علم الكلام، وتخريج من هذه المدرسة عن طريق شيخه أبي القاسم الأصفهاني، تلميذ أبي إسحاق الأصفهاني، المتخرج عن أبي الحسن الباهلي، تلميذ إمام أهل السنة أبي الحسن الأشعري، وصار إمام الحرومين من أنصار مذهب الأشاعري، الذي عمل على دراسته وتدريسه ونشره والدعوة إليه، حتى صار إمام الحرومين شيخ الأشاعرة، وإمام المتكلمين في عصره، وأصبح علم الكلام عند الجويني بحراً لا ساحل له، وبلغ المرتبة العليا، والمكانة السامية فيه دراسة وبحثاً ومناظرة وتأليفًا وتدريساً، ثم انتقل هذا العلم عن طريقه إلى تلميذه التابع المشهور وهو الغزالي الذي حمل مشعل الدعوة والتاليف بعده، مما يحقق لنا أن تقول: إن أبا الحسن الأشعري والباقلاني والإسحافي والجويني والغزالي يمثلون في الحقيقة فلسفة الإسلام، وبعدّون في الواقع فلسفنة المسلمين، لأنهم عرضوا الإسلام الصحيح والعقيدة القوية بأسلوب فلسفي، ويضاف

---
(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 185/5
إليهم من فلاسفة المسلمين أبو الحسن الماتريدي وبعض علماء المعتزلة، خلافاً لما يشاع اليوم عن أسماء فلاسفة المسلمين الذين بحثوا في الفلسفة القديمة، وعرضوها بالأسلوب الجديد، كابن سينا وابن رشد والفارابي وإخوان الصفا وغيرهم.

ولم يكن إمام الحرميين مجرد ناقل لآراء المذهب الأشعري، بل يتمتع بشخصية مستقلة، واجتهادات كبيرة، وكان يحلل الآراء، ويتقنها، ليقبل ما يراه حقاً، ويرفض ما يراه باطلًا، مما يعتبر تجديداً في المذهب، لا تقليداً فيه، وقد أحكم طريقه الجدل الهاذف، معتقداً على استخدام العقل في فهم النصوص القرآنية، فأخذ يستنبط من هذه النصوص - بعد تحليلها وفهمها - المقدمات مرتين واحدة تلو الأخرى (1)، واعتبرت كتبه بداية عصر جديد في علم الكلام من ناحية الأسلوب والعرض والتحليل والاستنباط، والجمع بين المنقول والمعقول، والاعتماد على النصوص النفلية والحجج العقلية، مما أوصله إلى آراء مستقلة، واجتهادات فريدة، وأقوال منبتكة، وهو ما دعا لمخالفة بعض الآراء والأقوال في مذهب الأشاعرة، وبيان ضعفها، وتقديم البديل الصحيح لها، ومحاولة تأويلها بما يتفق مع منهجه في الدراسة والاستدلال، وهذا ما دعا بعض العلماء إلى وصف إمام الحرميين بأنه لم يكن أشعرياً، لأنه يقول: فعل العبد بقدرة العبد مستقلة، ولا كسب، فلهذا كانت نسبة إليهم دعوى، وله كلام في إيثاث القدرة، وتضعيف قول الأشعري (2).

والواقع أن إمام الحرميين من أئمة الأشعري، مع الشخصية المستقلة، والتجديد في الأسلوب والعرض، والاجتهاد في الأراء والأقوال، مما أوصله

(1) الشامل ص 79، وانظر: الجويني ص 126، الإرشاد ص 93، الشامل ص 79.
(2) تراجع الرجال، الجنداري ص 19، ومن أراد التوضيح في ذلك فليرجع إلى كتاب الجويني للدكتورة فوية، التي عرضت أقوال الإمام الكلامية بإسهاب وتفصيل ودراسة متعلقة باختصاصها، ص 143 وما بعدها.
إلى مخالفتهم في بعض الأحيان، دون أن يخرج عنهم.

وكانت شخصية إمام الحرمين الفذة الوعائية المتحررة الناقفة المجتهدة سمة له في حيائه العلمي، وفي تأليفه وبحثه، وفي تدريسه وتعليمه، وله آراء خاصة، واجتهادات مستقلة في الفقه وأصول الفقه خالف فيها الإمام الشافعي أحياناً، وأبا الحسن الأشعري، أحياناً أخرى، والقاضي أبا بكر الباقلاوي في أحياناً كثيرة.(1)

وهذه الشخصية الفريدة لإمام الحرمين أدت إلى إقبال العلماء على كتبه وآثاره وتأليفه، وتمحص آرائه وأقواله واجتهاداته، سواء من قبل الموافقين له والمخالفين على حد سواء، وتمتع بعض العلماء آراء إمام الحرمين، وأحصوا عليه بعض الأخطاء أو الآراء الشاذة التي خالف فيها النصوص الشرعية، أو خالف فيها المذهب الأشعري، أو خرج فيها عن إجماع المسلمين، وحرص آخرون على النقاط الأخطاء، أو تصيي العيوب، مما حملهم على تأويل بعض نصوصه، أو فهمها فهماً معيتاً، ومن أشهر المسائل التي أثيرت على الإمام الحرمين، وأنه خالف فيها إجماع المسلمين، والنصوص الصريحة، المسألة المعروفة بمسألة الاسترصال، وتعني عدم علم الله في الجريان والتفاصيل، وأن علمه ينحصر في الكليات والعموميات، والإجمال، وقد وردت هذه المسألة في كتاب «البرهان في أصول الفقه»(2)، وتهك بها شارح البرهان المازري المالكي، وشُنّ على إمام الحرمين، ثم شاع هذا الاتهام عليه، لكن أكثر العلماء رددوا على هذه الاتهامات، وخاصة مسألة الاسترصال، وأفردها ابن السبكي بالمناقشة، وكشف أن المازري وغيره لم يفهموا كلام

(1) انظر فهرس هذه المسائل الأصولية في كتاب «البرهان في أصول الفقه»، الجزء الثاني ص 1443 وما بعدها، طبقات الشافعية الكبرى 291/2، 310، 324، 336، 343/3، 387/7، 98/1. وسرب دليلها في آثار إمام الحرمين الفقهية والأصولية، ومن آرائه مع بعض العلماء أنكرنا أن في الذنب صغيرة، وقالوا: بل سائر المعاصي كبائر، انظر: الإرشاد ص 391، والزواجه عن افتراف الكبائر 5/1.
(2) البحرين 145/1 وما بعدها، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى 188/5، 190.
إمام الحرميين في «البرهان» وأنهم حملوه على غير حقيقته، وأن الباطن لهؤلاء الشرّاح على التحالل على إمام الحرميين ينحصر في جهتين:

الأولى: أنهم يستصعبون مخالفته الإمام أبي الحسن الأشعري، وبرونها هجنة عظيمة، والإمام لا يتفق لا بالأشعري ولا بالشافعي، لاسيما في «البرهان» وإنما يتكلم على حسب تأديته نظره واجتهاده، وربما خالف الأشعري، وأيَ بعبارة عالية على عادة فصاحته فلا تحمل...

الثانية: أنه ربما نال من الإمام مالك رضي الله عنه.»)

ويلخص ابن السبكي وغيره الجواب أن إمام الحرميين بحث هذا الموضوع بوضوح نام في كتبه في علم الكلام وأصول الدين، كالشامل والإرشاد والعقيدة النظامية وأن رأيه صريح أن علم الله تعالى يحيط بالجزئيات، وهذا أمر مفروغ منه، وأصل مقرر في العقيدة، ويكفر من يخالفه، وقال في «الشامل»: إن الرّب سبحانه تعالى عالم بالعلوم على تفاصيلها، متعلم عن العلم بها على الجملة، إذ العلم بالجملة يقارن الجهل بالتفاصيل، ويقول: "الدلالاة دلّت على وجوب كون القديم عالماً بجميع المعلومات»(2).

ومن الآراء التي أثيرت على إمام الحرميين قوله في صفات الله تعالى التي وردت في القرآن، كاليد والعين والاستواء، وقوله فيها بالتأويل، ثم رجوعه عن رأيه في آخر كتبه إلى قول السلف بالتفويض، وهو ما صرح به نفسه فقال:

"قد اختلط مسائل العلماء في الظواهر التي وردت في الكتاب والسنة، وامتنع على أهل الحق فحواها وإجراها على موجب ما تبرزه أمهام أرباب اللسان منها، فرأى بعضهم تأويلها والنزام هذا المنهج في آي الكتب.

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 5/192، 188.
(2) انظر: الشامل ص 147.

وأنا على طبقات الشافعية الكبرى 5/193 وما بعدها، البرهان 147/1.

117
وفيما صبح من سن النبي، وذهبت أئمة السلف إلى الانكفاء عن التأويل وإجراة الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الرب سبحانه.

والذي ترفضه رأياً، وتدين الله به عقداً، اتباع سلف الأمة، فالأولى الابتداع وترك الابتداع، والدليل السمعي القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة، وقد درج صحب النبي على ترك التعرض لمعانيها، ودرك ما فيها، وهم صفوة الإسلام، والمستقلون بأعباء الشريعة.

ومما ينقله كثير من العلماء أن الجويني رجع عن رأيه في علم الكلام، وأنه ندم على اشتغاله به، وأنه قال عند نائر أسانه في مرض موه: هذه اشتغال بالكلام، فأحذروه، وأنه قال: "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو علمت أن الكلام يبلغ إلى ما بلغ ما اشتكلت به" وأنه قال: "والآن فقد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق: عليكم بدين العجز، فإن لم يدركي الحق بلطف بر، ولا فالويل لابن الجويني، يريد نفسه.".

ويحاول بعض العلماء استغلال هذه الأقوال للهجوم على علم الكلام، والتحذير من تعلمه ودراسته، وتحريم الأطلاع عليه، واعتباره من العلوم الضارة الدخيلة على المسلمين، وهذا مبالغة في القول، والمسألة محتملة.

و قال ابن السبكي: "يشبه أن تكون هذه الحكايّة مكذوبة.".

أوfern فإن كان لنا من قول في كتب إمام الحرمين الكلامية وعلم الكلام، فإننا نقتصر على إبداء ملاحظتين:

الأولى: أن علم الكلام عامة، وكتب إمام الحرمين خاصة، نصرا لنا الحركة العلمية والفكرية التي كانت سائدة في ذلك العصر، وتشرح لنا

(1) العقيدة النظامية ص 32، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى 1915 وما بعدها.
(2) انظر: المنظم لابن الجوزي 19/9 وما بعدها، النجوم الزاهرة 121/0، طبقات الشافعية الكبرى 185/2، شرح الكوكب المنير 49/9.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 182/0.

118
المعركة المحتدمة بين أهل السنة والجماعة ودعوة الإسلام وأئمة الدين من جهة، وبين المعتزلة وبقية المذاهب الكلاسيكية والتعاليم الفلسفية الهامة من جهة أخرى، وأن كتب علم الكلام من الأشعرية والماتريدي وغيرهم دُونًا لنا حجج الدفاع عن العقيدة والدين، بالاعتماد على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وأقوال السلف، والأدلة العقلية والأساليب الفلسفية والطرق المنطقية لمقاومة الخصوم بنفس الأسلحة التي يحاربون بها الإسلام والمسلمين.

وإن الآراء التي تتبعها العلماء على إمام الحرميين قليلة ومحصورة، وإن سلمنا جدلاً بخبيتها فإن إمام الحرميين لم يكن معصهما، ولم يدع العصمة لنفسه، ولا أذاعها له أحد، ولكن يقال فيها: كفى المرء فخراً أن تعد معايبه.

الثانية: أن علم الكلام كان مجرد سلاح ووسيلة في أيدي العلماء والدعوة في ذلك العصر، وقد أحسنوا استخدامه، وحققوا النصر وظهر به على أعداء الدين، وهو علم مشحون بالأدلة والوسائل والأساليب التي يمكن الاطلاع عليها في عصرنا الحاضر، مع الاستفادة منها، بشرط عدم الوقوف عندها(1)، ووجب تجاوزها إلى الأسلحة العصرية، والوسائل المتقدمة، للفيام بنفس الواجب، وتحمل العبء والمسؤولية، والثبات على المبدأ، وأداء أمانة الدعوة، وبث الرسالة، ففي مجال العقيدة والإيمان مثلًا يمكن، بل يجب، استخدام العلم الحديث، والمنشأات والاختلافات، للاستدلال على صحة العقائد أمام أعدائها، وثبتت الإيمان بين المسلمين، وفي مجال الشرعية والفقه والأحكام يمكن، بل يجب، دراسة الأنظمة المعاصرة، والقوانين السائدة في العالم، بل المفروضة على أفئذ المسلمين، والمطابقة في بلادهم، شاءوا أم أبوا، طوعاً أو كرهاً، للوصول إلى مقارنتها - ولو بالنزول -

(1) لا يصح الوقوف عند علم الكلام لاعتماده على مصطلحات كثيرة، وقواعد محددة، ومناهج
فلسفية، واساليب منطقية كانت منسججة مع ذلك العصر، وأصبحت الآن بعيدة عن عالم الفكر والعلم والحياة، كالجغرافيا والعرض والجبر وغيره، وهذا ما حملنا على عدم التوسّع بهذه الأمور، أو ضرب الأمثلة أو بالاستدلال بنماذج منها.
مع الشريعة الفرع والاختلافات الدينية، لبيان النفوذ الشامي للشريعة، والنجاح المحقق لأحكامها، والميزات والخصائص التي تمتاز بها على بقاء الشرائع والقوانين الوضعية، لدعوة الناس إلى تطبيق شريعة الله والرجوع إليها، والالتزام فيها، والمحبة عليها بالنواجذ.

إن تراجع إمام الحرمين وغيره عن علم الكلام في ذلك العصر لا يعني فساد هذا العلم، وضيجه، وإنما ينذرنا أمراً واقعاً ومحتماً، وهو أن مجرد وسيلة وسلاح لا يعتمد عليه إلا أثناء المعركة الفكرية، والمجادلة والمناظرة، والمحادثة والصدام، وكل من تقدم في السن، وبلغ العجز، فلا بد أن ينصح من المعركة، ويستثمر في السلاح من يد، ويتخلى عن السهام والأسلحة، ويرجع إلى الهدف المقصود، ويقف عند الغابة وهي العقيدة الدينية الصافية التي تقوم على السماحة والبساطة والوضوح واليقين مما لا يحتاج إلى أدلة وحجج، أو استدلال ومنطق، أو فلسفة وبيان، هذه العقيدة الجليلة التي يدركها الأمر، ويستثمر بها الكبير والصغير، ويقف عندها كل من اختلى إلى نفسه، وفكر في ذاته، واستأثر بكتابه وآبائه، ومنه نبی الله تعالى، وهي العقيدة التي سماها إمام الحرمين وغيره «دين العجائز»، وهي عقيدة تحمل النور في طياتها، وتهدي العاقل إلى صفاتها، وترشد الفاسد إلى معينها، وتجذب الأمم والشعوب لاعتناقها، وقطع الطريق بذاتها إلى سلم السائر من غوايات الإنس والجنس، وتجذب الوعي، من شياكة الشياطين ودداء الضلال والانحراف، قال تعالى: {إن هذا صراط مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبَعوا السهل فتفرقو بكم} عن سبيله، ذلك وصاكم به لعلكم تتقون} (الأنعام/153).
الفصل الرابع
إمام الحرميين والفقه

علم الفقه:

لأن وصل إمام الحرميين إلى القمة في أصول الدين وعلم الكلام والتوحيد والعقيدة، وتبأ الذروة في التصنيف والتأليف والمناظرة والتدريس، فإنه قد ارتفع إلى شاهق عالٍ في الفقه، واشتهر في جميع الآفاق به، ودعا صيته في كل صقع وبلد، ولازم دراسة الفقه وتدريسه، والتاليف فيه وتصنيف أحكامه، وجمع فروعه طوال حياته، فقد نشأ وترعرع في بيت أبي الشيخ أبي محمد الجوقسي الذي كان يمسك دمأم الفقه، ويتولى تدريسه وتعليمه، ويدل الجهد والمساعي للتاليف فيه، فرضع إمام الحرميين الفقه وعشقه على يدي الوالد، وبعد وفاته فقد مكانه في التدريس، وتولى منصب الإفتاء، وجاء على كتب والده كلها، الفقهية وغيرها، فقلبها ظهراً لبطن.

ولم يكن إمام الحرميين مجرد حافظ للفروع والأحكام، وناقل لآراء والده وغيره، وإنما كان متفتح الذهن، متوقد الذكاء، وصل إلى مرتبة الاجتهاد، وكان يمارس دراسة الفقه بالتحقيق والتدقيق، ويقلب الآراء التي تتفق مع الأدلة، وتترجح على غيرها، فيفرها وياخذ بها، ويرفض الأقوالضعيفة التي تتعارض مع الأدلة التقليدية والعقلية، وكان يرفضها وبردّ عليها، ولو كانت لوالده، أو شيوخه، أو حتى ولو نقلت عن إمام المذهب محمد بن إدريس الشافعي، فالحق أحق أن يقع، وكان يقيس الرجال والشيوخ بمدى موافقتهم للحق والدليل، ولا يقيس الحق والأقوال بالرجال.

121
وكان إمام الحرميين متفقًا على المذهب الشافعي، ودرس بقية المذاهب، ورجع إلى الأدلة وظهر تبجح في الفقه عامة، وبرز ذلك في كتبه بالفقه المقارن بين المذاهب من جهة، وفي كتب الخلاف وتلخيص المذهب الشافعي من جهة أخرى، كما سنرى بعد قليل، كما ظهر ذلك بشكل بارز ولافتًا للنظر في التدريس والمناظرات التي كان يعقدها مع العلماء والفقهاء من أتباع المذهب الشافعي ومن أتباع بقية المذاهب، وكان ذلك سببًا في انتشار علمه، وشيوع احترامه، وشهرة أقواله وآرائه، وفصده للأخذ عنه.

كما أن إمام الحرميين قد تولى التدريس في نظامية نيسابور في الفقه وغيره مدة ثلاثين سنة دون متنازع، مما أتاح له فرصة الاستقرار والثبات والديمومة على البحث والتدريس والتلخيص، ويعتبر أنه قال يومًا للغزالي، وكان تلميذًا له: يا فيقي، فرأى في وجهه التغير، كان يستقل هذه اللفظة على نفسه، فقال له: فتح هذا البيت، ففتح مكانه وجده مملوءًا بالكتب، فقال له: ما قبل لي، يا فيقي، حتى أثبت على هذا الكتيب كله؟، وقد ذكرنا سابقاً كلمة الشيخ أبي الحسن المجاشعي النحوي، أستاذ إمام الحرميين في النحو، ومنها قوله: وما رأيت عاشقاً للعلم أي نوع كان مثل هذا الإمام، فإنه يطلب العلم للعلم؟(1).

ويمتاز علم الفقه على غيره أنه أكثر التصاحاً بالحياة، وبالناس، فهو معرفة الحلال والحرام، ومعرفة الأحكام الشرعية العملية من أدلةها التفصيلية، وكانت الأمة ملزمة بشريعة الإسلام، وكان العلماء الموئل الصافي، والتبع الدائم، والمرجع الأصيل في بيان ذلك، وعليهم تلبية الفتاوى والاستفسارات والأسئلة، فإن لم يجدوها في النصوص، ولم تنقل إليهم في الكتب، وجب عليهم الاجتهاد لمعرفة حكم الله تعالى فيها، وإرشاد الناس إليها، وكان العلماء حتى القرن الخامس والسادس يقومون بهذا الواجب خير قيام، وبوابون سير الحياة، وتطور الأمور، وحوادث الزمان، ولم يتخليوا

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 1/185.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 1/179 - 180.
عن واجبهم، ولم يقصروا في أداء وظيفتهم، وكانوا رواد الأمة، وطلائع الركب الزاهف، وشعلة النهضة، ومشاعل النور والحضار، وجميع يلتثون حولهم، وينهلون من معينهم، ويستفيدون من علمهم، ويأخذون أقوالهم، ويتلمزون بتوجيهاتهم، ويسبرون خلفهم في جميع المجالات.

وكان إمام الحرمين أحد هؤلاء المشاعر والأئمة، وبلغ في العلم، والبصيرة في الفقه، والتفييذ والتفديق في المذهب الشافعي، أن حمل لقب الإمام، فإذا أطلق لفظ الإمام في كتب الشافعية فإنه يعنون، ولكنه يقصدون، كما سبق في ترجمته.

كما أن الإمام الحرمين استغل رحلته خارج نيسابور إلى بغداد والحجاز، وإقامته في الحرمين، وخاصة في مكة، إلى جمع طرقي المذهب الشافعي، واستقصاء الأقوال فيه، ثم استقر إسقهره الطويل في نيسابور إلى تدوين هذا المذهب، وتسنيق أحكامه وفسوقيه في كتب الفقهية.

وخلف لنا إمام الحرمين عدة كتب في الفقه، بعضها في فقه المذهب الشافعي، وهي التي نبحث فيها الآن، وبعضها في الفقه المقارن مع بقية المذاهب، وبعضها في الفقه العام كما سنرى فيما بعد.

وكتب الإمام الحرمين في فقه المذهب الشافعي متفاوتة تفاوتاً كبيراً في الحجم والأهمية، وله كتبه بالندّر من الصغير إلى الكبير، أو كتبها على مستويات مختلفة لتفوق مع الغرض المقصود منها في رعاية مستوى الطلاب، بينما كتب بعضها جواباً لسؤال، أو بنسيلة المناصرة كما سنبينه.

وتأت كتب إمام الحرمين مشهورة، ولاكت قبولًا عظيمًا، وشيوخًا زائداً، وأكب الناس عليها، واعتمد فقهاء الشافعية على دراستها وتدريسيها، واختصارها وشرحها، واتقتل إلينا في بطون الكتب، وثناء البحث، وكلها لم تز النور حتى الآن، ولم تظهر للوجود بشكل مستقل، ولم تطبع منها إلا مناظرًا، وإن نحن نقدم بذرة مختصرة عن كل كتاب بقرة، ثم نفرد أراء إمام الحرمين وشخصيته الفقهية بقرة مستقلة.

١٢٣
كتب إمام الحرميين في الفقه:

تُعرض كتاب إمام الحرميين في الفقه مع الوصف لكل كتاب، ويبدع
أجزائه ونسخته المخطوطة، وما طبع منها (1).

1 - رسالة في الفقه:

وهي رسالة صغيرة وقصيرة في الفقه، وتضم بعض الأقوال والآراء
إمام الحرميين في المسائل الفقهية، ويجري منها نسخة بالموضوع، مدرسة
الحجاب، برقم 38، الرسالة السابعة.

2 - السلسلة في معرفة القولين والوجهين على مذهب الشافعي:

وعناوين هذا الكتاب يدل عليه، وهو جمع الأقوال والوجه في مذهب
الإمام الشافعي في الأحكام الشرعية، سواء كانت هذه الأقوال والوجه لإمام
المذهب رحمه الله، أم كانت تلاميذه وأصحابه الذين جاءوا بعده، وقاموا
بالاجتهاد والاستنباط، والتخريج والترجيح، والتحقيق والتدقيق، في الأحكام
الفقهية بناءً على الأصول والمذاهب التي وضعها الإمام الشافعي في أصول
الفقه.

وهذا الكتاب ليس بالقصير، ولا هو محمد الجويني، ولا هو إمام الحرميين
كتاب يعنوان "السلسلة"، وهو غير الكتاب الذي تحدث عنه نفيس إمام
الحرميين.

ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكنسة أحمد الثالث بتركيا،
برقم 1206، وفيلم مصور بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، برقم
184 فقه شافعي.

(1) انظر الكاتبة في الجدل على 13 وما بعدها، الجويني ص 90 وما بعدها، طبقة الشافعية
الكبرى ص 209 وما بعدها، طبقة الشافعية، الأثري ص 401/1، فهرس مخطوطات
الظاهرة، الفقه الشافعي ص 203، فهرس المخطوطات المصورة، فؤاد سيد 309/1 وما
بعدها، فهرست الكتب العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية 3/246، البداية
وتهافتية 128/12، وفيات الأعيان 2/192، المختصر 2/196، المنظم 9/19، شاهدات
الذهب 3/128.
3 - مناظرة في الاجتهاد في القبلة:

هذه المناظرة ذكرها ابن السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" عند ترجمة إمام الحرمين الجوزني، وتقع في خمس صفحات، وكتبها إمام الحرمين جواباً على سؤال الشيخ أبي إسحاق الشيرازي "عَمَّن اجتهد في القبلة وصلى، ثم تيقن الخطأ، فاستدل فيها إمام الحرمين بأنه تعين له يقين الخطأ في شرط من شروط الصلاة، فلزمه الإعادة، كما لو تيقن الخطأ في الوقت، وذكر إمام الحرمين اعتراض الشيرازي على قياس القبلة على الوقت، وشروط قياس الفرع على الأصلي، وجواب إمام الحرمين على هذا الاعتراض معتمداً على تقرير المبادئ الأصولية، والمتها الفقهية، والأدلة الشرعية، وكان الشيرازي من أئمة الشافعية في القرن الخامس، وكان المدرس في نظامية بغداد، وله مكانة اجتماعية وعلمية مرفوعة، وإذا أطلق "الشيخ" في الفقه الشافعي فالمؤيد به أبو إسحاق الشيرازي، والمناظرة تسم بالطابع العلمي، والنظرية الموضوعية، والأسلوب الهادئ، والجدل القوي، والضوابط الفقهية والأصولية.

4 - مناظرة في زواج البكر:

وهذه المناظرة ذكرها أيضاً ابن السبكي بعد المناظرة السابقة، ويعترض فيها إمام الحرمين على قول أبي إسحاق الشيرازي في إجبار البكر البالغة على الزواج من قبل ولاتها، ويرد الجوزني على هذا الرأي، ويقرر عدم إجبار البكر البالغة على الزواج بغير إذنها، مستدلاً على ذلك بالأدلة النقلية في الحديث الشريف، والأدلة العقلية، وتقع في أربع صفحات.

5 - نهاية المطلب في دراية المذهب:

وهذا أهم كتاب إمام الحرمين الفقهية، وأبرز مصنفاته على الإطلاق، وأوعس كتابه، وأكبر مؤلفاته، وأشهرها، ويتالف من عدة أجزاء، ولا يزال مخطوطة حتى الآن، وتصل بعض نسخه المخطوطة إلى ستة وعشرين مجلداً.
ويوجد من هذا الكتاب الضخم نسخ مخطوطة كثيرة في دار الكتب المصرية، وفي مكتبات الإسكندرية، وآيا صوفيا، والmostatية بدمشق، والأحمدية بحلب، وأحمد الثالث تركيا، كما يوجد منه نسخ مصورة، وأفلام في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، ومكتبة سوهاج بمصر.

يتضمن كتاب " نهاية المطلب " جميع الأبواب الفقهية بدءاً من الظهارة والصلاة والصلاة وبقية العبادات، ثم البيع والشراء وبقية المعاملات المالية، ثم النكاح والطلاق والوراث وبقية الأحوال الشخصية، ثم الجنايات والسر والجهاد مما يشمل جميع الأحكام الشرعية في جميع مجالات الحياة الخاصة والعامة، المالية والسياسة الشرعية والمعاملات الدولية وأحكام الفتوحات الإسلامية، على منهج الفقهاء بعرض الحكم مع دلائله، ثم المقارنة مع سائر الآراء في المذهب، والمقارنة مع أقوال المذاهب الأخرى، والاستدلال لهم، ثم مناقشة أدلتهم وأقوالهم بأسلوب جدي، معمداً على مبادئ علم الأصول، لتخريج الفروع الفقهية على الأصول، وربطها بها.

فإن الجزء الثالث مثلًا من مخطوطة الظاهرة بدمشق يبدأ بكتاب البيع، ويبدأ الجزء الرابع بالصلح، والجزء الثاني عشر أوله الشفاعة، والجزء السابع عشر في الجراح والجنايات، والجزء السادس والعشرون يتحدث عن الخوارج وأحكام البغاة، وسوف نعود للتحدث عن " نهاية المطلب " فيما بعد.

مختصرات نهاية المطلب:

ويعتبر كتاب " نهاية المطلب " قمة كتب المذهب الشافعي، وهو كتاب مطول، لا يصل إلى مستوى إلا الخواص والمختصّون، ولا يصير على مطالعته وقراءته ودراسةه إلا من أوفي الصبر الجميل، ووهبة الله الوقت والجلد، وكان محتجاً إلى التبحر في الفقه، ولذلك اتجه إمام الحرمين نفسه إلى اختصاره، ثم تولّاه كثير من العلماء فيما بعد بالاختصار، فمن ذلك:

1°- مختصر نهاية المطلب لإمام الحرمين، وسوف نتحدث عنه في الفقرة التالية.

126
2 - صفة المذهب من نهاية المطلوب، للقاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصوان الموصلي، الدمشقي، المتوفى سنة 585 هـ.

ويظهر أن هذا الكتاب كبير، والاختصار فيه قليل، ويوجد منه بعض الأجزاء في مكتبة أحمد الثالث برقمد 888، والجزء الثاني يتبدى بكتاب الصيام، ويتئلي بباب الرهن، ويتبديا الجزء الخامس بباب الطلاق بالحساب والاستثناء، ويتئلي بآخر كتاب الحضانة.

3 - الغاية في اختصار النهاية، تأليف الإمام أبي محمد سلطان العلماء، الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن بن محمد السليماني، المتوفى سنة 680 هـ.

ويكون هذا المختصر من خمسة مجلدات، ويوجد منه نسخة مخطوطة ومكتبية قبل وفاة العزيز بن عبد السلام، سنة 542، لكن يتقصها الجزء الثالث، ومحفوظة في دار الكتب المصرية، كما يوجد نسخة مخطوطة من الجزء الأول بمكتبة أحمد الثالث.

4 - الهادي إلى اختصار نهاية المطلوب، لمحمد بن عبد الرحمن بن الأوزي أو الكندى المصري، الذي كان في القرن السابع الهجري، وكان يفتني مع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واختصر "نهاية المطلوب" في مصنف سمّاه "الهادي".

ويضاف إلى ذلك أن عثمان بن محمد بن أبي أحمد المصلي، المتوفى في حدود سنة 550 هـ قد شرح "مختصر الشيخ أبي محمد الجويني" والد الإمام الحرميين، لكنه كان ينقل في هذا الشرح كثيراً عن إمام الحرميين.

(1) انظر: فهرس المخطوطات المصرية، فؤاد سيد/1، 309/1، الكافيا في الجدل ص 13.
(2) انظر: فهرس الكتب العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية 3/3، فهرس المخطوطات المصرية، فؤاد سيد/1، طبقات الشافعية الكبرى 288/8، وقرون الجويني ص 90.
(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/8/73.
(4) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 7/209/2، 210، كشف الطون 299/2/33.
وان كان لنا من كلمة عن كتاب "نهاية المطلب" فلا بد من التبليغ إلى أن هذا الكتاب يعتبر إحدى الحلقات الأساسية في سلسلة الفقه الشافعي، وانتقل هذا الفقه من الإمام الشافعي إلى العصور المتاخرة، لأن الإمام الشافعي رحمه الله كتب "الأم" وفاء الحرمين وشرح "مختصر المذهب" في كتابه "مختصر المذهب" وفاء إمام الحرمين وشرح "مختصر المذهب" في كتابه "نهاية المطلب" وفاء تلميذه حجة الإسلام الغزالي "مختصر النهاية" إلى كتابه "البسيط" ثم اختصر البسيط في "الوسيط" ثم اختصر الوسيط في "الوجيز" ثم اختصر الوجيز في "الخلاصة" وفاء الرافعي، وهو محقق المذهب، فاختصر من الوجيز كتابه "المحرر" ثم اختصر الإمام النووي، وهو المحقّق الثاني للمذهب، كتاب المحرر في كتابه "المنهاج" وهو الكتاب المعتمد عند الشافعية، كما أن الرافعي شرح الوجيز للغزالي، في كتابه "فتح العزيز" وفاء النووي أيضاً واختصر فتح العزيز إلى "الروضة" في الثاني عشر جزء، وهو الكتاب المعتمد أيضاً في المذهب (1).

2 - مختصر النهاية:

وهو الكتاب الذي اختصره إمام الحرمين نفسه كتابه "نهاية المطلب في دراية المذهب"، وقال هو نفسه في هذا المختصر: "إنه يقع في الحجم من "نهاية المطلب" أقل من النصف، وفي المعني أكثر من الضعف" ثم يقول ابن السيك بن هذا المختصر: "وهو عرفي الوقوع، من محاسن كتبه"، لكن ابن خلقتان يقول: "إنه لم يتمه" (2).

(1) انظر: الفوائد المكية، للسيد علي بن أحمد السقاف ص 35 وما بعدها، المذهب عند الشافعية، مقال للدكتور محمد إبراهيم أحمد علي، مجلة جامعة الملك عبد العزيز، العدد الثاني ص 25.

(2) يوجد في المكتبة الظهرانية بدمشق مخطوطة باسم "مختصر نهاية المطلب" في علم المذهب، لم يظهر المؤلف، يقع في 238 ورقة ببداية بالوصية، ورقمها 2227، انظر: طبقات الشافعية الكبرى 5/172، وفيات الأعيان 342/7، ووافات الجنات ص 463، طبقات الشافعية للأسودي 1/412، فهرس مخطوطات الظهرانية، تلفظ الشافعيص 260، ولعله جزء من الغلاة في اختصار النهاية، لعز الدين بن عبد السلام، السابق.
آراء إمام الحرمين في الفقه:
كان إمام الحرمين مبرزاً في الجانب الفقهي من الناحيتين الشكلية والموضوعية.

فمن الناحية الشكلية فقد صرف جلُّ همه إلى جمع طرق المذهب، وحصر أقوال علماء الشافعية، وانصرف إلى العناية بكتابه "نهاية المطلب" انصرافاً كلياً أثناء رحلته إلى الحجاز، وبعد استقراره في نيسابور، إلى أن اكمله، واحتفل بإتمامه، وتابع تدريسه على الخواص من تلاميذه، حتى أطلق العلماء على هذا الكتاب اسم "المذهب الكبير، أو المذهب".

يقول ابن السبكي: "وصار أكثر عنايته مصروفاً إلى تصنيف المذهب الكبير، المسمى بنهاية المطلب في دراية المذهب، حتى حرّه وأملاه، وألّف فيه من البحث والتقرير، والسبك والتنقيح، والتدقيق والتحقيق بما شفّى الغليل، وأوضح السبيل، وبه على قدره ومحلّه في علم الشريعة، ودرّس ذلك للخواص من التلاميذه".

وكان إمام الحرمين فخوراً بهذا الكتاب، وأحس بالسعادة المطلقة عند إنهائه وإتمامه، ولما قرّر من إتمامه عقد مجلساً لتنمية الكتاب، حضرهائماء العلماء، وكان إمام الحرمين من الشاكرين لله تعالى على إتمامه، المعترفين بفضل الله عليه، وكان من السعداء على منّة الله عليه، وقدمّه أمام العلماء، فأتوا عليه النداء العاطر، ودعوا له بالخير.

قال ابن السبكي: "فما صنف في الإسلام قبله مثله، ولا أتفق لأحد ما اتفق له، ومن قاس طريقة بطريقة المتقدمين في الأصول والفروع، وأنصف

(1) نقل ابن السبكي في ترجمة عبد الجبار بن محمد الخواري، المتوفى سنة 536 هـ. أنه نقله على إمام الحرمين، وعلّق المذهب عليه، رروع فيه، وكان في الجليل، نسج بخطه والمذهب الكبير للجنبين أكثر من عشرين مرة، وكان يكتب وبعده، ثم قال ابن السبكي: "قلت: المذهب الكبير هو النهاية، ونظر أدب الفضائل لابن أبي الدام ص 74، 73، 73/8، 73/8.

(2) طبقات الشافعية الكبرى 144/7، 73/8، 177/5.
أقر بعلو منصبه، ووفور تعبه ونصبه في الدين، وكثرة سهره في استنباط
الغواضب، وتحقيق المسائل، وترتيب الدلائل)1).

أما من الناحية الموضوعية فقد كان إمام الحرمين بصيراً بما ينقل،
خبيراً بما يكتب، مجتهداً فيما لم يجد فيه نصاً، مرجحاً بين الأقوال، فاحصاً
للأدلة، مناقشاً لأوجه الاستدلال، مدقياً في الآراء، محققاً في الأقوال،
غواصةً على الدقائق، مرتبًةً للحجج والبراهين، مستفيداً من معارفه في البحث
والرد والمناظرة والخلاف، معتمداً على الأسلوب الأدبي الرفيع، والعبارات
الفصيحة العالية.

وكان آراء إمام الحرمين واجتهاداته في معظمها متفقة مع أصول الإمام
الشافعي ومع فروعه واجتهاداته، ولذلك اعتمد العلماء والفقهاء والمؤلفون
على كتاب إمام الحرمين «نهيأة المطلب»، واتخذه الغزالي أساساً للكتب
الفقهية الأربعة التي كانت حقلة في سلسلة المذهب الشافعي، كما أكثر
العلماء والمصنفون من النقل عن كتاب إمام الحرمين.

وفي ذلك الوقت فقد كانت لإمام الحرمين شخصية مستقلة،
واجتهادات خاصة، وقد يخالف فيها الشافعي، وهو إمام المذهب، أو يخالف
فيها من سببه من العلماء، وكان جريئاً في الحق، وصرّح بما يصل إليه
اجتهاده، ويبنِه على الخطأ في أقوال غيره، وكان يقول فيما تعقب به والده
«هذه زلة الشيخ رحمه الله».

ونقل لنا ابن السبكي عند ترجمة إمام الحرمين مجموعة من الفوائد
والمسائل والغرائب عن إمام الحرمين رحمه الله تعالى، منها في «دبة الجنين،
وحكم الطلاق في الحيض، وغصب العبد المريض وقتله، وإذاعة الزوج
للخلع، وإذاعة المرأة المهر في النكاح وغير ذلك(2)»، كما ذكر ابن السبكي
مسائل كثيرة، وأراء خاصة لإمام الحرمين عند ترجمة طبقات الشافعية،

(1) طبقات الشافعية الكبرى 5/178، وانظر: ملأة الجنان 3/127، تبيين كذب المغتري
ص 282.

(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 5/218.

130
بعضها في أصول الفقه، وبعضها في المسائل الفقهية والفروع المذهبية (1).

الإمام الحرمين والفقه السياسي:

لم يقتصر تفوقي إمام الحرمين الجويني وشتهاره وبلوغه القمة في الفقه على جمع طرق المذهب وأقوال الشافعي وأصحابه والمقارنة مع بقية الأئمة والعلماء في أبواب الفقه، وتأليفه كتاب "نهبة المطلب"، بل تجاوز إمام الحرمين ذلك، وبرز العلماء، وتفوّض على غيره من الفقهاء بإبداعه العظيم في الفقه السياسي، وتعتبر ذلك دراسة الأحكام الشرعية المتعلقة بنظام الحكم، وأجهزة الدولة، وما يتعلق بالخلافة أو الإمامة أو الولاية العظمى، وبقية الولايات، مما يسمى اليوم بالقانون الدستوري والقانون الإداري، وعرفت هذه البحوث والأحكام عند علماء المسلمين بأهم حكم فيها، وهي الخلافة أو الإمامة، لأنها مركز الدارئة في نظام الحكم في الإسلام، ويمثل الخليفة أو الإمامة مركز الثقل الأساسي فيه.

وقد حدّد فقهاء الإسلام الهدف الرئيسي لنظام الحكم، وحددوا مقصد الخلافة باختصار ودقة وشمول، وهو : "صلاح الدين وصلاح الدنيا"، وأن الخلافة هي نظام الحكم الإسلامي الذين بين شكل الحكومة الإسلامية، ورئاسة الدولة، وأن الخلافة تحتتم لواء الدعوة الإسلامية، وتقوم على تطبيق الشريعة الإسلامية، وتهدف إلى إصلاح الفرد والمجتمع، وتسعى إلى تحقيق السعادة في العائلة والآجال، وتنصار الصلاحيات الكاملة بجانب جميع المناقش، وodore جميع المفاوضات، تحت الميزة الربانية، الموضحة في القرآن الكريم والسنة الشريفة وإجماع المسلمين وما يصل إليه أولو الأمر من السياسة الشرعية المنوطة بمصلحة الروع.

وتتعلق نظرية الإسلام السياسية من مبدأ ثابت ومقرر، وهو أن الإسلام

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 2/ 291، 210، 263، 237، 173، 260، 278، 267، 119، 37، 142.
عقيدة وشريعة، وإيمان ونظام، ودين ودولة، وأنه جاء لتنظيم شؤون الدنيا والآخرين، فينظم علاقة الإنسان برمه، وعلاقة الإنسان بأخاه الإنسان، وعلاقة الإنسان بنفسه، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم، وذلك في مظفومة محكمة، وارتباط وثيق بين جميع الأحكام، فلا وجود للعقيدة بدون شريعة، ولا قيام للشريعة بدون العقيدة.

يقول المرحوم الشيخ محمود شلتوت: «العقيدة في الوضع الإسلامي هي الأصل الذي تبنى عليه الشريعة، والشريعة أثر تستبعده العقيدة، ومن ثم فلا وجود للشريعة في الإسلام إلا بوجود العقيدة، كما لا ازدهار للشريعة إلا في ظل العقيدة ...، وإذا فالإسلام يحتوي تعاليم الشريعة والعقيدة، بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى، على أن تكون العقيدة أصلاً يدفع إلى الشريعة، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة، وقد كان هذا التعاليم طريق النجاة والفوز بما أعده الله لعباده المؤمنين، وعليه فمن آمن بالعقيدة وألف الكرة، أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة لا يكون مسلماً عند الله، ولا ساكناً في حكم الإسلام طريق النجاة» (1).

وبناءً عليه فإن تنظيم العلاقة بين الراعي والرعية، وقيام الدولة، وبيان أحكامها ومبادئها التي تسعى اليوم سياسة، وفقها سياسياً، ونظاماً سياسياً، وفكرًا سياسياً ... إلخ، هي جزء من الإسلام، لأن السياسة من الدين، والدين يشمل السياسة، ولا انفصام بينهما، وهذا ما تناوله علماء المسلمين من مفسرين ومحقدين، وآثمة وفقهاء، وفلاسفة ومتكلمين، ومؤرخين وباحثين ومفكرين.

النظرات السياسية في الخلافة:

إن المبادئ السابقة التي ألمحنا إليها باختصار متفق عليها بين جميع الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية والأئمة المجتهدين، ولم يختلف فيها، أو يخرج عنها إلا شاذ عن الأمة، أو منحرف في الفكر، أو ضال خرج من

(1) الإسلام عقيدة وشريعة، له ص ٦، ٧.
المعلّة، ولكن حصل اختلاف بين المسلمين في الوسائل المقررة لتحقيق الأهداف السابقة، وفي الشروط المطلوبة في العناصر والأشخاص الذين يقومون على تنفيذها، ويرجع السبب الرئيسي لهذا الاختلاف أن النصوص الشرعية في القرآن والسنة التي تتناول الفكر السياسي، وقررت أسم الدولة الإسلامية، كانت قليلة ومحدودة، واقتصرت على تقرير المبادئ العامة الصالحة لكل زمان ومكان، ولكن شعب وقوم، لكل أرض وآمة، لتكون شريعة خالدة للناس جميعاً، وتبقي متجولة بالمرموقة التشريعة، وترك تحابط التفاصل والجزئيات، والوسائل التي تحقق الأهداف والغايات، تركتها للإجتهاد لمراعة الاختلاف في الزمان والمكان والظروف والأحوال، ولرفع الضيق والحرص عن الأمة عند اختلاف الحاجات، وتغيير المصالح، وهذا من أعظم ميزات الشريعة الإسلامية، ومن أجل خصائصها، وأبرز الأدلة والبراهين على خلود الإسلام، وعظمة الفقه فيه، وتتوفر الحيوية في مبادئه، واستمرار الحياة في تطبيقه(1).

وبدأ الخلاف السياسي بين المسلمين في العصر الراشدي، وكان قليلاً ومحدوداً، ثم اشتد أواره، وظهر على الأفق، وانتقل إلى الصراع الفكري في العهد الأموي، وتوسع الخلاف، وتنازع المسلمون على السلطة، واتسعت الشقّة بين العلماء والفقهاء، وامتدت إلى العوام وكافة الأفراد، وظهرت الفرق والمذاهب السياسية، وصار لكل فرقة مبادئ محددة، وقواعد مقررة، وأحكام خاصة، وشعارات تنادي بها، ورجال يحملون لواءها، ومجالس للدعوة أو المناقحة عنها، أو المناقية والجدال حولها، وانقسم المسلمون إلى ثلاث طوائف رئيسية، وبرز لكل طائفة نظرية كاملة عن الخلافة، وهذه الطوائف هي:

1 - الشيعة: الذين يرون أن الخلافة محصورة نصاً في علي رضي الله عنه، وفي أهل بيته حصراً من بعده، ووضع الشيعة صفات للأئمة، أهمها (1) انظر: الرسالة الخالدة، للمرحوم عبد الرحمن عزاز ص ص 211 وما بعدها.
العاصمة، وصنفوا الصحابة، ووصلوا إلى الولاء المفرط لبعضهم، والإعراض والطعن والتفرط في حق آخرين، وطالب الشيعة بحق أهل البيت بالخلافة، وعيّنوا الأئمة منهم، نظراً في بعض الأحيان، وعملياً في أحيان أخرى، ثم انقسم الشيعة إلى عدة فرق ومذاهب وطوائف، أهمها الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، والجماعية، نسبة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين، ويعرفون أيضاً بالإمامية، والإثنا عشرية، والكيسانية نسبة إلى كيسان مولى علي بن أبي طالب الذي قام بالدعوة لمحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بمحمد بن الحفية.

2- الخوارج: الذين يتجهون إلى الشورى المطلقة في اختيار الخليفة، وأنه يتم بالانتخاب الحرّ من المسلمين، ولم يشترطوا في الخليفة كونه قريشاً، وكانوا مع علي رضي الله عنه، ثم خرجوا عليه بعد التحكيم، وقاتلوه، ثم تأمروا على اغتياله وقتلته، كما خرجوا على الأميين، وناصرهم العداء، وأشتروا عليهم السيف في معارك كثيرة وحاسمة، وكان الخوارج أشداء وأقوياء مع التصبي الشديد، والالتزام بالمبادئ، والتحجّر من المعتاص والذوبر، وتكفير الناس، واستباحة أموال المسلمين المخالفين لهم، وسعوا لإقامة الأئمة والولاة والحكام على مذهبهم وأرائهم، وانقسموا عدة فئات، كالصفرية والنجدات الإبراضية.

3- الجمهور المعتدلون: وهم أكثر المسلمين الذين التزموا النصوص الشرعية وإجماع الصحابة في الحكم، وأن الخلافة ليست وصية لأحد، وأن الخليفة ينتخب عن أفكار قريش، وكان الجمهور وسطاً معتدلاً، وصاروا يعرفون بأهل السنة والجماعة، وقالوا: إن الصحابة عدول، واستباحة أموال المسلمين المخالفين لهم، وسعوا لإقامة الأئمة والولاة والحكام على مذهبهم وأرائهم، وانقسموا عدة فئات، كالصفرية والنجدات الإبراضية.
 تقريباً عام الجماعة، ثم أعرض كثير منهم عن الأمويين لأسباب أخرى كما سنرى.)

الجفوة بين العلماء والحكام:

كان للتفاجعة الكبرى في مقتل عثمان رضي الله عنه، وما تناج عنها من خلاف حاد بين علي وmma وغريب رضي الله عنهما، أثر كبير على العلماء والفقهاء، وأدى مبدأ اقتسمهم بين مؤيد ومعارض لكل منهما، واعترف فريق الخلاف والخوض في الفتنة بأسلحتهم أو أسلحتهم، وانتهى الأمر إلى ظهور الخلافة الأموية، وتوحيد السلطة العليا من جديد.

ولكن سيرة الأمويين لم تكن على منهج الخلفاء الراشدين في عدة جوانب، منها انصرف خلفاء بني أمية إلى سياسة الدنيا أكثر من سياسة الدين، وابتعدهم عن سيرة السلف الصالح، وحرصهم على ولاية العهد، وحص والخلافة فيما، وانتقالا بالوراثة مما يخالف النصوص الشرعية وما كان عليه الأمر في العهد الراشدي، وحصص جفوة بين العلماء والحكام، وأعرض كثير من العلماء والفقهاء عن الأمويين وشؤون الحكم والخلافة، وقام فريق كبير من علماء أهل السنة والجماعة بالتصدي للحكام والخلفاء، ونقدوا تصرفاتهم، ورفضوا أحيانًا المبايعة، ونتج عن هذه الحالة أربعة أمور أساسية:

1- ذهب الحكام إلى ملاحقة العلماء ونتباه مع أقوالهم وفتاويهم واجتهاداتهم، ووصل الأمر إلى إلحاق الأذى والسوء والإهانة والاضطهاد والامتحان للعلماء كسييد بن الحسيب والامام مالك والامام الشافعي وغيرهم، وساء الأمر أكثر فأدى إلى قتل بعض كبار العلماء كسييد بن جبير وغيره في العهد الأموي، وتفتت خلق القرآن في العهد العباسي، وانقطع حبل الوئم والثقة بين الطرفين.

2- اتجه العلماء والفقهاء والمحتردون إلى العلم والفقه والاجتهاد

(1) انظر: بحثا عن الاجتهاد الفقهي بالشام ص 133 من مجلة الدراسات العربية بدمشق، العدد 11-12، 135.
والرواية، واعترضوا الحياة العامة حتى لا يشاركون الحكام في آرائهم السياسية، وينفضون نبئهم من المخالفات الشرعية والانحرافات القائمة، ثم التزموا الطريق العلمي في الفقه والاجتهاد، أو الحديث والرواية، أو التفسير والقراءة وتعليم القرآن.

3- تجنب الفقهاء والعلماء إبداء الرأي في الأحكام السلطانية التي تصل بالخلافة والدولة، وضعف الاجتهاد في الفقه السياسي الذي يتحدث عن الإمامة والولاءة ومسؤولية الخليفة والحاكم والسلطان والأمير، بينما توسعوا في بقية الجوانب وفروع الفقه والأحكام الشرعية.

4- حاول كثير من العلماء الابتعاد عن مركز السلطة والحكم وعواصم الخلافة كدمشق وبغداد، واتجه معظمهم إلى بقية المدن الإسلامية للإقامة فيها، ونشر العلم بين أهلها، والتعزز للبحث العلمي مثل المدينة المنورة في الحجاز، والكوفة في العراق، ونيسابور في خراسان، وكان المسلمون صاروا أمام قيادتين، الأولى قيادة سياسية بيد الخلفاء والسلطات والحكم المسلمين، والثانية قيادة دينية بيد تولاة العلماء والفقهاء (1).

بواعث الجويتي لعمر الفقه السياسي:

يظهر للباحث في دراسة تاريخ التشريع الإسلامي، وتاريخ الإسلام السياسي، ومن خلال مطالعة كتب الإمام الحريم الفقهية والسياسية أن البواعث التي دفعته لتناول الفقه السياسي والتأليف فيه، بل والإبداع فيه، يكاد ينحصر في سببين، أحدهما غير مباشر، والثاني مباشر.

السبب غير المباشر: إن الاختلاف بين المسلمين في نظريات الخلافة الإسلامية وظهور الفرق والمذهب فيها كما سبق، وإن الجفوة بين العلماء والحكام وما نجم عنه من انعزال العلماء والفقهاء عن الحكام، لم يقف عند مجرددراسة النظرية، والاجتهاد العقلي، والبحث الفكري، بل تعدى إلى الصدامسلح، وقام بسببه عدد من المنظمات السرية، والحركات.

(1) انظر: بحثنا "الاجتهاد الفقهي بالشام"، ص 140، غ nl. الأمم، المقدمة ص 19.
الإرهابية، والثورات الانفصالية، والانفصالات الشعبية والسياسية، والمطالبة بالخلافة، ووصل الأمر أحياناً إلى قيم خليفة، والمبايعة له، ونجدته ومارسها ونصرته فكرياً ودينياً، وعسكرياً وسياسياً، واضطر خلفاء بني أمية وبني العباس وحكمهم وأمراواهم وولاتهم إلى مواجهة ذلك، فاستخدموا العنف والشدة والإبداء والقتل أحياناً، وهدئوا بالقوة والتفويض بها أحياناً أخرى، مما جعل مجرد الكلام عن الإمامة والخلافة والأحكام السلطانية مظهرة النهبة، وإلحاق الشبهة بالانتماء إلى الأحزاب والحركات المناوئة، وكان الناس يتوجوسون الشر، وقد يساء الظن بالعالم والفقهاء والمجد، وقد يفهم حديثه على غير المعصم منه، وقد يضرع الظلم إلى التعرض بالمعصم ويكفي مثالاً على ذلك فتوى الإمام مالك رحمه الله تعالى في عدم وقوع طلاق المكره، التي فهمها بنو العباس على عدم صحة البيعة لهم، لأنها كانت بالقوة والإكراه، مما عرض الإمام مالك إلى الإيذاء والاتهام، لذلك عزف كثير من الأئمة والمتحضرين، والفقهاء والعلماء عن التعرض المباشر وغير المباشر لهذه الأحكام، وخففوا من الاجتهاد فيها، والتوسع في جزئياتها، مع الحاجة الملحة لها، ووقفا عند الأسس العامة للدولة الإسلامية، مع التمسك بجواب الالتزام بالدين وتطبيق أحكام الشرع عامة، وعدم ارتكاب المعاصي والمحرمات، ونتيجة لذلك كان نصيب الفقه السياسي والأحكام الدستورية والإدارية قليلاً جداً إذا قيس بغيره، أو قرون مع بقية أبواب الفقهية والجوانب الفقهية.

وقد لا يعني انعدام الدراسة والبحث والتأليف في الفقه السياسي، لأن أصوله ومبادئه مقررة في القرآن والسنة، وعرض المفسرون والمحدثون والعلماء أحكام الفقه السياسي عند تفسير الآيات الكريمة، وعند شرح الأحاديث الشريفة، وفي أبواب الفقه المتفرقة عند الحديث عن الولاية في التصرفات، ونظام القضاء، وجمع الزكاة، وإعلان الجهاد، وغير ذلك، كما خصص بعض العلماء والمفكرين المسلمين قديماً وحديثاً أبحاثاً كاملة عن الفكر السياسي في الإسلام، مع بيان الأحكام الشرعية والنظريات الفقهية عن
الإمام والخلافة(1)، بل إن بعض الفقهاء أفردوها بالبحث والدراسة، وهو ما ينطلق الإمام الجويني نفسه، فقوله: "وقد صنف القاضي (أي القاضي حسين المرورودي) وغيره من أثمنا نشيء الله عينه وعنهم كتاب مبسوط في الإمامة وفيها مقنع للمستبصر، وإرشاد بالغ لمن يروم الغاية، ودرك النهاية(2)، ولكن هذه الدراسات والبحوث والكتب كانت قليلة بالمقارنة مع تراث المسلمين عامة، وقد يكون تداولها وانتشارها محدوداً ومحصوراً للأسباب العملية.

السبب المباشر: أن الإمام أبا الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي كان معاصراً لامام الحرمين الجويني، وكان يتمتع بمكانة علمية مرموقة، فكان مفسراً ومحدثاً وفقيهاً وأصولياً ومتكلماً وفيلسوفاً أخلاقياً، كما كان يتمتع بمكانة اجتماعية عالية ومشهورة. فكان قاضياً ثم صار قاضياً للقضاء في بغداد، وكان سياسياً ويعتبر بتقدير كبير من خلفاء بني العباد ومن الحكام وسلاطين بني بويه، وكثرت ما تقع الخلافات بين الخليفة والسلطان البرويبي، أو بين الحكام والقادة البوهيين أنفسهم، لذا كانوا يعتمدون على الماوردي في المفاوضات السياسية، وإزالة الخلافات، وإصلاح ذات البين، ويخذلون لمشورته وآرائه، ويتخرون أحكامه ومواقفه(3)، وكان الماوردي ذا باغ واسع، وفكر ثالث، وعقل ناضج، وقلم سبلي في التأليف والكتابة في جميع اللفتات السابقة، وألف أعظم كتاب في الفقه الشافعي، والفقه المقارن معاً، وهو الحاوي الكبير، ثم ألف كتابه الذي صيغ "الأحكام السلطانية" الذي يتناول فيه بحث الخلافة الإمامة والولايات الدينية، ونظام الحكم والإدارة في الفقه الإسلامي، ولكن هذا الكتاب لم يعجب إمام الحرمين الجويني، وأخذ عليه مآخذ كثيرة من الناحية الموضوعية، وإن اعترف له باتفاق التبويض والترتب والتنظيم، لكنه أتهمه بالجمع والنقل،

(1) انظر عرضاً لبعض كتب السياسة الإسلامية خلال التاريخ الإسلامي في كتاب: "الإمام أبو الحسن الماوردي، الدكتور محمد سليمان داو والدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد ص 98 وما بعدها.
(2) الإسلامية ص 410.
(3) انظر: الإمام أبو الحسن الماوردي ص 4 وما بعدها.
وعند التمحيص في الآراء، وعدم الاعتماد المباشر على النصوص الشرعية والإجماع وتاريخ الخلفاء الراشدين، وألمح إلى تأثره بالفكر السياسي لغير المسلمين في الصياغة والترتيب، فدفعه ذلك إلى تصنيف كتاب في الإمامة معتمد على القرآن والسنة والإجماع، وهذه بعض نصوصه:

يقول الجويني: «والشكورى إلى الله ثم إلى كل محسن من تصفين ألفها مرموق، متضمنها ترتيب وتوضيب، ونقل أعين كلام المهدية الماضين، والتصنيف على ما تبع فيه السابقون مع خطأ كثير في النقل، وتلاين وإفراض وتفريق، ولا يرضى بالتقليل والتصنيف مع الاكتفاء بالنقل المجرد حسین، لم يكن في تأليفه وتصنيفه على بصيرة، لم يتميز له المظنون عن المعلوم، والبحث عليه مسائل الظنون بمداد المعلوم».

ثم قال الجويني: «وإنما جرى هذه الشكاة نظري في كتاب لبعض المتآخرين، مترجم (بالاحكام السلطانية) مشتمل على حكایة المذاهب، ورواية الآراء والمطالب من غير درآية وهدية، وتشوف إلى مدرك غاية، وتطلع إلى مسلك منضمن إلى نهاية، وإنما ضمّون الكتاب نقل مقالات على جهل وعمى، وشرّ ما فيه، وهو الأمر المعضل الذي يعمر تلاتبه، سباقه المظنون والمعلوم على منجى وحيد، وهذا يؤدي إلى ارتبك المسالك، واشتباك المدارك، والتباس البقين بالحدوس، واعتراض طرائق القطع في هواجس النفس».

وفي معرض مناقشة الجويني لبعض آراء الماوردي، والرد عليه من القرآن والسنة وأقوال الإمام الشافعي يشتد عليه بالقول، ويقوسو عليه في الحكم، ويفحش عليه في الطعن، يقول: «فليت شرعي كيف يستجزي التصدي للتصنیف من هذا متنه فيه، ومبلغ عله...، فقد تهدّف فيما صنف، واقتحم المهاوي وتعصف، ولست، والله، في ذلك أتكفل وأتصلف».

(1) غيات الأمام ص 104.
(2) المرجع السابق ص 105.
وقال الجويني: "وهذه عرة ليس لها مقيل وهي مشعة بخلو صاحب الكتاب عن التحصيل"。

وهذا ما دفع الجويني رضي الله تعالى إلى إيضاح الحق في بث الخلافة والإمامة والإمارات والولايات ونظام الحكم في الإسلام، محدداً هدفه وغايته، وميناً منهجه وأسلوبه، كما ستعرضه بعد قليل، وأنه أخذ على عاتقه واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنه قائم على واجب النصح لله ولكتابه ورسوله ولأمة المسلمين وعامتهم(1)، وكان إمام الحرمين الجويني يثق بنفسه، ويعتقد بوجوب البيان والنصيح عليه، وخاصة أنه كان مقرباً من نظام الملك، فارد أن يرشده إلى الحق، وأن يضع أمامه منهج القويم لشرع رب العالمين، وأن يعيه في الالتزام السليم بتطبيق أحكام الدين، وقد صرح الجويني في كتابه عامة لذلك، وكرر كثيراً في كتابه الخاص في هذا الموضوع، كما سنبينه.

لكن إمام الحرمين الجويني عرض بث الإمامة وما يتصل بها في موضوعين مختلفين، وبمنهجين متناوين، فقد تعرض لبث الإمامة في كتب التي ألفها في العقيدة وأصول الدين وعلم الكلام، مستخدماً أسلوب هذا العلم، ومنهجه الخاص، ثم عرضها في كتاب فقه مستقل، وسمّاه وثاث الأمم في النياث الظلام، واستخدم فيه الأسلوب الفقيهي، في الاستدلال والاستنباط والاستقراء، وتتبع الأدلة والنصوص والواقع التاريخية، ولذلك نفرد كلاً منهما بفقرة مستقلة.

أحكام الإمامة في كتاب العقيدة للجويني:

دَرَج أظهر العلماء على عرض نظرية الخلافة وأحكام الإمامة في كتاب أصول الدين وعلم الكلام جريحاً وراء الشيعة الذين يعتبرون الإمامة جزءاً من العقيدة والإيمان، بينما يخلّفهم أهل السنة والجماعة في هذا المبدأ، ويرون

(1) المرجع السابق ص 114، 116.

(2) روى الإمام مسلم عن تميم بن أبي السداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الدين النصية، فلنا لمن؟ قال: الله ولكتبه ورسوله وأمة المسلمين واعظمهم".

140
أن الإمام من أحكام الفقه والتخطيط، ومع ذلك فقد عرضوا فكرة مختصرة
عن الإمام والخلافة في كتب العقيدة والتوحيد لدحض نظرية الشيعة والرد
عليها ومناقشة آرائها وأدلةها، وسار إمام الحرمين على هذا المنهج في كتب
العقيدة وأصول الدين.

ففي كتابه "الإرشاد إلى قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد" ختمه بإحكام
الإمام، بدأ بحثه فيه بقوله: "والكلام في هذا الباب ليس من أصول
الاعتقاد، والخطر على من يزل فيه يربى على الخطر على من يجهل
أصله".

ثم بين أهمية هذا الموضوع ومخاطر البحث فيه، قلله: "ويتعثره
محظوران عند ذوي الحجاج، أحدهما: ميل كل فئة إلى التقتضي، وتعدي
الحق، والثاني: من المجتهدين المحتملات التي لا مجال للقطاعيات
فيهما".

ثم عرض الأصول المقررة في هذا الباب، مميزاً بين الأدلة والأحكام
القطعية، وبين الأحكام والأدلة الظنية، ثم قدم للموضوع طرفًا من الكلام عن
الأحوال، لأن الإمام مبنية عليها، فعرض الخبر بأنه: "ما يوصف بالصدق
والكذب"، ثم بين قسميه، وهما: الخبر الحوني الذي يفيد العلم الأدق، ولقد
توفرت شروطه، والخبر غير الحوني، ويسمي خبر الأحاد، وهو الذي لا يفيد
العلم بنفسه، لكنه يقرر به ما يوجب تصديقه.

ثم بحث في إبطال النص على الإمام، وأثبت حق الأمة في اختيار
الإمام بالإجماع الشرعي الذي ثبت في عهد الصحابة رضوان الله عليهم،
وانتقل إلى صفحة الاختيار وكيفيته، وعرض مشكلة عرض الإمام لأصحاب،
ثم انتقل إلى بحث خلع الإمام، ثم شرائط الإمام، وأثبت إمام أبي بكر
وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم، ثم تعرض أيضاً لموضوع إمامة

(1) الإرشاد ص 410.
(2) الإرشاد ص 411.
المفضل والتفضيل بين الصحابة، وختتم البحث ببعض الآراء المهمة والصريحة، وقطع فيها برأيه، ورأى أهل السنة والجماعة، وهي أن عثمان قتل مظالمًا، وأن الصحابة عدول، وأنه يحرم الطعن فيها، وأن الذين قاتلوا عليًا كرم الله وجهه بغاة مخطون، لكن نحن الظن بهم، أي لا نحكم عليهم بالكفر، وأخبرًا ذكر جملة في عدم عصمة الصحابة، وبطلان القول بعصفة الأئمة لعدم الدليل عليه(3).

وفي كتاب "العقيدة النظامية" ذكر في مقدمته، وعند خطة البحث: أبوب الكتب، وبعد تعدادها قال: ثم الإمامة، ليست من العقائد، ولو غفل عنها المرء لم تضره، ولكن جرى الرسم باختيام علم التوحيد بها، ونحن نذكر منها طرفا(4).

ثم عدل عن هذا الوعد في آخر الكتاب، وقال: "وقد كنت وعدت أن أذكر فصولًا في الإمامة، ثم بدأ لي أن أجرد للمجلس السامي كتابًا في الإمامة. فقد تأثت فيها الفرق، ولم يخل فريق عن تعدد الحد، والصرف والإفراد والتفريق، والإيجاز لا يوصل إلى بداياتها فضلاً عن مبانيها، والداعي لأيام مولانا مرتب سامي أمره في استفتاح كتاب نمسه "بالإمامة الكبرى، وهي مصدرة بالإمامة مختتمة بالأحكام السلطانية(1).

ثم قال - معرضًا بالمارودي -: "وقد حوم عليها مصنفون، ولم يردوها، وكم تركوا من عذراء في حُرها وهي لا تختبِب(5).".

أما كتابه الكبير والشامل في أصول الدين، فلم يعثر على مقدمته، ووضاعت الأجزاء الأخيرة منه، ولم ندر هل تعرَ في هذا الكتاب لبحث الإمامة فيه أم لا？

(1) انظر: الإرشاد ص ٤٢٤ - ٤٣٤.
(2) العقيدة النظامية ص ١٣.
(3) العقيدة النظامية ص ٦٨.
(4) المراجع السابق.
غياب الأمم في النيات الظلم:

لم يقنع إمام الحريمين الجويني بتناول بحث الإمامة والخلافة في كتب العقيدة والتوحيد، وصرح أنه عرض هذا الموضوع جريباً وراء المناهج المتداولة، وأظهر امتعاضه من مجرد العرض المبسط، وأوضح أن الإيجاز والاختصار لا يشفى غليلاً، ولا يحقق مقصداً، ولا يوصل إلى الهدف والغاية المحددة، كما أحس بالإعراض غالبية الفقهاء عن بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالحكم والخلافة والولاية تجنباً للاصطدام مع الحكم والولاية، وتحسباً لغضبهم، فقدم إمام الحريمين الجويني لدراسة هذا الموضوع بجراحة وشجاعة، مما جعله متميزاً على غيره، ومتفوقاً على بقية العلماء والفقهاء، بالإضافة إلى ثقتته بنفسه، وتوفير الفناء والأهلية فيه لخدمة هذا البحث المهم والخطر، والاحاطة بجوائه، ويمكننا تلخيص مؤهلاته لتلقيف هذا الكتاب بثلاثة عناصر، وهي:

1 - الغزارة العلمية، وقد عرضنا بعضها في نشأته وتحصيله، وبلغت هذه الغزارة العلمية أوجها بعد الخبرة والتجربة والتدريس والتأليف، وخاصة لكتابه العظيم "نهاية الملبال" في الفقه.

2 - المكانة الأدبية والاجتماعية التي كان يتمتع بها إمام الحريمين منذ نعومة أظافره، وقد فرضها على غيره عند رحلته في الأفاق، ثم عودته إلى نيسابور، ثم تأكدت هذه المكانة رسمياً بصلته بنظام الملك، وتعيينه للتدريس في نظامه نيسابور، واعتماد نظام الملك على الجويني، وثقته به، واحترام آرائه ومواقفه.

3 - المرأة والشجاعة، فقد كان الجويني جريعاً في الحق، لا يخف في الله لومة لائم، شجاعاً في إبداء الرأي، ولو تعلق بالخلافة والحكم والولاية، لا يشكت في نظام، ولا يستسلم لجبار، ولا يدلى بطاغية، ولا يماري في الحق، ولا يحيد عن الصرامة، ولا يلين في جدل، وهذا ما حمله على الرحلة عن بلده في شبابه، وظهر هذه الصفات واضحة جلياً في كتابه هذا، الذي يتصل بأصحاب السلطة والجهود، فمن ذلك أنه بين رأيه في ولاية العهد.
من الخلفاء، وأن ذلك جائز قطعاً لإجماع أهلijke الحلف والعقد على رأي أبي بكر وفعله، ثم بين اختلاف العلماء في صحة توليية العهد من الإمام إلى ولده أو والده، ثم رجح أحد القولين بالجوز، مبناً ووجب توفر الشروط الشرعية في هذه الحالة، وإلا فلا يجوز، وأعلن رأيه بالبراءة من ولاية العهد عند الأمويين والعباسيين، فقدت الصفات المطلوبة في الإمام، وأن ذلك يخرج عن تعاليم الإسلام، وقال: فبالظاهر عندي: تصحيح تولية العهد من الوالد لولدته، ولكن المسألة مظنة، ليس لها مستند قطعي، ولم أطمك بما جرى من العهود من الخلفاء إلى بنيهم، لأن الخلافة بعد منفرض الأربعة الراشدين شابتها شوائب الاستيلاء والاستغلال، وأضحى الحق المحض في الإمامة مرفوضاً، وصارت الإمامة ملكاً عوضاً.

ويذكر على المأمون عليه السلام التي ابتدعها في خلق القرآن، واضطهاد العلماء أهل السنة عليها، مع أنه أحد خلفاء أبي النبى، وأجداد الخليفة الموجود في زمن الإمام الحرميين، فيقول عنه: وقد اتفق للمأمون... ظهرت هفوة فيها، وعصر على من بعدة تلفيها... وانتهى زلله وخطله إلى أن سوا للمعطلة أن يظهروا آراءهم.

مخطوطات غياث الأمم ونشرها:

تبأ كتاب وفيات الأمم؛ للحويني مكانة عالية، وتلقاه العلماء بالقبول، وأقبلوا على دراسته ونسخه ونقله، وتداعله بالطرق المعروفة قديماً، ولهما رحل أبو بكر ابن العربي - الفقيه المالكي - إلى المشرق حصل على كتب إمام الحرميين، وحملها معه إلى المغرب، ومنها كتاب وفيات الأمم، الذي أعجب فيه، وقال: إنه لم يسبق أن جلب أحد هذا الكتاب قبله.

وكان من فضل الله على الأمة أن حفظت لنا نسخ هذا الكتاب، ولكنه بقي مخطوطة إلى عهد قريب، وتورفت عدة نسخ خاطئة له، وقد أشاد كبار العلماء بهذا

(1) غياث الأمم ص 103.
(2) المراجع السابق ص 143.
الكتاب، ودعوا إلى نشره، كالعلامة أحمد تيمور باشا، والعلامة محمد زاهد الكوثري، والشيخ محمد الخضر حسين (1)، وغيرهم، ومع ذلك فقد تأخرت تلبية هذه الدعوة. وقد حرصت على القيام بهذا العهاب، ورغبته بنشر الكتاب، وسعت لجمع النسخ الخطية، وحصلت فعلاً على صور لثلاث نسخ خطية عام 1975، بغية تحقيقه ونشره، ونسخته الكتاب، وشرعت بمقابلة النسخ والبدء بالعمل به، ثم سافرت للتدريس في مكة المكرمة، وشملت بتحقيق كتاب «شرح الكوكب المثير، بالاشتراك مع الزميل الفاضل الدكتور نزيه حماد، وعزم أحد طلاب الدراسات العليا بمكة المكرمة لتسجيل هذا الكتاب كمشروع لرسالة الدكتوراه، ولما علم بعمله به عزف عنه، وظهر أن العيون والقلب والأنفاك كانت موجهة إلى هذا الكتاب القيم، لتقوم بخدمته ونشره وإقامة الناس منه، وقبل أن يعود لمتابعة العمل به بعد انتهاء الإعارة 1980 م، ظهر كتاب «غزوات الأمم في الاليان الظلم» إلى السوق، وتم طبعه ونشره، بتحقيق ودراسة من الدكتور فؤاد عبد المنعم، رئيس محكمة، وخبر بوحشة إسلامية، والدكتور مصطفى حلمي الأساتذة المساعد بكلية دار العلوم بالفجيرة، والاستاذ المشارك بجامعة الرباط، ونشر الكتاب لأول مرة عن أربع مخطوطات، وعن دار الدعوة بالإسكندرية عام 1979، وتحقيق الأمل الذي نشده، ويشبه كل مخلص لتراث هذه الأمة، والاستفادة من جهود السلف، وخاصة أن هذا الكتاب كان أحد المصادر الرئيسية لكل من كتب في الفكر السياسي، والفقه العام منذ عشرة قرون، كما سرى عند بيان مكانة الكتاب، وأثناء تحقيق هذا الكتاب كان آخر من يعملون على تحقيقه دون علم بما يتم على الكتاب، وتم تحقيق الكتاب أيضاً من جديد، وطبع ونشر مرة أخرى، بتحقيق الدكتور عبد العظيم الجبي. ويتكون الكتاب بعد نشره وتحقيقه الأول من مقدمة التحقق في أربعين صفحة، ثم نص الكتاب المحقق في 380 صفحة، وأخيراً الفهرس في 42 صفحة.

(1) انظر: مجلة المفتيس، المجلد 3 ص 126 - 127، سنة 1339 هـ/ 1920 م.
ذكر الجويني في آخر كتابه "العقيدة النظامية"، المعروف بالنظامي أنه
سبق كتابه مستقلاً ببحث فيه أحكام الآئمة باسم "الإمام الكبير"، وهي
مصّرة بإمام مختصر بالأحكام السلطانية(1)، وعندما كتب هذا الكتاب،
عرض فيه الأحكام الشرعية في شؤون الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع
الإسلامي، وضمنه أمراً فقهياً وموضوعات أصولية، وذكر أن غرضه ليس في
الخلافة الإسلامية فحسب، وإن كانت معالجته لها جاءت فريدة في بابها(2)،
وإذنا تعداها إلى غيرها من الموضوعات المهمة التي تفرد بها أيضاً، وجمع
بين الأحكام الشرعية، والتجارب التاريخية، والأحداث في الخلافة الراشدة
الأموية والعباسية، واستعرض الوقائع التاريخية للأفراد والحكام، والعلماء
والمجتمع والدولة، وعالج المشاكل التي وقعت قبل زمن، والمعضلات
القائمة في عصره، وافتراض القضايا التي يمكن أن تقع في المستقبل، لذلك
سمى الكتاب "غيات الأمم في الثياث الظلم"، وقدمه لنظام الملك، وقال في
مقدمته: "وهذا إذا تم غيات الأمم في الثياث الظلم، فليسته بالغياثي، كما
اشتهر الأول بالنظامي، والله ولي التوفيق"(3).

والغياث بكسر الغين من الغواث بالضم والفتح، قال الفراء: يقال
أجاب الله دعاءه، وغواصة، واستغفائه فأغاثه، وقال أبو عبد الله الحكيمي:
الغياث هو المغنيث، وأكثر ما يقال غيات المستغفيين، ومنه المدرك عبادة
في الشهدان إذا دعوى، ومجيبهم، ومخلصهم والالياث بمعنى الحبس(4)،
والمعنى أن هذا الكتاب يعين المسلمين وغيرهم، وراعية ورعب، حكاماً
ومحكمين، على حبس الظلم، وبحث المظالم بينهم، وحقق العدل,
ويزيّل الشهدان، وينتقد الناس ويدركهم من الأخطار إذا رجعوا إليه، والتزموا

---

(1) العقيدة النظامية ص 88.
(2) نظر: غيات الأمم، المقدمة ص 8، وصرّح الجويني ص 82 أنه لا يقصد ببحث الإمام
 مباشرة، وإنما يقصد ما بعدها، وذكرها كمقدمة للكتبين الاثنين(1).
(3) غيات الأمم ص 13.
(4) نظر: غيات الأمم ص 3، CELAMOS المحيط 173/1، والالياث: التداخل
 والترابك، والظلم: جمع ظلمة.
باحكمه، وساروا على هديه ونهجه، فهو هدي الله القويم، وشرعه المبين، وعدله المطلق إلى الناس أجمعين.

ويظهر هدف الكتاب من عنوانه، وهو إنقاذ بني البشر مما يتردون فيه من مهاوي الظلم والجور، فالغرض هو الإنقاذ، والاثبات هو الحسن والمكت، فأعلن الجويني رغبته في إنقاذ الأمة الإسلامية من أسر الظلم وأغلاله، وهذا هدف الشرع، وهدف كل مصلح وناصوح ومرشد في كل زمان ومكان.

ويتضمن الكتاب، كما صرح به إمام الحرمين في المقدمة والخطة، ثلاثة أركان، وهي:

الأول: في الإمامة وما يليق بها من الأبواب.
الثاني: في تقدير خلو الزمان عن الأئمة وولاة الأمة.
الثالث: في تقدير انقراض حملة الشريعة.

بدأ الجويني كتابه بالركن الأول، ووضع له عنواناً "كتاب الإمامة"، وبحثه في ثمانية أبواب، الأول في وجوب نصب الأئمة وقادة الأمة، وثاني أن نصب الإمامة واجب بأدلة الشرع المنقلحة، وذكر الحكمة من ذلك فقال: "ولو ترك الناس فوضى، لا يجمعهم على الحق جامع، ولا يزعهم وازع، ولا يردعهم عن اتباع خطوات الشيطان راع، مع تفنن الآراء، وتفرق الآراء المتلاقحة، وتفرقوا الإرادات المتعاوضة، وملك الأرثون سراة الناس، وفاضت المجامع، واتسع الخرق على الراقص، ونشبت الخصومات، واستحوذ على أهل الدين ذو العرامات، وبددت الجماعات".

وفي الباب الثاني بين الجهات التي تعين الإمامة وتدفع الزعامة، وأنها ترجع إلى الأمة، واختيار أهل الحل والعقد، ونقل قول الشيعة الإمامية أن

---

(1) غياث الأمم 14 - 273.
(2) غياث الأمم ص 19.
النبي ﷺ نصّ على إمامة علي رضي الله عنه لتوالي زعامة الأمة بعده، ثم نقل قول الزيدية أن الرسول ﷺ لم ينص على معين للخلافة، وإنما عُرض ولمّع ورمّز وأشار، ومثّل بالصفات المطلوبة، وهي متوفرة في علي رضي الله عنه دون من عداء وسواه، وفي مقابل ذلك أدعى البعض أن النص على أبي بكر ﷺ. ثمّ اذّرت فرقة العباسيّة إلى أن عليه الصلاة والسلام نصّ على إمامة عمّه العباس، وخصّصه بالإمامة دون سائر الناس (ص 19)، وناقش إمام الحرمين هذه الآراء، وفند حججها حجة حجة، وأبطل الاستدلال بادلتها دليلاً دليلاً، إلى أن قال: «وقد تحقق بالطرق الفاضلة والبراهين اللامعة بطلان مذاهب أصحاب النصوص، فلا يبقى بعد هذا التسليم والاعتبار إلا الحكم بصحة الاختيار» (ص 42).

وفي الباب الثالث ذكر صفات أهل عقد الإمامة وهم الأئمة المستقلّون الذين حكّمهم التجارب، وهذّبهم المذاهب، وعرفوا الصفات المرعبة فيما يناظرهم أمر الرعية» (ص 50)، وعرض قول الباقلاني وغيره، وبين عدد أهل الحلّ والعقد للبيعة، بأن يحصل بهم مبلغ من الأتباع والإنتصار والأشياء يحصل بهم شروكة ظاهرة ومنعة قاهرة» (ص 55).

وفي الباب الرابع ذكر صفات الإمام القوام على أهل الإسلام، وقسمها إلى ما يتعلق بالحواس والأعضاء، وما يرتبط بالصفات اللازمة، كالنسب من قريش خلافاً لضرائب عمرو القاضي المعتزلي، صاحب المقالات الخبيثة، وليس ممن يعتبر خلافه ووفاقه، واستدل الجويني بالحديث المشهور «الأئمة من قريش»، واحتج بتبع التاريخ الإسلامي وأنهم مجمعون على اختصاص هذا المنصب بقريش، وأنه لم يتّوجه قط أحد من غير قريش إلى الإمامة» (ص 132)، ولما أشراه لهذا المنصب الحاولون في فسباط مصر اعترفوا أولاً إلى شجرة البّنّاء على الاقتراب، واتنموا اتمام الأدبيّاء، وبذلوا حرص الأمور للكاذبين النسايين حتى ألحقو بصميم النسب» (ص 142)، ومن الصفات اللازمة المعبرة الذكورة والحرية ونقيّة العقل والبلوغ، ويتحق بها الشجاعة والشهامة، ثمّ انتقل للصفات والفضائل
المكتسبة، وهي العلم والتقوى والورع، ثم أضاف إليها الجويني "توقَد الرأي في عظائم الأمور، والنظر في مغيات العواقب" (ص 68)، وفي نهاية الباب عرض لاشتراب الإمامية صفة العصمة في الإمام، وأن منصب الإمام يقتضي العصمة كالنبيّة (ص 70)، وردّ عليهم، وقُدّم حججهم، وقال: "على أنّنا باضطرار من عقولنا نعلم أن عليّاً وابنه الحسن والحسين وأولاده رضي الله عنهم، ما كانوا يدعون لأنفسهم العصمة والتنقي من الذنوب، بل كانوا يعترفون بها سراً وعلناً، ويترددون إلى الله تعالى مستغفرين خاطفين خائفين" (ص 71)، ثم قال: "مذهبنا الذي ندين به: أنه لا يجب عصمة الأنبياء عن صفات الذنوب... والإمامية أوجيارة عصمة الأئمة عن الصغار والكبار" (ص 72)، وأن بعض غلالة الإمامية ذهبوا إلى وجوه العصمة لكل من يتعلق بهطرف من مصالح الإمام (ص 73)، وناقش هذه الأقوال وردّ عليها بالشرع والعقل، والحكمة والمنطق، والبرهان والدليل.

وفي الباب الخامس عرض الطوارئ التي توجب الخلع والانخلاء، ولخصها بقوله: "فإن كل ما ينافض صفة مرعية في الإمام، يتضمن انقراضها، فهو مؤثر في الخلع والانخلاء" (ص 75)، ثم شرع بالتفصيل الممتع الصريح علمياً وموضوعياً وشرعاً وعقلاً وتاريخياً وواقعياً، مع استعراض الأمثلة من تاريخ الخلفاء ومناقشتها على هذا النهج كطريان الفضل، ومتلك الخلاف بين علي وعائلاً رضي الله عنهما (ص 84)، وحالة أسر الإمام مع مثال حالة محاصرة عثمان رضي الله عنه، فقال: "كان إمامًا إلى أن أدركه سعادة الشهادة، وما كان سقوط الطاعة ميئوس الزوال، وإنما حاصره شرذمة من الهجم الأرثال ونزاع القبائل" (ص 90)، وبين الجويني أن عقد الإمام لازم، لا اختيار في حلّه، من غير سبب يقتضيه" (ص 97).

وقبل أن ينهي الجويني هذا الباب عرض فصلاً عن نواب الإمام ومراتهم ومناصبهم، وصفات كل منصب (ص 99)، وذكر أهم قضية في باب الخلافة، وأخطر موضوع في تاريخ المسلمين، وهو ولاية العهد من الإمام إلى غيره، مبينًا الآراء في ذلك، موضحًا رأيه صراحة، وأن المتطوع به

149
صحة أصل النولية، (ص 101) وتصحيح تولية العهد من الوالد لولده بشرط توفر الشروط، وعُرِج على الأخطاء التي وقعت عند الأمويين والعباسيين، ثم ذكر تولية الأمر لائتين، وأنه إذا أفضت الإمامة إلى الأول، فهُد لشخص جديد "فالوَلَدَة تَتَقَدِّم عهده على عهد من تقدمه" (ص 109)، ثم ذكر شروط الوزير، وأهمها الدين والاجتهاد، ورد بعفف وقعة على المواردي الذي أجاز للذمي أن يتولى وزارة التنفيذ (ص 114).

وفي الباب السادس تحدث عن إمامة المفضل، مبنيًا الآراء والأقوال باختصار تجنبًا "لسرد فصل منقول عن كلام المتقدمين...، واجتناب الإطباق، وتنكيب الإسهاب في غير مقصد الكتاب" (ص 121)، وبين معنى الفضل المقصود، وهو "المجمع الخلاصة التي يشترط اجتماعها في المنتصفي للإمامة، والأفضل هو "الأصلي للقيام على الخلق بما يستصحبه"، وليس المقصود الأعلى قدرًا ومرتبة ودرجة وترقبًا إلى الله تعالى بعمله ولمعه، (ص 122) وبين جواز إمامة المفضل" إذا كانت الحاجة في مقتضى الإباضة تنقض تقدير المفضل، قد لا محالة، إذ الغرض في ضاب الإمامة استصال الأمئة"، وإن تهيأ لأهل الاختيار تقدير الفاضل من غير مانع مدافع، وتحقق الاستمكاك من تشريحة الأصلي، فيجب القطع والحالة هذه بإيجاب وتقدير الأنف الأصلي" (ص 132)، واستدلال لما يقول، وعلل لرأيه، واجته لذك بإسهاب وتوسع أكثر مما فعله في كتابه "الإرشاد"، مع بيانه لأمثلة واقعية، وتفاصيل فرعية.

والباب السابع خصصه لنصب إمامين، وحالة تعدد الخلفاء، وفصل في المسألة، فإذا "تبرر إمام واحد يطبق خطة الإسلام، ويشمل الخليفة على تفاوت مراتبها في مشارق الأرض ومغاربها لا ينضبط رأي إمام واحد على الممالك، وذلك يتصور لأسباب... فقد صار صارون عند ذلك إلى تجريز نصب إمام في القطر الذي لا يبلغه أثر نظر الإمام، (ص 128)، وهذا رأي أبي الحسن الأشعري والاستاذ أبي إسحاق الإسفراياني وغيرهما، ثم قال: دولست أنكر تجريز نصبهما على حسب الحاجة، ونفوذ أمرهما على موجب
الشرع (1) (ص 130)، واستطرد في هذا الباب لذكر مسألة فقهية أخرى، وهي نصب قاضيين في بلدة واحدة.

والمال الشامنو توسع فيه تفصيلاً ما إلى الأئمة والولاة من الواجبات والحقوق، مقرراً المبدأ الأساسي في إقامة الدولة والإمام، والفرض الكلي فيها (ص 132)، وهي: استبقاء قواعد الإسلام طوعاً أو كرهاً، وأن يجمع الإمام عامة الخلقت على مذاهب السلف السابقين قبل ظهور الأهواء والرغبات والآراء، وأن الإمامة لزعامة الدين والدنيا، ولكن المقصد الأصلي هو "الدين، لكنه لما استمر استمراراً من الدنيا كانت هذه القضية مرضية مرجعية" (ص 135)، وشرح واجب الإمام في النظر في أصول الدين، بأن يعمل لحفظ الدين ب赞成 الوصوف على المؤمنين ودفاع各位 الزائنين، ودعاء الجاهدين والكافرين إلى التزام الحق المبين (ص 135)، وعرض كلاماً جميلًا وفريدةً عن البذع والضلالات، وما يجب التنكير والتبريد والتضليل، أما واجب الإمام في حفظ فروع الدين فحدوده ثلاثة أمور: فصل الخصومات، والقيام بالسياسات والعقودات الزائرة من ارتكاب الفواحش والموضوعات، والقيام على ولاية من لا ولية له مع سدّ حاجات المحتاجين، وبين مأخذ الأموال ومصارفها، ثم أفرد بحث الجهاد كواجب على الإمام، وكذا قتل أهل البغي، واستطرد في مواقف العلماء عن الحكم، بأن يكونوا لهم ناصحين على الدين "فالحق معني ما نقله الآثاب عن سيد الوري، وما سواء محال، وما والا هو الحق إلا الضلال" (ص 135)، ثم نوه بعض صدنة الحكم وصرخ فقال: "ولو ذهنا نكذب للملوك، ونطبق أجوبة مساعدتهم على حسب استصلاحهم، طلباً لما نظمه من فلاحيهم، لغيرنا دين الله بالرأي، ثم لم نثق بتحصيل صالح، وتحقيق نجاح، فإنه قد يشع في ذوي الأمر أن علماء العصر بحرف الشرع سبيلهم فلا يعتمدونهم، وإن صدقوهم فلا يستفيدون من أمرهم إلا الكذب على الله وعلى رسوله، والسقوط عن مراتب.

(1) انظر وأي هذا أيضاً في كتاب "الإرشاد ص 445"، وانظر كتاب نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، للإسناشة، ظاهر القاسمي ص 326، ط در الشواع، بيروت 1394 هـ/1974 م، وينقل عن كتاب "نصروت الفكر السياسي الإسلامي، ليوسف إيش.

101
الصادقين، والالتحاق بمناصب المماليك المتناقين (ص 167)، ثم عاد الجويني للحديث عن تصرفات الإمام في بيت المال، وذكر حالة خلو بيت المال (ص 189) وأوضح可能存在 الكفار ديار الإسلام فقد اتفقت حُكَّمَة الشريعة قاطعة على أنه يتعين على المسلمين أن يقفوا ويظهروا إلى مدافعتهم زرافات ووحدانًا حتى انتهوا إلى أن العبيد يسلَّون عن رئة طاعة السادة، ويInterop الجهد على الاستبداد (ص 191)، وأنه يجوز في هذه الحالة جمع الأموال من كل مكان، ومنع التعزيز بأخذ المال (ص 210)، واستمر هذا الباب الثامن بفصل عمَّن يستخلقه الإمام (ص 214)، وبذلك ينتهي الركن الأول من الكتاب.

وقد عرضنا بشيء من الإسهاب والتفصيل لأهميته، وقُلَّة المراجع فيه، وإثارة الشبهات حول نظام الحكم في الإسلام، وتحريك الأهواء في الإمامة والخلافة.

وينقل الإمام الحموين إلى الركن الثاني والركن الثالث من الكتاب، مبِينًا أنهما الهدف الأصلي له، والمقصد المطلوب، فقال: «ما تقدم، وإن احتوى كل بدء عجاب، في حكم التوطئة، وتمهد الأسباب فالمقصد فصلان» (ص 222).

الركن الثاني في القول في خلو الزمان عن الإمام (ص 224 - 284)، ويتضمن هذا الركن ثلاثة أبواب:

الباب الأول في انخراط الصفات المعتبرة في الأئمة كانعدم النسب وفقد رتبة الاجتهاد في الإمام، أو فقدان العدالة، وتوُّلي الفاسق الحكم. وتولَّى الحكم بالقوة والشوكه بدون بيعة وعقد.

وفي قول عن فقدان الشرط الأول: «فلم لم نجد قريباً، يستقل بأفعالها، ولم نعد شخصاً يستطيع بقية الصفات، نصبًا من وجدان عالماً، كافياً، ورعاً، وكان إماماً منفذاً الأحكام على الخاص والعام، فإن النسب ثبت اشتراكه تشريعاً لشجرة رسول الله ﷺ، إذ لا يتوقف شيء من مقاصد الإمامة على الاعتزاز إلى نسب، والانتماء إلى حسب» (ص 225)، ثم يعِلُّ لذلك
منطقياً وعقلياً وواقعياً، ويشترط النتائج التي تترتب، والظروف التي قد تقع.
ومن فرد زيادة الإجهاد قال: فلو لم نجد من يتصدى للإمام في الدين، ولكن صادفنا شبهًا، ذا نجدة وقوية واستقلال بعضائم الأمور على ما تقدم وصف الكفاية فتعين نصبه في أمور الدين والدنيا).
وعن فقدان شرط العدالة وحكم تولي الفاسق الحكم يفصل الجويني في هذا الموضوع بحسب الأحوال والأزمان، وبحسب موجب الفسق، ومدى أثره على صاحبه أو على الأمة والدين، فعند الاضطراب مثله بتهديد الكفار بلاد المسلمين ولم نجد العدل، فيجوز تولية الفاسق «فقد تضرر إذا استفزنا داهية يتبع المسارعة إلى دفعها إلى تقليد الفاسق جر العصيرة»، ويعالج الجويني الأمثلة الأخرى، وخلاف الحالات على تقديم أخف ضرر، ودفع أشد هما ما أمكن.
ثم يعرض بعض المسائل والأسئلة والمشاكل ويرد عليها كما لو وجد فرشي، ولكن ليس له دراية ولا كفاية؟ ثم يعرض قضية مهمة وخطرية، ولكنها كبيرة الوقوع، وهي «القول في ظهور متعبد بالشريعة مستول»، وتعبر اليوم الاستيلاء على السلطة بالقوة. ويناقش هذه المشكلة مع بيان حكمها الشرعي، والحل المنطقي والواقعي لذلك.
وفي الباب الثاني عرض حالة استيلاء الشخص الكافى ذي الاستقلال مع خلل في صفاته الكمال (ص 339)، ويبين الجويني أنه يقدّم الأصل فالأصل، فإن فقدت بعض الصفات في الإمام المستولي، ولكنه يقوم بأمور العباد، ويمنع الفساد، ويحمي الأعراض، ويذب عن الديار، ويدفع الكفار...، وهذا أهون بكثير من شريان الاضطراب، وانتهاك النساء، وسفك الدماء، وسلب الأموال، وانتشار الغنم.
ثم استدرك إلى أمر حساس، وهو وجوب مراجعة العلماء، وبين العلاقة بين العلماء والحكام، وأن الولاية الحقيقية لله وأحكام الشرع، فالعلماء يبتكون ذلك، والحكام ينفذون ويحرمون الأحكام (ص 274)، ويذهب بعظمة الجيش والجنود المرابطين على الحدود، وإن صدرت منه...
هنات وعشرات (ص 250)، مبينًا أن مال الدنيا لا يساوي شيئًا لو قويل بوطأة من الكفriers لأطراف ديار الإسلام (ص 254)، واستطرد لمسألة حكم استقالة الحاكم المتخلي إلى عبادة الله، وأنه لا يجوز له ذلك (ص 258)، وأن تولى الحكم فرض كفاعة، وأنه يتعين على الحاكم الانصراف لشؤون الأمة، ولا يحل الالتباس عنها ولو كان لأداء فريضة الحج، إذا خاف تعرض الأمة للخطر، (ص 274)، وأرشد الحكم إلى وجوه معرفة أحوال الأقاليم وأقاصي الديار، وتبني الأخبار فيها، وتعيين المشرفين عليها، لنقل ما يجري فيها إلى العاصلة والخلفاء، ومراقبة أصحاب الفتن وأهل الأهواء، ثم بين وظيفة العلماء في الدولة الإسلامية، فقال: فأما إذا كان سلطان الزمان لم يبلغ مبلغ الاجتهاد، فالمتبعون العلماء، والسلطان نجدهم، وشوكهم، وقتهم، وبدرقتهم (أي حارسهم)، فعالم الزمان في المقصود الذي نحاوله والغرض الذي نزاولة كنتي الزمان، والسلطان مع العالم كملك في زمان النبي، مامور بالانتهاء إلى ما ينهيه إليه النبي، فالعلماء ورثة الأنبياء (ص 275).

يختم الجويني هذا الباب مبينًا مسؤولية الإمام عن الرعية كاملة، فقال: «وقد قال المصطفى في أثناء خطبه: "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته". وقد عظم والله الخطر لمقام مستقل في الإسلام، من حكمه، بانتلاق علماء الأنام، أنه لو مات على ضفة الفرات مضرور، أو تضوى في أطراف خطة الإسلام مكروب مغوم، أو تلوى في منقطع المملكة مضطهد مهموم، أو جار إلى الله تعالى ظلم، أو بات تتح الضر خاوي، أو مات على الجوع والضياع طاوي، فهو المسؤول عنها، والمطالب بها في مشهد يوم عظيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» (ص 277 - 278).

وفي الباب الثالث بحث في خلو الزمان عن الوالي الكفالة وأصحاب النجدة، وقرر أن التصوير في هذا عصر، فإنه يعد عرو الدهر عن عارف بمسائل السياسة، ونحن لا نشترط الانتهاء الكافي إلى الغاية القصوى (ص 278)، ثم قال: «ولكن قد يسهل تقرير ما نبغه بأن نفرض ذا الكفاعة" (ص 278).
والدراسة مضطهدًا مهماً منكوبًا (الس 279)، وفي هذه الحالة فصل الحكم بين ما سيعود استقلال الناس فيه بأنفسهم، فتولاء الناس عند خلو الدهر، ووجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجب عقد الإمارة لواحد يتولى تسيير الأمور، ويلزم الناس بامتثال إشارةه وأوامره، ويتنهون عن مناهية ومزاجه، ويتبع النجوع إلى العلماء في تفصيل النصوص والبترام ومأخوذ الأحكام، وقاس ذلك على تعين المحكمة وتثبيت حكمه الذي أصدره (الس 281)، وصار علماء البلاد ولاة العباد (الس 282).

ثم انتقل الجويني إلى الركن الثالث لكتابه، وهو تقدير انقضاض حملة الشريعة (الس 284)، وقدم له تمهيد طويل، مبتنية دقة الموضوع، وصعوبة البحث فيه، وأن بيان الحكم الشرعي في هذه الأحوال يستدعي نخل الشريعة من مطلعها إلى مفصولها، وتنبج مصادرها ومواردها، واختصاص معاوضها وقواعدها، وإنعم النظر في أصولها وفصولها، ومعرفة صروحها وينبوعها، والاحتفاظ على مداركها ومسالكها، واستبانة كلياتها وجزئياتها، والإطلاع على معالمها ومناظرها، والإحاطة بمبادئها ومنقضتها، وطرق تشبيهها وترتبها، ومساقها ومداها، وسبب اتفاق العلماء وإياها، وعِلة اختلافها وافتراها (الس 284).

ثم قسم الجويني هذا الركن وفصله إلى أربعة مراتب، تدل على ذكائه الحاد، وفيضته الوقاد، وفراسته النافذة، وتصوره الصحيح، وترتبه المنطقي، وتسلسله العقلي والواقعية، وأن هذا الموضوع يتضمن المراتب التالية:

المرتبة الأولى: اشتمال الزمان على المفتي، فين صفات المفتي (الس 286) ونقول أقوال الأئمة باختصار وتصشر، ثم بين رأي بان المفتي هو الممكن من درك أحكام الواقعي على بسر من غير معاناة تعلم (الس 289)، ويشترط فيه ثلاثة علوم: اللغة العربية، والفقه، وأصول الفقه، ف فمن استجمع هذه الفنون فقد علاء إلى رتبة المفتي (الس 291)، ودعا إلى الاجتهاد ونيذ التقليد، ونفع على من ركن إلى التقليد المحض، مع التطاول
على المجددين والمجتهدين، ثم ذكر صفات المستنثبي وأدابه، وأن من ظهر ورعه من العلماء، وبعد عن منظان التهم، فيجوز للمستنثبي اعتماد فنوه إذا ذكر من أهل الفتوى (ص 295)، وترطب إلى مكانة الصحابة، ومذاهبهم، وأن الأئمة والمجتهدون قد نقلوا لنا مذاهب الصحابة، وكفرون البحث عنها.

والمرتبة الثانية: إذًا خلا الزمان عن المفتيين البالغين مبلغ الاجتهاد، ولكن لم يعرّ الدهر عن نقلة المذاهب الصحيحة عن الأئمة الماضين، وقال: وترتكب هذه الصورة توافق هذا الزمان وأهله، (ص 300)، فذكر صفات هؤلاء، وأنه لا يكفي مجرد الحفظ، فلا بد أن يكون الناسل فقهاً مروماً في الفقه خيراً به، فلا ينزل نقل مسائل الفقه منزلة نقل الأخبار والأقاصيص والآثار، وفي هذه المرتبة فإن وقعت واقعة، ووجد الفقهاء نفس الأئمة عليها نقله وتابعه المستفتيون، وإن وقعت وقائع لا نصوص لصاحب المذهب في أعيانها، فإن كان في معنى المنصوص عليه، فليحق هذا القسم بالمنصوص عليه، وقال: فلا يكاد يشذ عن مفهوم هذا الناسل حكم واقعة في مطرد العادات، (ص 304)، لأن مذاهب الأئمة وكتبهم لا يخلو كل باب فيها عن جوامع ووضوابط، وتقسيم تجري طرق الكلام في الممكنات ما وقع منها وما لم يقع؛ (ص 305)، وإن كانت الوقائع لا نصوصها، ولا يضبطها حدود روابط، وجوامع ضوابط، ولم يكن في معنى ما انتوت النصوص عليه، فالقول فيها يلتحق بالكلام فيه إذا خلي الزمان عن نقلة المذاهب (ص 305)، لكن إن كان الناسل في نفسه، متودق الفرحة، بصيراً بفضل ابن الطهير في خيال الفنون، وإن لم يبلغ درجة الاجتهاد، فإنه يقوم بإعمال القياس، وإلقاء غير المنصوص عليه بالنصوص عليه.

المرتبة الثالثة: في خلل الزمان عن المفتيين ونقلة المذاهب، ويرى الجويني أن هذه الصورة بعيدة الوقوع، لأن ماأخذ الشريعة مضبوطة محصورة، وقواعده محدودة، فإن مرجعها إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ، والذي المشتمل على الأحكام، وبيان الحلال والحرام معلومة، والأخبار المتعلقة بالتكاليف في الشريعة متانة، (ص 309)، والله سبحانه نكفل بحفظ الذكر فإن نحن نزلنا الذكر، وإننا له لحافظون.

106
(الحجر/9)، وهذا الذكر يشمل القرآن والسنة، ولكن نصوص القرآن والسنة متناهية، والوقائع غير متناهية، فالأمر أن قواعد الشريعة شاملة، وضرب مثلًا لذلك النص على النجاسات حصرًا، وما عداها فظاهرًا، فكل ما لم يرد عليه النص بنجاسته فظاهر، والمحرمات محصورة، وما عداها فحلال، وهكذا، وسرب تطبيقات لهذه القاعدة من أبواب الفقه كالطهارة، وموجبات الغسل والوضوء، والحيض، والصلاة والزكاة، والأمور الكلية والقضايا التكليفية أي ما يتعلق بمقاصد الشريعة، والمعاملات، والفرائض والمواريث، والنكاح والجنابات في الحدود والقصاص، وبذلك أنهى الكلام عن المرتبة الثالثة عند شغور العصر عن الأئمة التلمذات، ورواة الآراء والمذاهب، مع بقاء الشرع وشيوع أركان الدين على الجملة بين المسلمين.

المرتبة الرابعة: في خلو الزمان عن أصول الشريعة، وذلك باندراها، وانطمام قواعدها، وحكم التكليف، لو فرض ذلك، على العقلاء، ونقل قول طوائف من العلماء أن ذلك لا يعقل، فإن أصول الشريعة تبقى محفوفة على ممر الدور إلى نفحة الصورة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَا لَهُ لِحَافِظٍ﴾ (الحجر/9)، ثم اعترض على هذا الرأي، وأن الآية في حفظ القرآن عن التحريف والتقليد والتصريف، وأنه وردت أخبار عن انطواء الشريعة وانطمام الإسلام، باندراص عالم الأحكام بقبض العلماء، ولا يعد انمحاق الشريعة أصلاً أصلا حتى تنقضى وتنصرف كان لم تعهد.

وفي هذه الحالة تنقطع التكاليف عن العباد، وتلتحق أحوالهم بأحوال الذين لم يبلغهم دعوة، ولم تتن بهم شريعة، ثم أشار الجويني إلى وظيفة العقل فقال: ﴿وَلَسْنا نَكِرُ أن عَقَوَّلَهُم مَّسْتَنْقِطُوهُم فِي قَضَائِهِم النِّجَابَات عَلَى الاََنْتِفَاعِ عَن أَسَابِيبِ الْرِّدَا وَالانْتِصَارِ عَن مَوْجَبَاتِ القُوَّى، وَلْكِنْ نَلْقَضِي بَنِ حَكِيمِ اللَّهِ عَلَيْهِ مَوْجِبَ عَقَوَّلَهُم﴾ (ص 379)، وهذه مسألة التماسين والتقييم العقليين التي يبحثها العلماء في أصول الفقه وأصول الدين، فتبه إلى ذلك، ثم ختم الكتاب، وبين أنه ختمه في هذه المسألة لأنه افتتح تأليف كتاب مستقل في هذا الخصوص بالذات، مضمونه واسمه ﴿مَدَارِكِ العقَوْلِ﴾ وهو الكتاب الذي لم يتمّه.

157
هذه نبذة عن الكتاب القيم "غياث الأمم في النتائج الظلام" لإمام الحريم الجوني، وقد يتّبادر للمطلع على عناوين الركنين الثاني والثالث لأول ولهة أن البحث نظري وخيالي، وأن المؤلف يفترض حالات ويقدم لها فلسفة، ولكن القاريء يفاجأ بأن المؤلف يعرض لقضايا واقعية، وبين الحكم الشرعي، المعتمد على الأدلة المنصوصة، والإفتاء المنطقي والعقلي، وكان إمام الحريم يصور الواقع في زمانه، وفي الأزمان السابقة واللاحقة، وأنه ينظر بنور الله على أوضاع المسلمين القادمة، ويعطي الحلول العملية، والأجواء المنطقية، ويقدم النصائح الجليّة، ويرشد إلى المعالجة الحكيمة، والتخطيط القويّ، وكان يدّعي استشارات عميقة، وخبرات دقيقة للحكام في سياسة الأئمة، فأيّل ممثلًا للحكام ووجه تبعت أخبار العباد في مختلف البلاد وفائدة ذلك، ومذاكر الإهمال فيه، مبنية الأساليب الناجحة، يقول بنطغ، وعبارات دقيقة، وبلسم شافي، (ص 273 وما بعدها) مما يأخذ بالآلهة، ويستحوذ على القلوب.

وكان منهج إمام الحريم في "غياث الأمم" سليماً، وخطته محددة، وهدفه واضحًا، وبراعته معنوية، واجتهاداته وافية، ولم يشتغل بالتأليف المنهجي، بعيدًا عن الواقع والحياة، بل كان يشترك الداء يصف الدواء، وكان واقع المسلمين صورة مجسمة بين يديه، ويقارن مع الفرق الإسلامية والمذاهب الفقهية، مستفيدًا في المقارنة من سعة إطلاعه، وأبحر في علم الكلام وأصول الدين، ومعمداً على تخصصه الواسع في الفقه والفقه المقارن، مع الإيجاز في القول، والاختصار في العرض والمناقشة، والاستحواز الكامل على الموضوع، والحكم في مجريات المسائل والأبواب، وكانت شخصية إمام الحريم واضحة وجلية، وقوية ومؤثرة وفريدة ومستقلة، يظهر عليها الاجتهاد والفقه في الدين، والجذور بأحوال المسلمين، لذلك ترك آثراً عميقاً في معاصره ومن جاء بعده، واعتمد على كتابه كل من كتب في الفقه السياسي، لذلك يعتبر كتابه بحق موضوعية يمثل أصالة الفقه السياسي الإسلامي، وبعده عن التبعية والتأثر، وأن أفكار الجوني، وعباراته أحياناً، قد وردت في كتب تلامذته كالغزالي وغيره، وغير
تلامذته من بعده كابن خلدون وابن تيمية وغيرهما، وأنه سبق أصحاب الفكر المعاصر في الدقة والعموم والأصلية الفكرية. (1)

(1) انظر: النظريات السياسية الإسلامية للدكتور ضياء الدين الريس ص 168، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، للمشيخ محمد الخضر حسين ص 43، وغير ذلك من الكتب التي أشار إليها المحققان في مقدمة غياث الأمم، المناوي الكبیر لاين تيمية 27/1444 هـ.
الفصل الحادي عشر

إمام الحركميين وأصول الفقه

تعريف علم أصول الفقه:

عرف الإمام البضاوي علم أصول الفقه بأنه: "معرفة دلائل الفقه إجمالًا، وكيفية الاستفادة منها، وحال المستفيد"، أي هو العلم الذي يكسب صاحبه معرفة بمصادر التشريع الإسلامي، وكيفية الاستفادة منها في استخراج الأحكام الشرعية، واستنباط الأقوال والآراء، ويبين له الدليل الصحيح الراجع عند التعارض الظاهري، ويرشد إلى شرائح الاجتهاد، وطرق الاستدلال، على ضوء الكتاب والسنة ومبادئ اللغة العربية.

كما عرف أكثر العلماء أصول الفقه بأنه: "العلم بالقواعد الكلية التي يتصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدله التفصيلية"، أي هو العلم الذي يضع في يد الباحث القواعد الكلية، والضوابط الصحيحة التي يستطيع المجتهذ بواسطةها أن يعرف الأحكام الشرعية العملية المعروفة بالفقه والأحكام الفقهية، ويفترجها من مصادرها المعتمدة، ليشرد الناس إليها.

وكان البواعث لظهور علم أصول الفقه كثيرة ومتنوعة، وهي بواعث طيبة، وتهدف إلى غايات سامية، ومقاصد نبيلة، نذكر منها:

(1) منهج الوصول، له ص 30.
(2) فواتح الرحمون 14/1، شرح الكوكب المثير 44/1.
1 - حفظ الشريعة الغرراء التي اختارها الله تعالى لتكون آخر الرسائل السماوية، وحذرت الشرائع الإلهية، التي تتكفل الله بحفظها حتى تقوم الساعة، فكان علم أصول الفقه أحد الوسائل الناجحة لحفظ الدين من التحريف والتضليل، فكان أهل الشريعة وحفظ حجّاج الأحكام، وعرف الناس بمصادر التشريع الأصلية التي يجب الالتزام بها والروجع إليها، كما بين المصادر الفرعية والتابعة التي كانت المجال الرحب لاتسع الشريعة وتلبية حاجات الأمة فيما يعترفها من وقائع وأحداث، وكان علم أصول الفقه العقبي الكاددي في وجه المنحرفين والمضللين والمشوعين الذين حاوروا الدس في الأحكام من مصادر باطلة، أو هدم الذين بنى بعض مصادره وأحكامه كإنكار السنة، وتفويج حجية خبر الأحاديث، والتضليل في الدلائل وطرق الاستنباط.

2 - امتثال الأوامر الشرعية التي تدعو المسلمين إلى رعاية القرآن وحفظه وتدبره وفهم معانيه، ونقل القرآن وتبليغه، ورواية الأحاديث الأخبار، ونقلها إلى الناس جميعا، لذلك شمل العلماء عن سواعدهم لتحقيق الأوامر في الأيات والأحاديث وامتثال أحكامها، ووضعها في التطبيق والحياة، ليكون القرآن دستورا أمة، ونظام حياة، للفرد والمجتمع، وتكوين السنة مبناة وشارة للقرآن، ومرشدة للناس.

3 - الجمع بين مدرستي أهل الرأي وأهل الحديث اللتين ظهرتا في القرن الأول الهجري، ونشطنا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، في الاستنباط والتشريع وفهم الدين ونثره، وقوي بينهما النزاع، وبلغ أشد، فكان أهل الحديث في الحجاز يعتمدون على الرواية والآثار، ويدمون النصوص على الفكر والرأي، ويهاجمون أصحاب الرأي بالتوسع فيه، والخروج عن مقاصد النص، لكن شاع في مدرسة الحديث الركود والعجز عن الجدل والمناظرة، والارتباك عند نزول الواقع الجديد، وظهر فيها الضعف في الرد على الخصوم، بينما كانت مدرسة الرأي في العراق تعتمد على الإجهاد وإعمال الفكر والعقل في الاستنباط، وكان أصحابها على
جانب عقلي بارع، وتفكير جدلي واسع، ومقدرة على المناظرة، لكنهم يفتقرون إلى الحديث لقلته، وتشددوا في الرواية والثبت فيها لشيوع الزنقة في العراق، وانتشار الكذب والوضع في الآخرين، واشتد الجدل بين المدرسین، ونشط النقاش العلمي، وعقدت المناظرات، وحاول كل فريق أن يدعم آراءه بالأدلة والحجج والبراهین العقلية والنقلية، وظهرت الحاجة لوضع قواعد في الاجتهاد والاستنباط، وتحديد الضوابط والمناهج التي يجب السير عليها والالتزام بها.

دراسة الاختلاف بين الأئمة والمتجهدين والفقهاء، وأنه يعتمد على أسس موضوعية، ومبادئ علمية، وأنه محدد بضوابط دقيقة، وهو أبعد ما يكون عن التشبيه أو الهوى أو الانتصار لذات أو شخص، وإن الاختلاف أمر طبيعي في جميع العلم والنون، وعند جميع الأشخاص والمذاهب، وأن مبادئ الشريعة تقرر، وأن الفقهاء التزموا النصوص الشرعية، وساروا على المنهج القويم، وإن تاريخ التشريع، وسيرة الأئمة يؤخذ ذلك، فكان الإخلاص رائدهم، والتعدد الله هدفهم، ومرضاة الله تعالى مبتغاهم، وطلب العلم والوصول إلى الحق أسمى أمناهم.

ف جاء علم أصول الفقه يحقق هذه النوايا والبرواز، وصار علمًا شرعياً مهماً، لكنه ليس غاية فيه ذاته، وإنما هو طريق ووسيلة إلى معرفة حكم الله تعالى، فلا يقصد منه الحفظ والتثقيف، وإنما يهدف أن يكون سلاحًا مضاءًا، ومفتاحًا سديداً في يد الباحث والعالم، والفقه والمتجه، ويمكن تعداد فوائده باختصار بما يلي:

1 - إن علم أصول الفقه يرسم للمجتهدين الطريق القويم الموصل إلى استنباط الأحكام، ويضع أمامه منهجًا واضحًا ومستقيماً في كيفية الاستدلا ل.

2 - إن علم أصول الفقه يبين للأمة عامة، ولأتباع الأئمة والمتجهدين، ودارسي الفقه خاصة، المنهج الذي سلكه الإمام المجتهد، ويرسم لهم معالم الطريق الذي سار عليه في الاستنباط، لتمثّل قلوبهم لعلمه، ويزداد ثقفهم بفقهًا.

١٦٣
3 - يكون علم أصول الفقه عند الدارس والباحث ملكة عقلية وفقهية تصحح تفكيره، وتعبد الطريق أمامه للاحتجاد والاستنباط والقياس وتخرج المسائل والأحكام، مع الإدراك الصحيح والفهم النام للنصوص، ثم للحكم على الأشياء في الدعوة والتعليم، والفتوى والقضاء والحكم.

4 - يرسم علم أصول الفقه الطريق للعلماء، في كل عصر، لمعرفة حكم الله تعالى للمسائل المستجدة، والوقائع الحادثة التي لم يرد عليها نص شرعي، ولم يذكرها الأئمة في كتبهم، فيخوض العالم غمار هذه الأحداث، ويعرف ما يتفق منها مع حكم الله تعالى، وما يحقق مقاصده، ويحفظ شريعته، ويقي التشريع مسارعا لتطورات العصر، وموقعا لمصالح الأمة، وصالحا لكل زمان ومكان.

5 - إن علم أصول الفقه يضبط الفروع الفقهية بأصولها التشريعية، ويتبنأس الأحكام، ويجمع المبادئ المشتركة، ويوهر أسباب التباني بينها، ومناط الاستدلال، ومحل النزاع والخلاف.

وقد كان علم أصول الفقه علمًا فريدًا في تاريخ الأمم والتراث القديمة والحديثة، وقد تميزت به الأمة الإسلامية على غيرها في مجال التشريع، وبحاول الآن بعض علماء القانون مجاراة هذا العلم، وإيجاد مثيل له تحت عنوان "أصول القانون" أو "طريق التفسير للنصوص والشرعيات"، مع الفارق الكبير بينها وبين أصول الفقه الإسلامي في الدقة والشمول والوضوعية والتمعّن والأصالة، وتأكد تميز علم أصول الفقه في التشريع العالمي إذا قومن مع مناهج علماء القانون في شرح وفهم وتفسيره، وهو ما يعرف بمدارس التفسير التي ظهرت في العصر الحديث في أوروبا، وهي مدرسة الشرح على المتن التي تعتمد على النصوص، وتفقه عندها، وتحمذ وراءها، وتعرقل سير القانون في التطبيق، والمدرسة التاريخية التي تعتبر القانون وليد الحاجة والبيئة الاجتماعية، يجب تطويره مع تطور الحاجة وتغييره.

(1) انظر تفصيل هذه الموضوعات في كتابنا: أصول الفقه الإسلامي ص 21 وما بعدها.
البيئة، وفتحت المجال للقضاء والشرع للعبث بالقانون وتعديله، والمدرسة الثالثة هي المدرسة العلمية التي أرادت التخلص من إفراط المدرسة الأولى، وتفرز المدرسة الثانية، فلم تهمل إرادة المشروح ولم تتجاوز النصوص، لكنها بحثت عن الإرادة الحقيقية مع الرجوع إلى المصادر الأصلية والمقاصد الرئيسية لاستخلاص الأحكام وتطبيقها على الأحداث.

وكان الإمام الشافعي أول من دون علم أصول الفقه، وكتب فيه رسالته المشهورة التي تعتبر أصل الأصول، قال الرازي: "أعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كسبة أرسلتو إلى علم المنطق، وكتسبة الخليل بن أحمد إلى علم الغرور" (1)، وقال ابن خلدون: "وكان أول من كتب فيه الشافعي" (2).

كانت "الرسالة" للشافعي ذات أثر كبير وعظيم على العلماء، فوجدت بين مدرستي الرأي والحديث، وحققت أهداف علم أصول الفقه، ووضعت المنهج العلمي الموضوعي للاجتهاد والاستنباط، وكانت الموثوق للمتنازعين، والمحبة للمختلفين، وجمعت الشمل، وخففت من أثر الخلاف، وصار كثير من العلماء على نهج الرسالة، يقول الحافظ عبد الرحمن بن مهدي: "لما نظرت "الرسالة" للشافعي أذهلتني، لأنني رأيت كلام رجل فصيح ناصح، فإني لأكثر الدعاء له"، كما كانت الرسالة المنارة الباسقة لدعوة العلماء للتالف والكتابة في أصول الفقه، فشملها عن ساعد الجد، وحرمها المصنفات، وأكملها البناه الذي أرسى أساسه الإمام الشافعي، وزادوا عليه بما يتفق مع المذاهب والآراء، وتعددت طرق التالف.

ولكن لم يصلنا شيء من كتب أصول الفقه التي ألفها العلماء في القرنين الثالث والرابع، وإن أقدم كتاب وصلنا اليوم من أصول الفقه هو كتاب المعتمد لأبي الحسين المعتزلي (540 ه) والبرهان والورقات للإمام الحريمين.

(1) مناقب الشافعي، له ص 56.
(2) مقدمة ابن خلدون، له ص 450.
الجويني (٤٧٨ هـ) والمستصفي للغزالي (٥٠٥ هـ)، وتقويم الأدلة للدبوسي (٤٣٠ هـ).

وبذلك يظهر أن كتب إمام الحرمين الجويني في أصول الفقه، وخاصة البرهان، هي أول كتب أهل السنة في أصول الفقه على طريقة المتكلمين، بعد كتاب الرسالة، ويكون البرهان، أول كتاب يتلوها في تاريخ علم الأصول (١)، ولذلك نبئ موضوعات علم أصول الفقه، ثم نتناول كتب الجويني بالدراسة.

موضوعات علم أصول الفقه:

يظهر من تعريف علم أصول الفقه، وبوعظ وضعه، والفوائد التي يحققها أن موضوعه يتناول النقاط التالية (٢):

١ - أدلة الأحكام الشرعية، وهي مصادر التشريع الإسلامي الذي يستقي منها المسلم حكم الله تعالى، وهذه الأدلة قسمان، قسم متفق عليه بين أهل السنة والجماعة، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقسم مختلف فيه، كالاستدلال والاستحسان والمصالح المرسلة والغرف وذهب الصحابي وشرع من قبلنا والاستصحاب، وكل مذهب أخذ بعض هذه المصادر، وترك الباقٍ.

٢ - الأحكام الشرعية الكلية، التكليفية كالإيجاب والندب والكراءة والحرمة والإباحة، والوضعية كالسبب والشرط والمنع والرخصة والعزيمة والصحة والفساد.

٣ - التعارض والترجيح بين الأدلة والمصدر.

٤ - قواعد الاستنباط والاستدلال من الكتاب والسنة، وتسمى الدلائل، أو مباحث الكتاب والسنة.

(١) انظر: مقدمة البرهان ٥٣/١، وقول ابن حذافة في مقدمته ص ٤٥٥: وكان من أحسن ما كتب فيه المتكلمون كتاب البرهان لإمام الحرمين.

(٢) انظر كتابنا: أصول الفقه الإسلامي ص ١٨.
6- الإجتهاد وشروط المجتهد وصفاته، وما يقابله من التقليد والمقلدين.

وأضاف ابن خلدون إلى موضوعات أصول الفقه موضوعين جديدين، ثم صارا علماً كاملاً، وهما:

1- علم الخلفاء الذي يتعلق بالأدلة والأصول التي يأخذ منها الأئمة أحكامه، ويعتبر على القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ المسائل المستنفدة من أن يهمها المخالف بأدله، وهو علم جليل الفائدة في معرفة مآخذ الأئمة وأدلةهم.(1)

2- علم الجدل، وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم.

واعتبر كثير من العلماء هذين العلمين مكملين لعلم أصول الفقه، وأنهما لم يظهرا إلا بعد انتشار المذاهب واستقرار الاعتماد عليها والأخذ بها.(2)

وقد كتب إمام الحرميين الجويني عدة كتب ومؤلفات في هذه العلوم الثلاثة: علم أصول الفقه، وما تبعه من علم الخلاف، وعلم الجدل، وسننعلم مؤلفاته وأثاره في كل قسم.

كتب إمام الحرميين في أصول الفقه:

صنف إمام الحرميين الجويني عدة مصنفات في أصول الفقه، بعضها عام يشمل جميع موضوعات أصول الفقه كالبحار والورقات والإرشاد والتحفة، وبعضها خاص في بعض موضوعاته مثل كتب المجتهدين، ورسالة في التقليد والاجتهاد، ويشير أن الجويني كتب هذه الكتب على مستويات

(1) انظر: مقدمة ابن خلدون ص 59.
(2) انظر: مقدمة ابن خلدون ص 57، الإمام الماردي ص 37، مفتاح السعادة 2/559.
مختلفة فبعضها مختص كتب للمبتدئين كالورقات والإرشادات وبعضها موسَّع
جمع في شنات العلم للمختصين كالبرهان.

وهذه الكتب٦ قسمان، قسم وصلنا، بل وتم طبعه ونشره والاستفادة
 منه، ويشمل الورقات والبرهان وكتاب المجتهدين، والقسم الثاني لم يطبع،
 وهذه فكرة عن كل كتاب.

١- الإرشاد في أصول الفقه، وهذا الكتاب يدور حوله شك كثير٥ وراء
 متعددة في كونه للجويني أم للإبلاقلاني الذي ألف كتابًا في الأصول بنفس
 العنوان، وهو كتاب كبير، وقد اختصره الإبلاقلاني نفسه، ولعل الجويني قد
 اختصره أيضاً، كما يشتبه هذا الكتاب مع كتاب الجويني الإرشاد في أصول
 الدين، ولا يعرف هل هذا كتاب واحد؟ أم اثنان؟ كما يشتبه هذا الكتاب مع
 كتاب آخر نسب للجويني وهو التلخيص في أصول الفقه، وقد سبق لنا عرض
 كتابه التلخيص في أصول الدين، ولا يعرف للكتاب وجود في المكتبات
 والمخطوطات ليبث في الأمر.

٢- رسالة في التقليد والاجتهاد، وهذه الرسالة تتناول أحد موضوعات
 أصول الفقه، خلافاً لمن نوهمها أنها في الفقه، ويوجد من هذه الرسالة
 نسختان خطيتان، الأولى بالمكتبة الأصفيه بعيده آباد الدين، ضمن مجموعة
 رسائل رقم ١٧٢٠، والثانية بمكتبة باتنا برقم ٣٩١٦٦.

٣- التحفة، وهي كتاب في أصول الفقه، ذكره ابن السبكي في
 الطبقات الوسطى، ولم يرد لهذا الكتاب ذكر في المخطوطات
 والمطبوعات.

٤- كتاب المجتهدين، وهو كتاب مستقل، أو لعله جزء من «التلخيص

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى٥/١٧١، الكافية في الجدل ص١٦، الجويني
 ص٣٢، ولم يذكر ابن السبكي هذا الكتاب في مصنفات الجويني.

(2) انظر: الكافية في الجدل ص١٤، الجويني ص٩٢.

(3) انظر: طبقات الشافعية الكبرى٥/١٧٢/٦٦٨.
في أصول الفقه، والراجح أن تتمة وتكملة لكتاب "البرهان في أصول الفقه" ويوجد منه عدة نسخ خفية، وجاء مكملاً لنسخة "البرهان" الخفية في تركيا، وصرّح الجويني أثناء ترتيب البرهان أنه سيذكر أوصاف المجتمدين بعد باب النسخ، وقد انتهى كتاب البرهان بالنسخ، وجاء في الجزء المستقل عن الاجتهاد أنه تتمة لهذا المجموع (1)، وقد قام محقق كتاب البرهان بنشر كتاب المجتمدين كملحق وتتمة للبرهان، وحسبًا فعل (2).

5 - الورقات في الأصول: وهي عبارة عن تسعة ورقات تشمل جميع أبواب الأصول بإيجاز واختصار، وقد تولاها العلماء في القديم والحديث، ومن مختلف البلدان، بالشرح والبيان حتى زادت الشروح عن خمسة عشر شرحًا، وأهمها شرح العلامة جلال الدين المحلي الشافعي المتوفى سنة 624 هـ، وقد كتب عليه عدة حواريات وتعليقات أيضًا، وقد انتشرت هذه الورقات انتشارًا واسعًا في الماضي والحاضر، واعتمد عليها العلماء، ورجع إليها الطلاب والمصنفون في مختلف العصور، ونجد الإشارة إليها كثيرًا في كتب الأصول، ونظمها العمري الشافعي.

ويوجد لهذا الكتاب نسخ كثيرة مخطوطة، كما يوجد نسخ مخطوطة متعددة لشروحه وحواشيه وتعليقاته، كما طبعت الورقات طبعات عديدة ومتداولة، مستقلة أحيانًا، ومقتربة بالشرح أو الحواري أحيانًا أخرى (3)، فمن ذلك طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثالثة 1374 هـ/1955 م بعنوان: الورقات في أصول الفقه، وعليه شرح العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلي الشافعي، وحاشية المحقق الشيخ أحمد بن محمد الدبياطي الشافعي (1117 هـ)، والجميع في 24 صفحة من القطع الكبير، ومنها

(1) انظر: البرهان 1/102، الجويني ص 44، الكافية ص 15، فهرس المخطوطة المصنورة 2/1343/1366.
(2) البرهان 2/1374.
(3) انظر: طبقات الشافعية للأستاذ 2/1388، الكافية ص 21، الجويني ص 35، كشف الطفون 2/2/2447، فهرس مخطوطة دار الكتب المصرية 240/2.
حاشية الشيخ أحمد بن قاسم العبادي الشافعي (1992 هـ) على شرح المحلى
على الورقات في الأصول، مطبوعة على هامش إرشاد الفحول للشوكاني
بمطبعة مفصلة البائي الحلمي بمصر 1356 هـ/1937 م، ومنها التمرات
على الورقات، وهي تعليقات على الورقات وعلى شرحها للمحلي تأليف
الاستاذ خضر محمد اللجمي مدرس التربية الإسلامية، مطبعة الدباغ بحماه ـ
سورية 1390 هـ/1970 م، وتقع في 46 صفحة من الحجم العادي.

يقول المحلي: «هذه ورقات قليلة، تشتمل على معرفة فصول من
أصول الفقه يبتعد بها المبتدئ وغيره»(1)، ويقول خضر اللجمي: «وجدت
فيه كتاباً جديداً بالدراسة مليئة بالعلم النافع، بأسلوب مختصر مفيد، يفيد منه
المبتدئ، كما يفيد منه العالم المتمكن، جمع هذا الكتاب بين الاختصار
والشمول، فهو مختصر يطالبه المتعلمون بسرعة، لكنه شامل لأغلب أبحاث
الأصول، يبحث المؤلف بالأسلوب الشيق المميز بالإضافة إلى العلم الغزير،
يجد العالم فيه مبتعه، ويجد المبتدئ فيه مطلب له، يعطيك النتائج الصحيحة
من دون أن يمر بك على الآراء المتعارضة، فلا يشغله ذهن القارئ
بالمناقشة الممالة، ولا يلهيه بالمعارضات المخللة»(2).

وتتضمن الورقات مقدمات عن تعريف الأصل والفرع والفقه والعلم
والنظر والدليل والاستدلال، والمراد بأصول الفقه والأبواب الداخلية فيه، ثم
يبحث عن الدلالات في الأمر والنهي، والحقيقة والمجاز، والأعمال والأعمال،
والملحق والمهم، وأدوات التخصص، والمجمال والنص، وأفعال النبي
وإقراره، ثم يعرض فصلاً في النسخ، آخر في التعارض، والإجماع والسنة
وأنواع الأخبار، والقياس، والحظر والإباحة والاستصحاب، وشروط المفتي
والمستشاري والاجتهاد، ويختتم الجويني الورقات بجواز الاجتهاد، واحتمال
الخطأ عن بث الثواب، بدليل الحديث الصحيح في البخاري ومسلم، وهذا

(1) الورقات في أصول الفقه ص 2 طبعة الحلمي.
(2) التمرات على الورقات ص 3.

170
لفظ البحاري: "إذا اجتهد الحاكم فحكم فاصاب فله أجران، وإذا حكم فاختطاً له أجره.

6- البرهان في أصول الفقه: وهو أهم كتاب في أصول الفقه للجودي، وهو من أوائل كتب الأصول كما ذكرتي، وأول كتاب وصلنا بعد الرسالة على أسلوب المتكلمين من أهل السنة والجماعة، لكنه بأسلوب خاص، وشخصية مستقلة، ومنهج ذاتي.

يقول ابن السبكى: "علم أن هذا الكتاب وضعه الإمام في أصول الفقه على أسلوب غريب، لم يقتدي فيه بأحد، وإن أسسٌه نغز الأمة، لما فيه من مصاعب الأمور، وأنه لا يخلي مسألة عن إشكال، ولا يخرج إلا عن اختيار بخزره لنفسه، وتحقيقات سبده بها" (1).

وأسلوب الكتاب يتفق تماماً بأسلوب الجودي في الدقة والرصانة، والفصاحة والبلاغة، واختيار الألفاظ، وانتقاء العبارة، "فسري عذوبة العبارة، وقوة الاستدلال، وبراعة الجواب، فكانت النفس تتوق للهاء، وتتمنى أن تكتمل العين بمرآة" (2)، ويقول الشيخ عبد الرحمن الخضري فيه: "وقد وقفت على بعض عبارات من هذا الكتاب في حواشي جمع الجوامع فإذا هي كالمشهد المستطاب، ولهذا كانت أشواقي تهيج لرؤيته، ونواطرى متوقبة لبغي طلعته، حتى عثرت عليه" (3).

وكان كتاب البرهان للجودي مع كتاب تلميذه الغزالي "المستصفي" كتاباً لعدم الجبار المعتزلي، والمعتمد شرح العهد، لأبي الحسن البصري المعتزلي هي الكتب الأساسية في علم أصول الفقه، والتي تعتبر قواعد هذا الفن وأركانه، وكل من جاء بعده أخذ عنها، واعتمد عليها، ولخص منهم، وجمع بينهم كفخر الدين الرازي في كتابه "المحمول"، وسيف

(1) طبقات الشافعية الكبرى 192/5.
(2) البرهان، مقدمة الأنصاري ص 8.
(3) البرهان، مقدمة الخضري ص 81.

171
الدين الآمني في كتاب "الإحكام في أصول الأحكام"، وعن هذين الكتابين الأخيرين شاع علم أصول الفقه وانتشر مع المختصرات الكثيرة لهما، والشرح المتعدد عليهما، كالمشهور للبيضاوي، وشرحه نهاية السول للإنسنى، والتقليح للقرافي وشرحه للقرافي نفسه، ومعتصر ابن الحاجب عن إحكام الآمني، ثم اختصر ابن الحاجب نفسه المختصر، وتداول بين الناس وعليه شروح العضد وغيره(1).

ومن ميزات كتاب البرهان أنه حفظ الآراء الأصولية وأسماء كتب الأصول قبل لمجاعة من كبار العلماء، الذين ضاعت كتبهم، ولم يصلنا منها شيء، مثل آراء الفاضي الباقلاني في كتبه والإرشاد والتقويب، والأصول الكبير، والأصول الصغير، والمقنع في أصول الفقه، ومسائل أصولية، ومثل آراء ابن فورك الشافعي المشهور في "مجموعاته" وآراء الإمام أبي الحسن الأشعري في كتابه "أجوبة المسائل البصرية" وآراء الفاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه "شرح العمدة"، وكتاب "الأبواب" للأب هاشم الجبائي المعتزلي، وغيرهم، وصياغتها بأسلوبه المحكم ليكون أستاذًا للأجيال بعده(2).

وقد أكتب العلماء على كتاب "البرهان" ورجعوا إليه، واقتبسوا أفكاره وآراءه وعباراته وجماله، وتشابهوا به، وكان أولهم حجة الإسلام الإمام الغزالي تلميذ الجويني، كما سئروا في شروح البرهان.

لكن كتاب البرهان لم ينتشر بين أبناء الطلاب والعلماء كما انتشر غيره من كتب الأصول الأخرى وذلك لعدة أسباب، منها مخالفة الجويني للأشعري والباقلاني والإمام مالك في عدة مواضع، وفسوة مناقشته لهم، وانشغال الناس بكتب الجويني الأخرى في الفقه وأصول الدين، وصعوبة كتاب البرهان في لغته ودقة أسلوبه، والانشغال بكتب الغزالي الأصولية، وهو

(1) انظر: كتابنا أصول الفقه الإسلامي ص 50، مقدمة ابن خلدون ص 455، رجال الفكر والدعوة، الندري ص 178.
(2) انظر: البرهان، مقدمة المحقق ص 52، 56.

172
تلخيصه الناجح، مع الاعتماد على شروح البرهان ومختصراتها(1).

مخطوطة البرهان ونشرها:
فَيَضَّ الله تعالى لهذا الكتب العظيم العناية الآلهية لحفظه من عوادي الدهر، وإنقاده من حوادث الأيام، ونكبات الزمن التي حلت على الأمة الإسلامية، ودمرت كثيرًا من تراشها وحضارتها وثمرات علمائها، وكان العلماء في العصور الأخيرة ينشؤون إلى هذا الكتاب، يحلمون بالعثور عليه، ويبتهلون إلى الله تعالى لرؤيته، وحقق الله تعالى الأماني والآمال، ووصلت إليينا عدة نسخ مخطوطة بمقتبس دمياط في شمال مصر، وفي دار الكتب المصرية بالكاهرة، وفي مكتبة أحمد الثالث بتركيا في إسطنبول، وفي مكتبة الأزهر بالكاهرة، وتوجد نسخ خطية لشروحه أيضاً.

وهي الله تعالى لهذا الكتاب العظيم عالماً شاباً، وبخاصة نشيطاً، وهو الدكتور عبد العظيم الديب الذي جمع مخطوطة هذا الكتاب، وسجلها ليل رسالة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية في كلية العلوم بجامعة القاهرة، وأمضى في خدمته الكتاب سبع سنوات كاملة، وحققه وقدمه وضع فهارسه، وحصل به على شهادة الدكتوراه، ثم أُعيد المحقق إلى جامعة قطر، فعملت إدارة الشؤون الدينية بدولة قطر بهذا السفر الخالد والعمل الجبار، فسعت إلى طبعه ونشره إحياءً لتراث الأمة، وإثراء لفكر الأجال، فطبع الكتاب على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر، فظهر الكتاب بحالة شفية، وطبعه أنيقة، وحلته به الحياة بعد أن وصلت المخطوطات إلى الرمق الأخير، وانتشار الكتاب في رثي باراد الإسلام، وسرت أخباره بين المسلمين، وتفقه العلماء والمختصون، وعادت أنفاس إمام الحرمين الجويني بعطرها وشذها، وقويتها وعزمتها، وهبها وتواضعها، ليكون هذا الكتاب أحد البراهين والأدلة - وهي بالملايين - على ما وصلته أمتنا من رقي وحضارة، وتفوق في العلم، وسعة أفكار فكري لامع.

(1) انظر: البرهان، مقدمة المحقق ص 44 وما بعدها.

173
ويقع الكتاب المطبوع في 1466 صفحة، منها مقدمة للتحقيق في 82 صفحة، وأصل الكتاب في 1284 صفحة، ثم الفهارس في 100 صفحة.

شرح البرهان:

يعتبر البرهان أصلًا لكتاب الأصول، فاتجه العلماء إلى شرحه وإيضاحه، وخاصة لتحليل عباراته وجمله وأرائه وأفكاره، وأشهر شروح البرهان التي عرفت قديمًا ووصلت مخطوطاتها إلى هذا الزمن ثلاثة شروح، وهي:

1. إيضاح المحصول من برهان الأصول، للفقيه المالكي محمد بن علي بن عمر، أبو عبد الله التميمي المازري، المحدث، الطبيب، الأديب، الأصولي، كان إمام المالكية في عصره، وكان أزكيه المغربية قريبة، وألحقهم ذهناً، توفي سنة 530 هـ، شرح البرهان لكنه لم يتمه، وتحامل أحياناً على إمام الحركين الجويني في الشرح بسبب مخالفة الجويني في آرائه لأبي بكر الباقلازي في بعض مسائل علم الكلام، وبعض مسائل علم أصول الفقه، وسبب مخالفة الجويني للإمام مالك وتضبيع مذهبه في المصالح المرسلة وبعض الأقوال الفقهية(1).

2. التحقيق والبيان في شرح البرهان، لعلي بن إسماعيل بن علي بن عطية، الأباري، شمس الدين الصنهاجي التلخشي أبو الحسن، الفقيه المالكي، والأصولي المحدث، المتوفى سنة 618 هـ، وكثيراً ما يصحف اسمه وكتاب الأباري.

ويوجد من هذا الشرح الجزء الأول من نسخة كتب سنة 614 هـ بخط مغربي نفيس، في مكتبة مراد ملا برقم 170، وله مصور بالميكروفيلم، بجامعة الدولة العربية.

ويقوم هذا الشرح على اختيار عبارات من البرهان يراها محتاجة إلى

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 144/5، 194/2، الفهارس في طبقات الأصوليين 22/2، شرح الكوكب المنير 145/2.

174
الشرح أو التعليق، وقد يحتوي بجملة من أول العبارة ثم يقول إلى قوله كما، وكان يقرب على إمام الحرمين ويختلف ويرد أراوه.

٣ - كفاحية طالب البيان شرح البرهان، تأليف الشريف الحسني أبو يحيى زكريا بن يحيي المغربي المالكي، وقد جمع هذا الشرح بين الشرحين السابقين وعاد عليهما، ووجد لهذا الشرح نسختان مخطوتتان، الأولى بمكتبة فاس برقم ١٣٩٧، والثانية بمكتبة بولندا برقم ٠٧٠٨.

ويقول السبكي: «وهؤلاء كلهم عندهم بعض تحال على الإمام» ويعجب السبكي من إقامة علماء المالكة على شرح البرهان، ويحجم عنه علماء الشافعية، يقول: «وهذا الكتاب من مفتخرات الشافعية، وأن أعبج عليه، فليس منهم من انتدب لشرحه، ولا للكلام عليه إلا مواضع يسره تكلم عليها أبو المظفر بن السمعاني (٤٧٢ هـ) في كتاب القواطع، وردّها على الإمام، وإنما انتدب له المالكة».

٤ - وضاعف إلى هذه الشروح كتاب «المنخول» لحجة الإسلام محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥ هـ) تلميذ إمام الحرميين الجويني، الذي اقتبس كتابه «المنخول» من تعلقات وكتاب الجويني، ويقول الغزالي: «وهو تمام المنخول من تعليق الأصول... والاقتصاد على ما ذكره إمام الحرميين رحمه الله في تعلقته، من غير تبديل وتزيد في المعنى وتعليق».

منهج إمام الحرمين في البرهان:

يعتبر البرهان من أوائل كتب أصول الفقه التي كتبها على طريق المتكلمين أو الشافعية، وتمتاز هذه الطريق بأنها تحتق قواعد هذا العلم.

(١) انظر: فهرس المخطوطات المصورة ٢٤٤/١، الجزء الثاني/٢٣، شجرة النور ص ١٣٦، البرهان ٧١/١.
(٢) انظر: الكافية في الجدل ص ١٤، الجويني ص ٢٢، المنخول ص ٨.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٩٣/٥.
(٤) المنخول من تعليقات الأصول ص ٥٠٤، وانظر: غيات الأمام ص ١٦ من المقدمة.
تحقيقاً منطقياً نظرياً، وتقرر القواعد الأصولية وتنقحها، وتبنت ما أبدع الدليل العقلي والنقلي، وتنظر إلى الحقائق المجردة دون الافتراضات إلى محاولة التوفيق بين القواعد وبين الفروع التي سبق للآئمة استباطتها، فما أبدع العقل وقام عليه الدليل فهو الأصل والقاعدة سواء وافق الفروع المذهبية أم خالفها، وسواء وافق الأصل الذي وصل إليه الإمام المجتهد أم لا، لذلك يصرّح الجوهري فيقول: «على أنا في مسائل الأصول لا نلتزم إلى مسائل الفقه»، فالفرع يصحح علي الأصل لا على الفرع (١)، ويكثر في هذه الطريقة أسلوب الفنلقية، أي: «فإن قلت كذا، فإننا كذا» على طريقة المحاورة في علم الكلام، لكن هذه الطريقة تصرف في الأمور النظرية والعقلية التي يندر أو يستحيل وقوعها علناً أو شرعاً، وتتعرض لبعض بحوث العقيدة وعلم الكلام، ويقل فيها الربط بين الأصول وبين الأحكام الفقهية، خلافاً لطريقة الحنفية أو طريقة الفقهاء، ويوضح إمام الحرميين منهجه في كتابه البرهان في المقدمة، وفي مواضع متفرقة، على الأسس التالية:

١ - تحديد الهدف المطلوب، وبعبارة أخرى: تحديد محل النزاع والخلاف، وتحرير المقصود وتخليصه، عن طريق التقسيم والترتيب والتبويل.

٢ - تحديد معاني الألفاظ والمصطلحات التي سيعبرها في المناقشة والجدال.

٣ - عرض آراء المخالفين في الأصول والقواعد، وبيان أدلةهم، ثم مناقشتها واختيار الأحق منها.

٤ - الاجتهاد الحر، وعدم التعصب لمذهب أو رأي، والتحرر من كل فكرة سابقة قبل البحث، ولذلك نراه يصل إلى نتائج تختلف الإمام الشافعي، أو الإمام أبا بكر الباقلاوي أو الإمام أبا الحسن الأشعري (٢).

(١) البرهان ١٣٣٣/٢، وانظر: كتاباً: أصول الفقه الإسلامي ص ٤٨.
(٢) انظر فهرس البرهان ١٤٤٣/٢ وما بعدها.
6 - رعاية الأصول والقواعد المقننة، وعدم الانخراط بالجزئيات.
7 - التنبؤ واليقظة لأسباب الزلل في البحوث والمسائل.
8 - إعطاء القرائن حفها في الاعتبار عند مناقشة المسائل وتأصيل الأصول (١).

ومن هنا المنهج الذي اختطه الإمام الحريم لنفسه، وصرّح به، وصار عليه، والتزم به، يسمح بالقول إن البرهان ألف على طريقة جديدة، ومنهج جديد، ويؤكد ذلك ابن السبكي فيقول: "إذا كانت الرسالة الشافعية رضي الله عنه وأرضاه تعتبر أصل الأصول، ومفتتح هذا العلم ومبدأه، فإن كتاب البرهان فيما نرى ونعلم أول كتاب يتناول في تاريخ علم الأصول، وهو معلم من معالم الفكر الإسلامي (٢).

مضمون كتاب البرهان:

يتكون كتاب البرهان من جزئين وملحق، وتتضمن الأقسام الثلاثة

(١) انظر: طبقات الشافعية الكبرى ١٩٢/٥.
(٢) انظر مقدمة البرهان ١٩٢/٥٧ مع التصرف، ومقدمة الجيني نفسه في البرهان ١٩٢/٧٣.
(٣) طبقات الشافعية الكبرى ١٩٢/٥.
(٤) مقدمة البرهان ١٩٢/٦٤، ٥٤.
مواضيععلم أصول الفقه، وهي المقدمات، والبيان أو الدلالات، ومصادر التشريع أو الأدلة الشرعية، والأحكام الشرعية، والتعارض والترجيح، وفي الملحق الإجتهاد والعقل، والمرجع، ويلاحظ أن الجويني رحمه الله جمع في قسم البيان بين الدلالات وقواعد الاستنباط المتعلقة بالنصوص، وبين الحديث عن مصدر هذه النصوص، وهما القرآن الكريم والسنة وما يتعلق بها من أخبار، كما يلاحظ أن مصادر التشريع التبعية أو المختلف فيها لم تذكر مرتبة، وفي مكان واحد، وإنما جاءت متفرقة، ففي قسم البيان والтелقات عرض لشرع من قبلنا، وبعد الانتهاء من القياس ذكر استصحاب الحال.

بدأ الإمام الحريم الجويني كتابه البرهان بمقدمات عن نهجه ثم عن المصادر التي يستند منها علم أصول الفقه وهي علم الكلام وما فيه من معرفة العالم، والعلم بمحيطه، والنحوات، والفرق بين العلم وما عداه من الاعتقادات، والبراهين ومسائل النظير، وعلم الفقه لفظاً وأسبوبياً، وعلم الفقه كنتيجة لعمل الأصولي، ويكفي الأصولي بذكر أمثلة من الفقه في كل باب من الأصول، ثم عرف الفقه، وأصول الفقه، ثم عرف الأحكام الشرعية (ص 89)، ثم تعرض لمسألة الحسن والقبح، وناشر المعتزلة وردٍ عليهم، وأنه «لا يحق شيء في حكم الله تعالى لعينه، كما لا يحسن شيء لعينه في الأمر الحسن هو ما حسن الشرع وأقره وأمر به، والقبح ما قبِّح الشرع ونهي عنه، وبين فساده، ويتربث الثواب على فعل الحسن بنظر الشرع، وأن العقاب على ارتكاب ما قبِّح الشرع، ثم ذكر مسألة وجوب شكر المنعم بأدلة الشرع (1/94)، وليس بمقتضى العقل كما يقول المعتزلة وردٍ عليهم، مقرراً أنه «لا حكم للعقلاء قبل ورود الشرع» (1/95/1)، وهذا الحكم نتيجة للمسائلين السابقتين، ثم عقد فصلاً في التكليف، فرعه بأنه «الإمام ما فيه كلفة» (1/101)، وأنه لا يقع التكليف بالمستحلِّ، ورد على الشيخ أبي الحسن الأشعري في قوله بتكليف ما لا يطلق، ثم قال: «فالقول الوحيد أنه يكلف المتمكن، ويعيق التكليف بالممكن» (1/105/1)، وذكر من يكلف ومن لا يكلف وضرب أمثلة عن السكان والمعرَّك وغيرها، ثم فصل القول في العلوم ومداركها وأداتها (1/111)، فبدأ تعريف العقل
بأنه "صفة إذا ثبت تأثٰى بها التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات" (113/11)، وصرّح أن هذا الكلام مختصر، وهذا الموضع لا يحتل أكثر من هذا عن العقل ومداركه، وقد ألّف كتابًا فيما بعد "مكار العقول" ولم ينته، ثم انتقل إلى تعريف العلم (115/1)، ومكار العقول (124/1) وذكر آراء الفلاسفة والمذاهب والفرق وقول الأصحاب فيها بمراتبها العشرة من الحواس وغيرها، مبينًا رأيه في فساد الترتيب، وأن "العلوم في نفسها إذا حصلت على حقيقتها، فستحمل اعتقاد ترتيبها" (132/1)، وختتم هذه المقدمات بفصل جملًا، وهو "فمما يدرك بالعقل لا غير، وفيما يدرك بالسمع لا غير، وفيما يجوز فرض إدراكه بهما" (136/1)، وأن العقل "لا يجوز في كل شيء، بل يقف في أشياء، وينفذ في أشياء، ويضع معيارًا لذلك وهو: "فإن كل ما يتجه فيه تقسيم مبسط، وينقلع تقسيم أنتمهما فهو الذي يتطرق العقل إليه، وما لا ينصب فيه التقسيم، أين تناول، ولا ينتهي العقل مع الفكر الطويل إلى تعيين أشياء، فهو من محاولات العقل" (140/1) مع وجوه "أن يفصل بين موقف العقل، وبين تبلده وقصوره لفرض عواقب تعوقه" (141/1)، وينتهي إلى نتيجة هذه المقدمات المتصلة بموضوع أصول الفقه، وهي مكار العقول في الدين، وأنها ثلاثة: العقول، والمعجزات، والأدلة السمعية وهي الكتاب والسنة والإجماع (146/1)، وأضاف بعض العلماء خبر الآحاد والقياس، ويبين الجعفي رأيه أن "أصل السمعيات كلام الله تعالى، وما عده طريق نقله أو مستند إليه" (154/1) وأن خبر الآحاد أو القياس لا يستقل بنفسه، بل يرجع لما سبق.

وانقل إمام الحرمين إلى موضوعات الكتاب الرئيسية، في "الكتاب الأول العقول في البيان"، وعرضه في عدة أبواب وفصوص ومسائل، وكلها تدور عن "الكتاب والسنة" كمسدرين للتشريع والأحكام، مع طريقة استخراج الأحكام الشرعية واستنباطها منه، وتسنى الدلالات أي دلالة اللفظ على معناه، وفهم الحكم منه، ونقل قول الشافعي عن البيان من "الرسالة" ومراتب البيان، وتعريفه، ثم قال: "والقول الحق عندي: أن البيان هو الدليل"، وذكر
مسألة «أن البيان لا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة» (126/1/1)، ثم خاص في قواعد الديالات والاستنباط برجمة أصولية متعمقة ودقيقة، معتمداً على أصول العربية وفقه اللغة واستعمال الألفاظ والحرف، فذكر مسائل الأمر (199/1)، والمقيد والمقيد (124/1) والقول في النهي (283/1/1)، واستطرد في مجال الأمر والنهي إلى متعلق الأمر والنهي، وهو الأحكام الشرعية، فذكر فصلاً عنها (130/8/1)، فعَرف الواجب والندوب والجرائم والمكروه والمحبب، ثم عاد إلى العموم والخصوص (1318/1) مبينًا أقسام الألفاظ من حيث الوضوح وغيره إلى النص والظاهر والمجمول، ثم ذكر فصلاً في بقية أحكام الصيغ المطلقة (1359/1)، وفصلًا في الصيغ المقددة بالقرائن الحالية واللغزية، وما يرد عليها من تخصص (1372/1) كالأوقال والاستثناء، وأسهم الكلام فيما يخصه عموم الكتاب والسنة (1421/1/1)، وبدأ أولاء الأعضاء عن تخصص الكتاب بالسنة، ثم بين رأيه (1427/1/1).

والذي نختاره: القطع بخصوص الكتاب بخبر الآحاد (1427/1/1)، ثم انتقل إلى فصل «القول في المفهوم» (1448/1) مبينًا أن دلالة المفهوم تكون إذا بالمنطوق المصرح به، وإما بالمفهوم المسكر عنه، والقول في أنفع الرسول، والتعلق بشرائع الماضين، وصول إلى باب التأويل (151/1/1) ثم يعود للحديث عن ترتيب كتابه، والكلام عن الأخبار (1524/1/1) وتقصيماتها، ويتحدث عن شروط الخبر المتواتر، وخبر الآحاد، وما يفده من وحجه العمل، والروایة والرواية وصفاتهم، والجرح والتعديل، والتحمل والأداء.

وفي الكتاب الثاني يبحث الإجماع بتفصيل وإسهام (1670/1/1-275)، وصُبّره بثلاث مسائل، الأولى في تصور وقوع الإجماع، وأنه ممكن الوقوع، لكنه ليس بهين، والثانية في كونه جهزة إذا أذقنه، ويراه جهزة مع الرد على نفاة الإجماع، والثالثة في مسألة ثبوت الإجماع، ويرى الجروني أن الإجماع لا يمكن إلا أن يكون مستندًا لدليل سمعي قاطع، ثم يقسم الكلام على الإجماع في أربعة فنون، الأول في عدد المجموع وصفاتهم، وأن العدد فيه خلاف، ويرى إمكان الإجماع بعدد ينحث عن عدد التواتر لكنه لا
يبقى حجة في هذه الحالة في نظره، وأما صفات المجمعين فهي صفات المفتين يضع معياراً لذلك يقول: «إنه لا قول لمن لم يبلغ مبلغ المجتهدين» (1/672)، «والقول الضابط في كل ما لم نذكره: أن كل ما لا يعتبر عند المفتين، فهو غير معترف في المجمعين» (1/689)، وأنه لا اعتبار برأي العوام، والفن الثاني في الزمان المعتبر في الإجماع، ففرض رأي الفاضل الباقلاني والاستاذ أبي إسحاق الأسفرازي، ومذاهب العلماء في اشتراط افتراض المجمعين في انعقاد الإجماع، وعدم اشتراطه، وناقش هذه الأحوال والمذاهب، ثم بين رأيه مفصلًا بين الإجماع المقطع به، وبين الإجماع المستند على الظن، فأولئك تقوم الحجة به على الفور من غير انتظار واستنكار، والثاني لا يتم الإجماع ولا يبرم ما لم يتجاوز الزمن، (1/496)، والفن الثالث في أنواع الإجماع القولي والسكوتي، وعرض مذهب الإمام الشافعي في اعتبار الإجماع القولي دون السكوت، ومذهب أبي حنيفة في اعتبار النوعين، ثم اختيار رأي الشافعي في عدم اعتبار الإجماع السكوت، لأنه لا ينسب إلى ساكت قول وناقش أهل الإمام أبي حنيفة، مبناً الاحتمالات والصور حالة السكوت، وتطرق هنا لمسألة أصولية هي: إذا اختفى الصحابة على قولين فهو إجماع على عدم جواز قول ثالث عند معظم المحققين خلافًا لشريعة، وإن رفع المنتمكون بأحد القولين إلى القول الآخر، وطبقوا عليه هذا إجماع عند معظم الأصوليين خلافًا للفاضل الباقلاني، وتبين الفوزي رأيه بالجمع بين الرأيين، فإن قرب عهد المختلفين ثم اتفقوا فهو إجماع، وإن طال وتمдает فلا إجماع لحصول الوقع الضمني على وقوع الخلاف، وأنه سائح، ثم بين أن هذه المسألة لا تقع في مستقر العادة «إذا الخلاف إذا رسيخ وتناهى وتمدى الباحثون»، فَلا يقع في العرف دروس مذهب طال الذهب عنه (1/713)، والفن الرابع في الأمر الذي ينعقد الإجماع فيه، وهو السمعيات، ولا أثر للفوق في المعقولات، وتختم الفوزي كتاب الإجماع بمسائل متفرقة في الإجماع، بالإجماع في الأمثل السائلة، وإجماع أهل المدينة عند الإمام مالك، وأن إجماع التابعين كإجماع الصحابة ردًا على من حصر الإجماع بالصحاب، وأنه لا ينعقد 181
الاجتماع مع مخالفة مجتهد واحد يعتبر في الإجماع وخلافاً لأبين جرير الطبري، تم ذكر مسألة متفرقة عن اشتعاط انقراض المجتهدين، وفي آخر مسألة قال: «فشا في لسان الفقهاء أن خارج الإجماع يكفر، وهذا باطل باتفاق، فإن من ينكذ أصل الإجماع لا يكفر، والقول بالتكفير والترؤ ليس بالهين، وناه فيه مجموع الهموم طالبه (٧٢٤/١)». وبذلك انتهى الجزء الأول من البرهان من خاتمة لنسخة الشيخ العطار، وخارطة لنسخة الشيخ الخضري، وفهرس مختصر لموضوعات هذا الجزء.

يبدأ الجزء الثاني من «البرهان» بالكتاب الثالث، وهو كتاب القياس، فيعرض إمام الحرمين بإسهام وتفصيل في خمسة أبواب وعدد من الفصول، ومقدمة عن منزلة القياس وضرورةه (٧٤٧-١١١٢)، مبينًا المسائل الأصولية الدقيقة في هذا البحث الدقيق، وهو أصعب بحث في أصول الفقه وأدقه وأعمقه، فيピー الباب الأول بحث ماهية القياس، وأقوال المذاهب في قبوله أو ردّه مع الأدلة والمناقشة والتحقيق، وفي الباب الثاني ذكر تقاسم النظر الشرعي، وأنواع القياس، وتدقيق البحث في العلاقة، ورأى الأصوليين فيما يعقل وفهما لا يعقل، وفي الباب الثالث تقسيم العقل والأصول إلى خمسة مما يعقل معناه، وما ينتمي على الحاجة، وما لا ينسبة إلى ضرورة ولا حاجة، والعبادات التي يلوح فيها معنى مخصوص يمكن أن يقاس عليه، وفي الباب السادس ذكر الاعتراضات على القياس، وقصرها إلى اعتراضات صحية مع المناقشة، واعتراضات فاسدة مرودة، والباب الخامس في المرابط في القياس بالأصول والصفات والتعديبة.

وفي الكتاب الرابع بحث الجويني في «كتاب الاستدلال» (٢/١١١٣)، مبينًا اختلاف العلماء المعتبرين والأئمة في الاستدلال، ويشمل الاستحسان والمصالح المرسلة، وعرض أقوال الأئمة مفصّلة مع أدلةها، بدءًا من قول القاضي الباقلاني وطواتف المتكلمين ورأي الإمام مالك، ورأي الإمام الشافعي، وناقش هذه الأقوال مع أدلةها، ووضع ضابطًا فيما يجري في الاستدلال، والاعتراضات عليه، وختم هذا الكتاب بفصل عن استصحاب الحال.

١٨٢
وفي الكتاب الخامس عرض الجويني (كتاب الترجيحات) (1142 - 1292)، برفع الترجيح بأنه "تغليب بعض الإيماءات على بعض في سبيل الظن"، وأنه متفق على العمل به بالجملة خلافاً للبصري الجُعل المعزلي، والدليل القاطع في الترجيح إبطاق الأوليين ومن تبعهم على ترجيح مسلك في الاجتهاد على مسلك وعرض موضوع الترجيحات مسألة مسألة، ثم خصص فصلًا في تعرض الظواهر، وباقي في ترجيح الأقيةسة، وعدد مسائل تتشذ عن القاعدة العامة للترجيح، وسائل في سائر أعراض المرجحين.

وختتم الجويني الجزء الثاني من البرهان بباب النسخ (1293 - 1315)، فيبيّن معنى النسخ، وإثبات جوازه ووقوعه عقلًا وشرعًا، ثم تعرض لمسألة منع اليهود للنسخ، وأنه تابعهم على منعه غلالة الروافض فناقضهم وردّ عليهم وقفن حجتهم وأدلتهم، ثم ذكر مسألة النسخ قبل الفعل، وأنه جائز عند أهل الحق، ثم انتقل لمسألة نسخ الكتاب بالسنة والعكس، ونقل قول الشافعي بأن الكتاب لا ينسخ بالسنة، وخالفه في ذلك وقال: "إن نسخ الكتاب بالسنة غير ممتنع" (1307/2/1207)، وتابع بحث النسخ وخمته بفصل عن الفرق بين النسخ والتخصيص، وبذلك يتم كتاب الهران على أن يتبع ملحق بالاجتهاد.

وفي صفحة 1316 ملحق الهران وهو الكتاب السادس (كتاب الاجتهاد) الذي وعد به الجويني في آخر الهران بقوله: "تم الكتاب... ونحن نرسم بعد ذلك مستعينين بالله تعالى كتاباً جامعاً في الاجتهاد والفتوى يقع مصنفاً برأسه، وتبنت لهذا المجموع، إن شاء الله تعالى" (1315/2/1215)، كما صرح بهذا الرعد أكثر من مرة في أثناء الهران، وجاء كتاب الاجتهاد مستقلًا من جهة، وأفرد النسخ بالكتاب، وأنه تنبئ لكتاب الهران من جهة ثانية، وقد جمعنا معاً في نسخة تركياً، وعرف الجويني الاجتهاد وعرض مسألة مسألة مسألة، ثم انتقل إلى الكتاب السابع (كتاب الفتوى)، فعرف المفتى وبين أوصاها وشروطه، التي أعدها ثانية في كتابه "غيات الأمور" كما سبق بيانه، وعدد المجتهدين من الصحابة مع ترتيب الأدلة عند الشافعي، ثم
عرض للمقدد والمستفتي وفوتور شريعتنا، وخلو الواقعة عن حكم الله تعالى، وتصوب المجتمدين، وختم كتابه بمسألة تعدد أقوال الشافعي في المسألة الواحدة وسبب ذلك وكيفية الجمع بينها.

ويتهي كتاب البرهان بفهراس علمية تبلغ الأحد عشر فهرساً من عمل المحقق، لتكون هذه الفهراس مفاتيح للكتاب، تسهَّل للقارئ العمل، وفتح عليه الباب لمراجعة المسائل والمواضيع وآراء الأئمة والعلماء، وخاصة الآراء التي خالف فيها الإمام الحرمين الجويني الإمام الشافعي، وآبا الحسن الأشعري وأبا بكر البقلاوني.

المطّلع على هذا الكتاب يقرأ العقلية المفتوحة لإمام الحرمين الجويني، ويدرك شخصيته المستقلة، وفكره الناضج، وذهنه الوقاد، وذكاءه الحاد، ولغته الرفيعة، وأسلوبه الرصين، ومكانته العلمية، واطلاعه على آراء الأئمة والعلماء والمذاهب والفرق، فيعرض آراءهم، ويبيّن أدلتهم، ثم يناقشها، ويردّها، ويدلل على رأيه ويؤيده بالمنطق والإقناع العقلي والدليل الشرعي، ويعتبر الكتاب بمجموعه ثروة علمية، وذخيرة عظيمة.
الفصل السادس

إمامة الحرميين وعلم الخلاف والجدل

تعريف علم الخلاف:
إن علم الخلاف هو العلم الذي يتعلق بالأدلة والأصول التي يأخذ منها الأئمة أحكامهم، ويبحث عن وجه الاستنباط من الأدلة الإجمالية والتفصيلية، ويقيم الأدلة والبراهين والحجج الشرعية لاجتهاد الأئمة الفقهاء.
ويعتمد علم الخلاف على علم الجدل ومبادئه، ويستمد أصوله من العلوم العربية والشرعية، وخاصة أصول الفقه، ولذلك اعتبره بعض العلماء ملحقاً بأصول الفقه.

ويهدف علم الخلاف إلى تأييد مذهب الأئمة بإبراد الحجج والبراهين والأدلة لأقوالهم، وبيان القواعد والأصول التي اعتمدوا عليها في الاجتهاد والاستنباط، ودفع الشكوك التي ترد على المذهب، وردّ الشبه التي تثار عليه، وإيقاعها في المذهب المخالف.

وقد وجد هذا العلم منذ نهاية القرن الهجري الأول، وطوال القرن الهجري الثاني عندما ظهر الخلاف بين مدرستي الرأي والحديث، وثار الجدل بينهم، وانبري كل فريق للدفاع عن رأيه والطعن والتشكيك بالمدرسة الأخرى، والنهيل من علاماتها والقائمين عليها، وانتهى هذا الخلاف بظهور (1) منهم الإمام فخر الدين الرازي في كتابه "العالمون"، انظر: مفتاح السعادة 308/1، 599/2، تأسيس النظر ص 5، الإمام الماوردي ص 36، كشف الظنون 472/1، مقدمة ابن خلدون ص 459.

185
الرسالة للإمام الشافعي، فقرَّ بين المدرستين، وجمع بينهما، وأزال الخلاف بين العلماء، كما سبق في علم أصول الفقه، لكنه لم يقض على الخلاف بين الأئمة والعلماء، ثم تجدد هذا الخلاف بين أتباع الأئمة والمذاهب، وخاصة في القرن الثالث الهجري: الثلاثة الطريقة، والرابع والخامس، وهو عصر نشأ المذاهب الفقهية وثباتها واستقرارها، فكانت هذه المذاهب في صراع البقاء على الوجود أو الاندثار والميول، واندفع العلماء في كل مذهب يؤيدون أقواله، ويستدلون لأخلاقه، ويدعونه بالأدلة والحجج والبراهين، ويتوقفون عن المذهب وإمام المذهب، ويدعون على منهجه في الاجتهاد، وقواعده في الاستناد، ومنطقه في الاستدلال، وبعدها كل شبهة أو شك أو ريب في أصوله أو أحكامه أو قواعده أو اجتهاده، ويرغبون الناس بتأييده، ويدعون إلى مذهب، ويطرحون في المذاهب المختلفة، ويشككون في أصولهم ومناهجهما وأحكامهم، وكانت النتيجة ثبوت قدم المذاهب التي توفر لها الأتباع والعلماء والدعوة، وانقراض المذاهب الأخرى التي فقدت ذلك، وصارت دراسة المذاهب الباقية وفهم نصوص أئمتها بثقة دراسة الأدلة الأصلية التي اعتمدتها الأئمة والمجتهدون.

ويلخص ذلك ابن خلدون ففيقول في علم الخلاف: "فأعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين...، خلافًا لا بد من وقوعه، واتسع ذلك في الملة إنسانًا عظيمًا، وكان للمتقددون أن يقلدوا من شاواهم منهم، ثم لما أنهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار، وكانوا بمكان من جم المذهب تصر الناس على تقليديهم ومنعوا من تقليد سواهم...، فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة، وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخرين بأحاديثهم مجرّى الخلاف في النصوص الشرعية، والأساليب الفقهية، وجرت بينهم المناظرات في تصحيح كلٌّ منهم مذهب إمامه تجري على أصول صحينة وطرائق قومية، يحتضن بها كل على مذهبه الذي قلد، يمسك به، وأجريت في مسائل الشريعة كله، وفي كل باب من أبواب الفقه...، وكان في هذه المناظرات بيان مأخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم، كان هذا الصنف من
لا بدّ لصاحبٍ من معرفة القواعد التي يتوصّل بها إلى استنباط الأحكام، كما يحتاج إليها المجتهد، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط، وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ المسائل المستبسطة من أن يهدمه المخالف بأدلةه((1)).

وبذأت المؤلفات في علم الخلاف تظهر من القرن الثاني كاختلاف أبي حنيفة وأبيه ليلى، والردّ على سير الأوزاعي، واختلاف الشافعي مع محمد بن الحسن، واختلاف الشافعي مع مالك وغيرهما مما كتب الشافعي نفسه في آخر كتابه (الأم المطبوع) (2)، واختلاف الفقهاء للطحاوي، واختلاف الفقهاء للطبيري، إلى أن جاء الإمام أبو زيد الدبولي الحنفي (3، 4) فكان أول من وضع علم الخلاف على أصوله وقواعده، وأبرزه للوجود كعلم مستقل، وكان يضرب به المثل في النظري واستخراج المسائل والرأي، وألف كتابه (تأسيس النظر) وهو من البواكر الأولى لعلم الخلاف، ثم تبع العلماء من مختلف المذاهب، وكتب في علماء من المذاهب الأربعة، منها النكت وتذكرة الخلاف للشيرازي وحيلة العلماء في اختلاف الفقهاء لأبي بكر الشاشي وكتاب المأخذ للغزالي، في المذهب الشافعي، وفي المذهب الحنفي: التجريد للقدوري (188 هـ)، ومنظومة النسفي (537 هـ) والطريقة الرضوية للسرخسي (444 هـ)، ومختلف الرواية لعلاء الدين السمرقندي (514 هـ) والتعليقة للدبوري، وفي مذهب المالكية: كتاب (عيون الأدلة) لابن القصر أبو الحسن (398 هـ) الذي يقول فيه الشيرازي: (وله كتاب في مسائل الخلاف كبير، لا أعرف لهم كتابًا في الخلاف أحسن منه)، وكتاب (التنقيح) لتلميذه القاضي عبد الوهاب المالكي (412 هـ)، وفي المذهب الحنبلي كتاب (الإشارات على مذاهب الأشراف) لابن هبيرة الحنبلي

(1) مقدمة ابن خلدون ص 456، وانظر: مفاتيح المعرفة ص 3، المنقول ص 489، وفيات الأعيان ص 251/2.
(2) الأم ص 266 وما بعدها.
(3) طبقات الفقهاء ص 168.

187
(٥٠٠ هـ)، وباختصار فإن شيخ كل مذهب وإمامه في كل عصر تقريباً كان يكتب في الخلاف داعياً لمذهبه، ومدافعاً عنه، ومنظراً علماء المذاهب الأخري شفاهاً أو كتابةٍ، ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ إمام الحرميين الجويني.

كتب إمام الحرميين في علم الخلاف:

شغب علم الخلاف إمام الحرميين الجويني ردحاً طويلًا من الزمن، وكانت نفسه تتوق إليه لسعة ثقافته، وتخصصه في الفقه على المذهب الشافعي، وإطلاعه الواسع على المذاهب الفقهية الأخرى، وممارسته للجدل والمناقشة، وتأليفه في علم أصول الدين والمقارنة فيه بين المذاهب وانتصاره هناك لمذهب أهل السنة والجماعة، وهذه الصفات تؤهله للمشاركة الكاملة في علم الخلاف، فكتب عدة مصنفات فيه، وخاصة في المقارنة مع المذهب الحنفي الذي كان شائعاً ومنشراً في العراق وخراسان، وكان ينافس المذهب الشافعي، فمن كتب الجويني:

١- الدرة المضييَّة فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية، ويوجد من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بالمتحف البريطاني، القسم الشرقي، برقم ٧٥٢٤.

٢- غنية المسترين في الخلاف، ذكرها ابن خلكان وغيره في مصنفات إمام الحرميين٢، وشرحها تلميذه أبو القاسم الأنصاري ولم يرد لها ذكر في فهرس المكتبات والمخطوطات.

٣- الأساليب في الخلافات، وقد ذكره إمام الحرميين كثيرًا في كتابه "البرهان"٣.

---

(١) انظر: مقدمة تأسس النظرة ص ٥ وما بعدها، الإمام الشيرازي ص ١٧٩، العقدة النظامية ص ٤٨، مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٧.

(٢) انظر: وفيات الأعيان ٢/٣٤٢، الكافية في الجدل ص ٢٤، طبقات الشافعية الكبرى ٥/١٧٧، هامش عن الطبقات الوسطى، والجزء السابع ص ١٩٩.

(٣) انظر: البرهان ٢/١٤١٧. ١٨٨
وتتضمن كتاب "مفيض الخلق" على تمييز بين فيه الجويني بواعث التأليف، يقول: "الحمد لله الذي خصّ من شاء من الآتي بأخلاق الأدلة والأعمال... ثم اختار من علامة الدين وفقه اليقين من هو خير أحبَّاء الأمة، وسيد كبار الأئمة: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي... وجعل مذهبه أحسن المذاهب، ومطلب أقدر المطالب بشهادة سيد المرسلين... وقد بُنِّيت في عامة مصنفاتي في أصول الفقه وجه تقدير مذهب الشافعي رضي الله عنه على المذاهب كلها، والآن أردت وضع كتاب موجز في هذا الغرض ليطمع عليه العلم والخاص" (ص ٤-٥)، ثم أعقب التمهيد بمقدمة عن الترجيح، فراح بأنه "إظهار زيادة على أحد المثليين وصَفَا لا أصحا" (ص ٧)، وقُسْمَه إلى ترجيح مقطوع به، وإلى مطون به متجهد فيه، وبيِّن حكمه بأنه انعقد الإجماع على العمل بالترجيح وإن لم يكن مستقلاً، ثم ذكر سؤالًا: هل يجوز للعاني أن يتحلل مسألة من مذهب الشافعي وآخر من مذهب أبي حنيفة أو غيره؟ وأجاب عنه: "لا يجوز للعاني ذلك، بل يجب عليه حتمًا أن يعيَّن مذهباً" (ص ١٤) وقرر أنه "يجب على كافة العقليين، وعامة المسلمين شرقاً وغرباً، بعداً وقريباً، انتفاخ مذهب الشافعي" (ص ١٦)، وأقام الأدلة على هذا الرأي، وبين أرجحية الشافعي على أبي

(١) فيرس دار الكتب المصرية ٢٠٥/٢، فيرس مخطوطات الظاهرة، الفقه الشافعي ص ٢٦٦، كشف الفلكن ٢/١١، ٤٧٦، ورغم أن الكتاب طبع من أكثر من خمسين سنة فإن كاتبه الجويني ص ٦٦، تقول: وهو مصنف ما زال في نسخته الخطية.

١٨٩
حنيفة في الأصول المعتمد عليها، وفي قواعد الاستنباط، مع الأمثلة والأدلة على ما يقول، وتحيز من الخوض في آحاد المسائل وجذبات الفروع، فذاك في فن الفقه، وقصر الكلام على الكليات في كل قسم من أقسام الفقه بدءًا من الطهارة، فالصلاة، فالزكاة، فالصوم، فالحج، فالمعاملات، فالأمالك، فالانشاحات، فالجناجات، فالحدود، فالفكوات (أي الأقضية)، مبينًا اتفاق الفروع والجذبات عند الشافعي مع الأصول والقواعد، مما يجعل مذهبه أحق بالإتباع. قال: "فإذا تبين قطعاً ويبقَى (من الأمثلة المذكورة في أباب الفقه السابقة) أن مجري نظر الشافعي رضي الله عنه في الفروع والمسائل تلائم الأصل والقاعدة، فهو أحق بالإتباع" (ص 76)، وتحت الكتاب بنيذة من سيرة الشافعي ومناظراته وقضاياها، وقال: "وهو الذي حكبه من فضل قطيرة من بحار علمه، وغرفة من أنوار فضله، وفيه مقطع وبلاغ للمؤمنين" (ص 90).

تقييم كتاب مغيث الخلق:

كان هذا الكتاب مثار جدل كبير لانتهاك إمام الحرميين بالتعصب المذهبي، وأنه ينال من الإمام أبي حنيفة، وأن ذلك لا يليق بمقام الإمام الحرميين وعلمته وفضلته ومهنته، مما دفع بعض العلماء إلى إنكار نسبة الكتاب إليه، وأنه مدوس على إمام الحرميين (1). كما حمل عدداً من علماء الحنفية على الرد على هذا الكتاب، منها كتاب "الكلمات الشريفة في تنزيه أبي حنيفة عن التهريات السخيفة" لنوال المنوقي الحنفي، وكتاب "تشييع الفقهاء لتشييع السفهاء" للشيخ علي القاري الحنفي، وجاء المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثر في هذا العصر، فجمع بين الكتابين كتاب «إحراق الحق بإبطال الباطل في مغيث الخلق»، وطبعه في مطبعة الأئمة بمصر، الطبعة الأولى سنة 1390 هـ. ففي 72 صفحة من الحجم العادي، وحمل الشيخ الكوثرى رحمه الله تعالى في مقدمته على الجويني وتلميذه الغزالي والإمام الرازي، واتهمهم بالتعصب للمذهب الشافعي، ونال من الجويني، ثم بدأ في الرد على كتابه فقرة بفقرة بأسلوب جاد، مع التعصب لأبي حنيفة

(1) انظر: البداية والنهائية 128/12 هـ، إحراق الحق ص 3، البرهان 2/1365. 1990
رحمه الله، وكان الكوثری يقول عن ذلك: «منحصب خي يمتبصب».

ورأتیا في الموضوع يتلخص بالنقاط التالية:

١ - إن عصر إمام الحرمین، والقرن الذي قبله، والذی بعده، كان عصر ازدهار المذاهب مع الصراع فيما بينها على البقاء والوجود، وكان هذا الصراع في أغلبه نظرياً وعلميةً وموضوعياً، ولكن كأن أحياناً يتعدي هذا المجال ليصل إلى النزاع والفتنة، ومن ذلك فتنة نيسابور التي أدت لخروج أربعة عالمة منها، ومن بينهم إمام الحرمین، وكان وراء الفتنة بعض علماء الحنفية، المنتمنين إلى مذهب الاعترال، فكان الجو العام، والاجتهاد الفقهی، وتكوين المذاهب، والملابسات، والظروف المتجمعة تدفع العلماء إلى المناظرات والدعوة إلى اتباع المذهب، والتأليف في بيان الحق من وجهة نظر العالم والباحث والمؤلف، وكان هذا يدين ذلك العصر، ولذا نشأ فيه علم الخلاف.

٢ - كان إمام الحرمین رحمه الله متفقاً على المذهب الشافعی، ودرسه وتعمق فيه، ثم درسه حتى صار إمام الشافعی في عصره، ثم ألف فيه كتابه "نهاية المطلب"، وهو من أعظم ما ألف في الإسلام والفقه، وجمع مذهب الشافعی، وكان إمام الحرمین معتناً لهذا المذهب عن أئدة وبرارين وقاعة، فدافع عن المذهب الشافعی، ودوا إليه، وكتب عدة كتب في ذلك، وحرص على هذه الدعوة في تقديم مذهب الشافعی على بقية المذاهب في كتبه الأصولية والفقهیة، كما جاء في مقدمة "منفي الخلق"، فكان إمام الحرمین منطقياً مع نفسه، باذال النصح لله ولديه فيما يراه ويعتقده، شأنه في ذلك شأن كل من كتب في هذا الخصوص من سائر المذاهب.

٣ - لم يكن إمام الحرمین معتناً بالمعنى المذموم للعصبية، بل كان معتناً للحق، ملتزماً به داعياً إليه، متمسكاً بأطرافه، وهو التعصب المحمود، وهذه فضيلة ندعو إليها كل مسلم أن يقف عند الحق، ولا يهين عنه، ولا ينال فيه، ولا يعامل به، ولا ي تخلى عنه، ولا يفروط في جوانبه، أما التعصب المذموم فهو غمط الحق أهله، والمطن بالآخرين، وعدم احترام
آرائهم وأقوالهم، والتحامل عليهم، والحقد عليهم، والإساءة لهم بسبب اعتقادهم وآرائهم، ومحاولة إكرأتهم على الرأي بالقوة بدون إقناع أو رضاء.
والدليل على عدم التعصب عند الجريني تأخذه من كلامه وممن كتب عنه، فهو يقول في كتابه هذا "مغتيل الخلق": "وأثرت الإنصاف والانتصاف، وجانبات الاعتصاف" (ص 6)، ويقول: "أني لم أغار نصاً، ولم أُل جهداً في تبين الحق، وإبراد الصدق" (ص 6)، ويذكر الأئمة بكل احترام وتقدير، مع الأدب والترجم عليهم، يقول: "بل يجب على العاقل حتماً أن يعيّن مذهبًا من هذه المذاهب، إما مذهب الشافعي رضي الله عنه في جميع الوقائع والفراع، وإما مذهب مالك أو مذهب أبي حنيفة أو غيرهم رضوان الله عليهم" (ص 14)، ويقول: "وبنفي للناظر أن لا يظن بنأ أنه تعصينا للشافعي على أبي حنيفة، لطوّيل النفس في تقريره، وهيهات، ولستنا إلا منصفين ومقتصرين على البسرين من الكثير" (ص 38)، ويعود في آخر جملة في كتابه إلى ما بدأ فيه يقول: "مع مراعاة الإنصاف، ومجابهة الاعتصاف" (ص 90).

ويقول ابن السبكي: "أنزل المذاهب كلّها منزلة النظر والاعتبار، غير متخصص لأحدها منها، بحيث لا يكون عنه ميل يقوده إلى مذهب معين، من غير برهان، ثم توضيح له الحق، وأنه الإسلام، فكان على هذه المسألة عن اجتهاد وبصرة، لا عن تقليد، ولا يخفى أن هذا مقام عظيم، لا ينفي إلا لمثل هذا الإمام، وليس يسمح به لكل أحد")، وهذا في علم الكلام ومذاهبهم.

أما في الفقه فقال عنه ابن عساكر: "ولم يرض في شبابه بتقليل والده وأصحابه، حتى أخذ في التحقق، وجدّ واجتهاد في المذهب والخلاف ومجالس النظر، حتى ظهرت نجاته، ولاح على أيامه همة أبيه وفرءاه، وسلك طريق المباحثه، وجمع الطرق بالمطالعة والمناقشة حتى (...)

(1) طبقات الشافعية الكبرى 182/5

1982
أربي على المتقدمين، وأنسي تصرفات الأولين، وسعى في دين الله سعياً يبقى أثره إلى يوم الدين».

ويقول الدكتور عبد العظيم الديب: «وستطيع أن نؤكد طول معايشتنا لإمام الحرمين، هذه السنوات (السبع)، وعلى قدر ما قرأنا في موسوعته الفقهية «نهائية المطلب» وعلى ما وجدنا فيه من حدة في مقارعة المخالفين، إلا أننا رأينا فيه عقفة لسان، وظهارة لفظ، وتقديرًا للأمة الذين هم على غير رأيه، حتى إنه يعتذر عن ذهنًا كثيرة بأن الناقلين عنهم لم يحسوا النقل، وكثيراً ما يبحث عن محمل لكلامهم يصححه به، أو يخفف عن يتسبب إليه من خطأ في رأيه. بل إن مناقشته لآراء أبي حنيفة (في نفس هذا الكتاب البرهان) كان يتحدد ويقضي على عادته، ولكن كان يتزن الجادة، وليس أدل على ذلك من قوله: «ولا نتراً من أبي حنيفة أتى نطق بالنصاب/ فقرة 14/66، بل نراه حياً يقر رأي أبي حنيفة في بعض مسائل في البرهان نفسه».

4 - إن موضوع الكتاب في علم الخلاف قد زال واندثر في عصرنا الحاضر، ومنذ زمن بعيد، فلا يدرس علم الخلاف بين العلوم الشرعية، ولا يطلع عليه أحد، وقد قال طاش كبرى زادة: «وقد جمع بعض العلماء في علم الخلاف المسائل العشرين، وبعضهم الأربعين، وغير ذلك من الرسائل والتعليمات، لكن قد ضاع كتبه، وانطمعت آثاره، وبطلت معلمه في زمننا هذا. . . وإلى الله المشتكى من زمان صار الكلام فيه كلاماً بلا أثر، والخلاف خلافاً بلا شر، والأصول فضلاً، ومعقول مغفولاً».

الكتاب «مغيب الخلق» وأمثاله من كتب بيئي المذهب عبارة في أصله وفرعه جزء من الدعوة المذهبة التي بدأت من القرن الثالث الهجري، واستمرت إلى يومنا هذا، ولا غبار عليها، لكن اقتربت في العصور المتأخرة

(1) تبين كذب المฤي ص 729.
(2) البرهان 1366/4 وما بعدها، هامش، وإنظر: المنخل ص 488 هامش وما بعدها.
(3) مفتاح السعادة 1/207/1.
بالتعصب المقيت، والعصبية الضيقة بين المذاهب التي يأنفها الأئمة أولاً، والعلماء العاملون، والفقهاء المخلصون ثانياً، وقد زالت هذه العصبية المذهبية والحمدلة، وتجلى التقدير والاحترام بين المتدينين لأئمة المذاهب، وترقرت الدراسة المقارنة بين المذاهب، وانشسر الانتقاء والاختيار للأحكام التشريعيه العملية من مختلف المذاهب دون تقيد بمذهب، وشاهد بين عامة الناس إمكان تقديم مذهب آخر في العبادة أو المعاملات.

وبالمقابل فقد ظهر إلى الوجود الفقه المقارن الذي يحل محل علم الخلاف، وانتشرت الدراسات المقارنة بين المذاهب تدريزاً وبحثاً وتصنيفاً، ولم يبق لموضوع كتاب «مغثث الخلق» فائدة وأهمية إلا من ثلاث نواحي:

أولاً: الدراسة المقارنة فيه بين الآراء، مع عرض الأدلة ومناقشتها، ومعرفة معاخذ الأئمة ومناط الاجتهاد والاستتباع للوصول إلى ترجيح القول الأقوى والأصح.

ثانياً: الاستفادة من الأصول والقواعد التي ذكرها إمام الحرمين الجويني أثناء عرضه واحتجاجه ومناقشاته، وهي فوائد أصولية طيبة، وقواعد فقهية كلية مفيدة.

ثالثة: الاستفادة من أسرار الشريعة وحكمها التي بيّنها الجويني رحمه الله بأسلوب شيق، وعبارات رصينة، وألفاظّ رصينة، تدل على عمق الإمام رحمه الله في إدراك أسرار التشريع، وحكمه كل فرع منه، كما تدل على فصاحة الأصول وتمكنته من اللغة العربية فهماً وعرفة واستعمالاً.

وأخيراً فقد تبأّ إمام الحرمين الجويني المكانة العليا في الفقه وأصول الفقه وعلم الخلاف وغيرها من العلوم.

إمام الحرمين وعلم الجدل:

عرف إمام الحرمين الجدل بأنه: "إظهار المتناقضين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة". (1)

194

(1) الكافية في الجدل ص 21.
ونقل عدة تعريفات للجدل منها: «هو دفع الخصم بحجة أو شبهة» ومنها أنه: «تحقيق الحق، وتزهق الباطل»\(^1\).

وعُرف بعضهم الجدل بأنه: «علم باحث عن الطرق التي يقتدر بها على إبرام أي وضع أريد وعلى هدم أي وضع كان»\(^2\).

ويعتمد علم الجدل على علم الخلاف، ويستمد مبادئه من علم المناظرة، المشهور بآداب البحث، واعتبر بعضهم أن علم الجدل هو علم المناظرة إلا أن الجدل أخصى منه، ولذلك عُرف ابن خلدون علم الجدل وبين أهميته فقال: «معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً، ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا أداً وأحكاماً يقف المناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب...»\(^3\).

ويعتبر علم الجدل أحد مباحث المنطق، لكنه مخصص بالعلوم الدينية، ويعتمد على اللغة العربية، وأسس النظر في القرآن والسنة، وقواعد أصول الفقه، قال طاش كبري زادة: «هو أيضاً من أنواع العلوم العقلية، لكنه من فروع أصول الفقه أيضاً»\(^4\)، ويلتقي علم الجدل مع علم الخلاف ومع علم أصول الفقه، لأنها الوسائط الأساسية، والطرق الناجحة في تصحيح المذهب، وتحقيق الحق، وتزهق الباطل، وإزالة اللبس ودفع الأوهام والشكوك، وردّ المطاعن، والوصول إلى المعرفة اليقينية التي تمثل الحق وتؤكده من وجهة نظر المجادل.

\(^{1}\) الكافية في الجدل ص 20.
\(^{2}\) انظر: مفتاح السعادة 3 204/1.
\(^{3}\) مقدمة ابن خلدون ص 457.
\(^{4}\) مفتاح السعادة 2 999/1، وانظر: كشف الطنون 389/1. الكافية في الجدل، المقدمة ص 56، 166/70.
وقد تأكدت صلة علم الجدل بعلم أصول الفقه منذ القديم، ودخلت قواعد الجدل وأدب الجدل والمناظرة في أبواب أصول الفقه، ووضعها معظم المؤلفين في كتب أصول الفقه، وتعمد الأصول المقارنة على علم الجدل في تعريفاته ومبادئه وقواعدهه وآدابه، كما أن مادة الجدل كثيراً ما تكون في موضوعات علم أصول الفقه بأدائه ومصدراه وقواعدهه، وقد جمع ابن الحاحب المالكي الأصولي بين العلمين في عوان كتابه الذي اختصره من الإحكام للآمدي، ساهم منه السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، ثم اختصره أيضاً في المختصر الشائع المشهور الذي شرحه كثير من العلماء.

وأول من صنف في علم الجدل أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الفقيه الشافعي الشافعي، الذي كان إمام عصره، وكان فقيهاً ومحققاً وأصلياً ولغويًا وشاعراً (336 هـ)، ثم كثرت التصانيف في الجدل، منها الملخص والمعونة لأبي إسحاق الشيرازي، والتفاوت للعميدي، والمغني وتهديد النكت للابهري، والمنهاج في ترتيب الحجاج للباجي، ومقدمة السفي وشرحها للسرمقدي، والجدل لابن عقيل، وغيرها، لكن هذا العلم قد انقرض كعلم مستقل، ولم يبق منه إلا ما يذكر في كتب أصول الفقه، وذهب كتبه، وعزم الناس عنه، وانهك العلماء عن التصنيف فيه، وهجرت المصنفات، وهذا ما قاله ابن خلدون منذ أمده طويل: وهي لهذا العهد مهجورة، لنقص العلم والعلماء في الأمصار الإسلامية، وهي مع ذلك كمالية، ولئست ضرورية».

كتب إمام الحرمين في الجدل:

تعريض إمام الحرمين لموضوع الجدل وبحثه وعرض مبادئه وآدابه ثم كتبه في أصول الفقه وكتب أصول الدين، ثم أفرده بالتصنيف والتاليف والتوسع بكتاب خاص وكبر وهو الكافي في الجدل.

(1) مقدمة ابن خلدون ص 458، وإنظر: مفتاح السعادة 5/1، 336/2، 186/2، 389/1.
الكافية في الجدل:

وقد حفز لنا القدر نسخة خطية من هذا الكتاب في مكتبة الجامع الأزهر، وتم تصويرها بفيلم بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية، وقامت الدكتورة فوقية حسنين محمود أستاذة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات بجامعة عين شمس بتحقيق هذا الكتاب القيم والتعليم عليه، والتقديم له، وطبعته مكتبة مصطفى الباجي الحلبي بالقاهرة عام 1399 هـ/ 1979 م.

يقع كتاب «الكافية في الجدل» في 566 صفحة، وقبله مقدمة وافية مستقلة للمرة تقع في 144 صفحة، وبعد الكتاب تعليقات للمحقق (567 - 224) ثم المراجع والفهرس (242 - 159).

ويتضمن الكتاب مقدمة وسبعة وعشرين فصلاً، مرتبةً ترتيباً منطقياً واضحاً، يلم فيها إلماً كافياً في موضوعات البحث، مشحوناً بالمادة العلمية التي تخص المختصين في هذا العلم، دون غيرهم، ولذلك نكتفي بالإشارة لأهم النقاط التي تبيّن صلة علم الجدل بأصول الفقه من الناحية الموضوعية، ونفس الأبحاث المعروضة.

يدعو الإمام الحرين كتابه «الكافية في الجدل» بمقدمة عن المعاني والمفردات والمصطلحات التي تستخدم في هذا الفن، موضحاً الغاية من ذلك بقوله: «اعلم أنه لا يتم تحقيق النظر لمن لا يكون مستوفياً لمعاني ما يجري من أهل النظر في معاني العبادات، وحقائقها على التفصيل والتخصيص معرفة على التحقق، فتكون النهاية إذا بذكرها أحق وأصوب».

(ص 1)، وعرض خلال 78 صفحة عددًا كبيرًا من الحدود والمصطلحات

(1) الكافية في الجدل، مقدمة التحقق ص 74.
وأوضح معانيها في اللغة والاصطلاح، مع بيان اختلاف العلماء فيها، وأطال النص في هذا المجال بحيث يصح أن يعتبر هذا الفصل كتاباً مستقلاً بالحدود والتعريفات، بالإضافة إلى تحديد المعاني والمصطلحات التي تم أثناء الكتاب، ولذلك أقرت المحكمة فحراً خاصاً لهذه الحدود الواردة في مستهل الكتاب (ص 153) مرتبة ترتيباً على حروف المعجم، وكتير من هذه التعريفات مصطلحات أصولية.

وفي أثناء تعريفه للمناظرة والجدل تعرض لأقسام الجدل، وأن منه جدلًا محضوماً مرضياً، ومنه الجدل المذموم المحرم، وعرف كلًا منها مع ديلبه، فقال: "ثم من الجدل ما يكون محضوماً مرضياً، ومنه ما يكون مذموماً محراً، فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناية، أو ليكسع الحق بالباطل، أو لما لا يطلب به تعبر ولا تقرب، أو للمماراة وطالب الجاه والتقدم إلى غير ذلك من الوجه المهنئ عنها، وهي التي نص الله سبحانه فيها كتابه على تحريرها، فقال: "ما ضربوه لك إلا جدلاً، بل هم قوم خصمون" (الزخرف/85)، وقال تعالى: "وكان الإنسان أكثر شيء جدلا" (الكهف/45)، وفي مثله قال عليه السلام: "دع المرء وإن كنت محققاً، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه...، وأما الجدل المحمود المدعو إليه، فهو الذي يحقق الحق، ويكشف الباطل، ويهدف إلى الرشد، مع من يرجي رجوعه عن الباطل إلى الحق، وفي قال سبحانه: "دع إلى سبيل ربك بالحكمة والمواعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل/125)، وقال لرسوله: "قل: هاتوا برهانكم إن كنت صادقين" (البقرة/111)، وقال عليه السلام: "يحمل هذا العلم من كل خلق عدوله، ينقول عنه تحريف الغالين، وانتحال المبتدين، وتتأويل الجاهلين، رواه البخاري وأحمد والداوسي وابن ماجه.

وفي الفصل الأول في طريقة معرفة الأحكام الشرعية، وترتيب الطرق، وأنها تشمل القرآن والسنة والإجماع وألفاظ الفقه، وأقواها نصوص الكتاب ثم نصوص السنة المتوارثة، ثم الإجماع على اختلاف وجهه وأنواعه، ثم نصوص الآحاد، ثم ظواهر الكتاب، ثم ظاهر السنة...، وفي الفصل
الثاني كيفية حصول الحكم أثناء الجدل والمناظرة من السائل والمجيب، وفي الفصل الثالث: التعاطف بالإجماع والكلام عليه، وفي الفصل الرابع: الكلام على المعاني وتعلق بها، وفي الفصل الخامس إلى الفصل السادس عشر الاعتراف على القياس بأنواعه وعلمه، وفي الفصل السادس عشر التعاطف باستصحاب الحال، وفي الفصول الثاني والعشرين والثامن والعشرين، باب الترجيح وبيان وجوهه وأقسامه، وفي الفصل الرابع والعشرين آداب الجدل، فيقول: "فأول شيء فيه مما على الناظر أن يقصد التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وطلب مرضاته في امثال أوامره فيما أمر به من المعروف والنهي عن المنكر، والدعاء إلى الحق عن الباطل، وعمى يخبر فيه، ويبلغ قدر طاقته في البيان والكشف عن تحقيق الحق وتمحيص الباطل" (ص 549) ثم يردّد آداب المجلاء، وما يجب عليه وما يحرم عليه، وفي الفصل السادس والعشرين بيان حيل المناقشين، وميبنا وجوب اجتذابها، وأنها من ذهب أهل الفسوق في المناقشة، وأن "من عرف من خصمه الاعتقاد على الحق يقطع مكالمة" (ص 542)، وفي الفصل السادس والعشرين وجه الانقطاع عن الجدل، والانتقال أثناء الجدل، ويبتزم إمام الحرمين الجويني كتابه "الكافية في الجدل" بالفصل السابع والعشرين عن الأمثال والحكم التي تستعمل عند الجدل والمناظرة بين أهل الجدل، بعضها من القرآن الكريم وبعضها من السنة، وبعضها من أقوال الشعراء.

وتدل هذه الموضوعات على الصلة التامة بين الجدل وعلم أصول الفقه، وأن الجدل "يدرر عن أدب إسلامي أصيل، عماده خشية الله، وأن علم الجدل له أصالة إسلامية من حيث مضمونه وأدبيه، وأنه ينطلق "من جذور إسلامية" (1)، وأن هذا الكتاب يعتبر قمة في الموضوع، وغيرة باسقة في التراث الإسلامي، والفكر الإنساني، والحضارة التي وصل إليها المسلمين.

وإن إمام الحرمين الذي كتب وأفاد، ودرس وجادل وناظر، ودافع

(1) انظر: الكافية في الجدل ص 73، 51، 22.
ونافع في أصول الفقه وعلم الخلاف وعلم الجدل قد وصل إلى القمة، ونال هذه الشهرة التي يستحقها عن أهليّة وجدارة.

كتبت أخرى في موضوعات مختلفة:
واخيراً فمن كتب إمام الحرميين التي لم تصلنا، ولا نعرف عنها شيئاً، ودیوان خطب الأنصاريّ، وقد ذكر كثير العلماء هذا الكتاب في ترجمة إمام الحرميين، وله إمام الحرميين جمع فيه أهم الخطاب التي كان يلقيها في الجامع المنيعي.

ومن كتبه أيضاً كتاب النفس، الذي ذرعه إمام الحرميين في سياق كلمته في كتاب العقيدة النظريّة، وقال: وقد جمعت كتاباً في النفس سميته كتاب النفس، وهو يشمل على قريب من ألف ورقة، (ص 69)، ويقول الشيخ محمد زاهد الكورهي على هذا القول يقول: هذا كتاب لم نره في تراجم المترجمين لحياته رحمة الله، وما يُعد قريبًا من ألف صفحة يعد كبيرًا جداً بالنظير إلى موضوعه.

ولم يذكر هذا الكتاب أحد في كتاب التراجم، والفهرس، ولعله مما ضاع أو فقد أو أتلف.

والتعرض لكتاب إمام الحرميين يدل على سعة الثقافة التي كان يتمتع بها إمام الحرميين رحمة الله تعالى، وأن شخصيته كانت ذات جوانب متعددة، وما من جانب أو علم أو تخصص إلا وقد تميّق فيه إمام الحرميين، وبحت إباحة وشمول، وصنف فيه باستيعاب وتوسع، فوفاه حقه، وترك فيه بصماته واضحة، وظهرت فيه شخصيته البارزة.
الفصول السّابع
مكانة إيةام الحشرتين وشمائله

إن النفوذ العلمي وحده للفرد أو الأمة والمجتمع لا يكفي، ولا يدفع صاحبه، ولا يفيد حقاً إلا إذا اقترن بالسلوك النافع، والتطبيق العملي، والأخلاق الفاضلة، والسجايا الحميدة، والكمارم العالية، وإلا كان العلم وبالاً على صاحبه في الدنيا والآخرة، وتهيده الفرد بالانحراف، والمجتمع بالزوال، وهذا ما قصده شوقي رحمه الله بقوله:

وإنما الأمم الأهلاء ما بقيت فإنهم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا
فالأخلاق هي الحارس الأمين للعلم، والضمان الأكيد لجني ثماره، وهي الكساء القشيب للمعلومات، وهي الحلّة الأنيقة التي تغطي سوؤات العلم، باعتباره سلاحاً ذا حذى، والأخلاق هي التي تجمل المعارض، وتستد النقص أو الخلل فيها، وهي البد الطولية، والوسيلة الناجعة لتنقية العلوم، ونقلها من المعلم إلى التلميذ، والأفراد، فالأخلاق كالإنان مع الماء، ولا يمكن شرب الماء أو قبوله أو استساغته إلا في الكأس الجميل، والإنان الأنيق، وإلا نفر الناس من العلم، وتخلو عنه، وتنكروا عن العلماء إذا فقدوا الأخلاق، وأعرضوا عن علمهم، وتنازلوا عن فضل العلم إذا لم يقترب العالم بالخلق في حمله وأدائه والعمل فيه.

كما أن العلم النافع هو الذي يفيد صاحبه أولاً، ليقطع ثمره، ويغني شهدته، وإلا كان حملة العلم كمثل الحمار، يحمل أسفاراً، بشّ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله (5) والدليل على استفادة العالم

201
من علمه هو تطبيقه والعمل به، واقترانه بالأخلاق والمكارم، وكلما ازداد العالم علمًا ازداد تواضعًا وخلقًا حسناً، والعقلاء يقدمون الأخلاق على العلم.

وإمام الحرمين رحمه الله بلغ القمة في دين الله تعالى، ومعرفة أصول الدين، وإدراك أسرار التشريعة، واتباع أحكام الفقه، والتمييز بين الحلال والحرام، بل في وضع الضوابط والمبادئ والقواعد في أصول الدين وأصول الفقه، وكان رحمه الله تعالى ملتزماً بما يعلم وما يُعلم، وعاملًا بما درس، وبما يدرس، ويقرن القول بالعمل، وكانت أخلاقه العالية، وشمايله السامية أكبر عمل لقبول الناس له، وإقبالهم عليه، وتوليه المناصب العليا، واستمراره فيها طوال حياته، وتقدير الناس من العلماء والحكام والطلاب والعوام له وثنائهم عليه، ولذلك عقدها هذا الفضل لبيان سيرة إمام الحرمين الجويني رحمه الله تعالى عملياً، ومعرفة أوصافه وصفاته، ومناصبه التي تولاه، وصلته مع ربه بالعبادة والنهج والذكر، وتواضعه وزده، واعترافه بالفضل لأهله، وقوله بالحق، وثناء العلماء عليه، وذلك بنقل النصوص الواردة في الكتب.

أوصافه الخلقية وحليته الذاتية:

لقد أطلب المؤرخون وعلماء التراجع في أوصاف الإمام الحرمين وحليته، ولا نجد منсуحاً من اقتباس الوصف الذي قاله الإمام ابن السبكي رحمه الله تعالى، فهو وصف جامع دقيق ومفيد.

قال: "هو الإمام، شيخ الإسلام، البحر العبر، المدقق المحقق، النظار الأصولي المتكلم، البليغ الفصيح الأديب، العلم الفرد، زينة المحققين، الإمام الآلهة على الإطلاق، عُجُمًا وعربًا، وصاحب الشهرة التي سارت السـراء والحداً بها شروقياً وعربًا.

هو البحر، وعلمته دُرَّة الفاخرة، والسماء وفوازده التي أثرت الوجود نجومها الزاهرة، ين Bolshevik الجديد من الحديقة، وذهنه لا يمل من نصرة الدين فولاده، وتكلل الأنفس، وقلمه يسخُّ وابل دموعه ورذاه، ويرجو الليل البعيم، ولا ترى بدراً إلا وجهه في محرابه، ولا ناظراً إلا ظره ناظراً في كتابه."
بطل علم، إذا رآه النظر أُرحموا، وقالوا: وما منا إلا له مقام
معلومٍ (الصفات/134)، وفارس يبحث، يُضِبِّقُ على خصائصه الفضاء
الواسع، حتى لا يفهمه الهراب منهم، في الأرض يحور، ولو أن الطائر في
السماء يحور.

تتفد المشكلات إليه فيصدّها، وترد السؤالات عليه فلا يردّها.

أبدأ على طرفِ اللسانِ جوابِه فكانها هي دفعة من صبَب
يغدوُ مساجله بعزة صاحب ويروحَ معترفاً بذلية مذنب

وأما برح يبدأ لا يترك سامية إلا علها، ولا غابة إلا قطع دونها
أنفس المجاز، وقطع منتهاها، بذهن صح على نقد الفكر أبرزه، ووضح في
ميدان الجدل تبريده، حتى قال له الدهر: لقد اشتهب يومُك بأمسِك، وقالت
العلياء: هذا حدي قف عندنا على رسولك، ارفع نفسك وأمسِك.

هذا إلى لفظ عُرُس سحر، إلا أنه حل وبل، ودُر بهِ يبين، إلا أنه لا يذل،
بفصيح كلم، قالت النحاة: هذا ما عجز عنه زيد وعمرو وخالد، وبلغ قول
قالت البلاغاء: قُصْر عن مداه طريق الفضاحة والتاليد.

وأما أرى أحدها في الناس يشبهه وما أحاشي من الأقوام من أحد
أجل والله، إنه لذو حظٍّ عظيم، وقدر، إذا أنصفت العدَدة أصح، وإذا
الذي بني وبينه عداوة كأنه وليّ حمييم.

وعظمة أمست ديار الأعداء بها، وهي المَجَلَّات ماتم، وجلالة قال
القاضي: لا يسكنها الشاهد المعدل عندي، ومن يكتمها فإنه آثم.

ومهابت يتضاءل النجم دونها، ونودُ الأسود أن تكونها، ولا تكون إلا
دونها.

وفأخيرًا لو رأته «الأم» لقالت: فَرَّى عينًا أيتها النفس بهذا الولد، أو
العزنِ لعلم أن بنت قراره انتهت إليها أبكاراً، واتخذ منها ما عزّ كل
أجدٍ.

٢٠٣
وأبحاث لو عارضها القفال شيخ الخراسانيين لقيل: هذا يضرب في حديد بارد، ولو عرّضت على شيخ العراقين لقال ابن أبي طاهر: أنا شيخ الطائفة، وأنا حامد، وأبو حامد.

وشعراً أوى الأشعي منه إلى ركن شديد، واعتزل المعتزلي المناظرة علماً أنه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، إذا صعد المنبر مذه يده إلى الفردق، وأنشده الفضل:

ولما رأيت الناس دون ماله تيقنت أن الدهر للناس ناقت إذا وعظ أليس الأنفس من الخشية ثوباً جديداً، ونادته القلب: إنا بشر فاسجح، فلسنا بالجبال، ولا الحديدة.

وإذا ناظر قعد الأسد، فلا يستطيع أن يقوم، وقام الحق بحيث يحضر أندية الدين، وسُهيل قد نُبِّذ بالغَرَاء كانه مذموم، وإذا قصد رياع المبتدعة هذَّ شبَّهها براهن قائمة على عمَّد، وأنشد من رآها:

آمست خلآةً وأمسى أهلها احتضنوا أختي عليها الذي أخبر على بُدُر في حجر العلم رشيداً حتى ربا، وارتضع ندي الفضل فكان فطانه هذا النبا، وأحكم العربية وما يتعلق بها من علوم الأدب، وأوثي من الفصاحة والبلاغة ما عَجْر الفصحاء، وحَبَّ البلاغاء، وسكت من نطق ودَأَبْ.

وكان يذكر دروساً، كل درس منها تضيء الأوراق العديدة عن استيعابه، ويعصّر من البحر عن مدى عبابه، غير ملهمم في الكلام، ولا محتجز إلى استدرّاك غزرة في لفظة جرت على غير النظام، بل جارٍ كالسَّيْل منحدراً، والبرق إذا سرء.

يعلم المتعمّقون أنه لا يدرك له حد، ويعترف المبرون بأنه عمل صالحاً، وأحسن في السرد.

 وقال الثقات: إن ما يوجد في مصنفاته من عبارات قطرة من سَبِيل، كان يجريه لسانه على شفتيه عند المذاكرة، وغَرْفَة من بحر، كان يضفي من فمه في مجالس المناظرة.

٢٠٤
قال ابن السبكي: "وأقول: من ظن أن في المذاهب الأربعة من يداني فصاحته فليس على بصيرة من أمره، ومن حسب أن في المصنفين من يحاكي بلاغته فليس يدري ما يقول"(1).

وقال الذهبي: "وكان من أذكياء العالم، وأحد أوعية العلم"(2)، لذلك كان والده يعجب لطبه وجودة قريحته، وما يظهر عليه من مخالب الإقبال(3).

مناصب إمام الحرمين:

ومما يتعلق بمكانة إمام الحرمين، ومعرفة شمائله وأخلاقه وسلوكه وسیرته العملية أن نعرف المناصب الرسمية التي استلمها، والأعمال الجليلة التي قام بها، والوظائف الدینیة التي تولى ممارستها، مما يدل على مدى مشاركته في الحياة العملية والاجتماعية، وأنه لم يكن منطوقًا على نفسه، ولم يعزل عن مجتمعه، ولم ينزو في زوايا الكتب، ونظرات العلم، ولم يقتصر على جانب واحد، بل شارك في تسير الأمور، وخلط الناس والمجتمع، وعمل على توجيه الحكام والمحكومين، الطلاب والعلماء، على العمل في مرضاة الله تعالى وتطبيق شرعه، ومما المسؤولية العامة، وحمل أمانة الدعوة والرسالة، وواضط على ريادة هذه المناصب أكثر من ثلاثين سنة، فكانت تتعذر بمراعاته، وهذا شأن الوظائف التي يقوم بها رؤساؤها حتى القيام، وهذه الأعمال هي:

1- التدريس: لقد بدأ إمام الحرمين بالتدريس، وهو دون العشرين، عندما توفي والده فأقعد مكانه في التدريس حتى طار ذكره، وษาو اسمه، وملاء الدبار، وهو لا يزال في رحاب الشباب، ثم اضطر للخروج من بلده، ورحل من نيسابور إلى عدة بلدان، فجمع العلم، وجاور في الحرمين الشريفين، ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له المدرسة النظامية، واستقامت فيها أمور الطلبة، وقين على ذلك قرابة على ثلاثين سنة، وحضر دروسه الأكابر

(1) طبقات ابن السبكي 15/5 168 - 169.
(2) العبر في خبر من غير 3/191.
(3) انظر: مفتاح السعادة 2/110.
والأسن略ر، والأئمة والطلبة، والعلماء وغيرهم، حتى كان يعقد بين يديه كل يوم نحو من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة، وكانت مواضعته طوال هذه المدة على التدريس قد منحته خبرة وتعمّقاً وشهرة مع بقية الجوانب الأخرى”。 وكان يلقب الدروس الطويلة التي تقع في عدة أوراق، ولا يتلهم في كلمة منها.

٢- الخطابة: تولى إمام الحرمين الخطابة في الجامع المنبجي ببنسابور، وهو الجامع الذي بنى حسان بن سعيد، الرئيس أبو علي المنبجي، المنسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقد بنى هذا الجامع بعد اضطراب الأمور ببنسابور، وتزايدي التحصي بين الفرق والمذاهب، فلما انقطع الناس، وزالت العصبية، استأذن السلطان ألب إبراهيم والوزير نظام الملك بناء الجامع المنبجي، وأنفق عليه الأموال الجزيلة، وسلم الخطابة فيه، الشيخ الإسلايم أبو عثمان الصابوني، إسماعيل بن عبد الرحمن، ثم استلمته منه إمام الحرمين الجويني، وبقي خليقاً فيه حتى وفاته.

٣- الإمامة: كذلك استلم إمام الحرمين الجويني إمامة الصلاة، وقام بالمحراب في هذا الجامع طوال هذه المدة.

٤- مجلس الذكر والوعظ: وكان إمام الحرمين يقوم بمجلس التذكير والوعظ في هذا الجامع المنبجي يوم الجمعة، وهذا مجلس عام لتذكير العوام، يدعوهم فيه إلى التزام الدين، ومعرفة الأحكام، ويشجعه بالنكت المستندة من مسائل الفقه، ليتبرأوا إلى عقولهم، يقول تلميذه عبد الغافر: "وكمن من مجلس في التذكير للعوام مسلسل المسائل، مشحون بالنكت المستندة من مسائل الفقه، مشتملة على حقائق الأصول، مبكرة في التحذير، مفيدة في التجنير، مخوومة بالدعاء وفينون المناجاة حضرتًاء".

(١) انظر: مراة الجنان ١٩، ١٢٦، المنظم ١٩٩٩، طبعت الشافعية الكبرى ١٧١، مفتاح السعادة ٢٠٠، ١١٩، ٣٣٠. 
(٢) انظر: طبمات الشافعية الكبرى ١/٢، ٢٧١، ٢٨٩، ٣٠٠. 
(٣) طبمات الشافعية الكبرى ٥، ١٧، ١٧٠، ١٣٨، المنظم ١٩٩٩.
وهكذا يكون وعظ الأئمة والعلماء، يجمع بين العلم والمعرفة وتبصير الأمور، وبيان الأحكام، مع التأثير على العواطف، والتوجه إلى العمل، والشعور بالتنزير، والتنزل بين يدي الله تعالى، والإبانة إليه، والخوف من عذابه، مع الأطمثان لرحمة وشفته، وعدله ورجائه، والبشرة بجنته ورضوانه، ثم المناجاة والدعاء، لأنه مخ العبادة كما تبت في الحديث الشريف.

5- الأوقاف: وقد قُوضّ لإمام الحرمين أمور الأوقاف في نسبيور، وهو منصب جميل وطيب، ليشرف على أموال الوقف، ويدير شؤونها، ويبسط أصولها، ويرعى أحوالها، ويُتقن شروطها، ويتفق الأموال في مصارفها الصحيحة، لتؤدي الغزابات والأهداف التي وُجدت من أجلها، وشرعت الأحكام لها، ولفظ الثمار المهمة من أعمالها.

6- رئاسة الأصحاب: تقلّد إمام الحرمين زعامة الشافعية في زمانه، وتولى رئاسة الأصحاب والعلماء المتين للشافعي رحمه الله، كما كان إمام أهل السنة والجماعة في الوقوف في وجه الدعاء والمبدعة وبيبة الفرق والطوائف.

7- الملاحظة: كان إمام الحرمين مناظراً من الطراز الأول، متمكناً في ذلك، وصنّف فيه المؤلفات الكبيرة، كما سبق ذكره، وكان يجلس للملاحظة منذ شبابه، وبنى كذلك حتى شيخوخته، ويعقد المناظرات مع العلماء، وأمام الجماهير والحشد الكبير.

8- مكانه عند الحكام: وكان إمام الحرمين ذا حظوة وافرة عند الحكام في زمانه، وخاصة عند السلطان ألب أرسلان وملكشاه والوزير نظام الملك، فكان لا يذكر غيره عنهم، وكان هو المخاطب من العلماء، والمشار إليه، وكان المقبول عنهم من قبله إمام الحرمين، والمهجر من هجره، والصدق في المجالس من يتمنى إليه، والمنظور إليه من يغترب في الأصول والفروع من طريقيه، وكانت حشته ملجأ العلماء والأئمة والقضاة، وقوله في الفتوى مرجع العظام والأكابر والولاية(1).

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 177/5، تبين كذب المنفري ص 281.
عادات إمام الحرميين في حياته الخاصة:
كان لإمام الحرميين عادات خاصة في حياته الشخصية تتم عن طباعه وسلوكه، فمن ذلك ما نقله تلامذته عنه أنه كان يقول: أنا لا أتأمل ولا أكل عادة، وإنما أنام إذا غلبتني النوم ليلًا كان أو نهارًا، وأكل إذا استهتى الطعام أي وقت كان. وكانت لذته ولهو ونهزته في مذكرة العلم وطلب الفائدة من أي نوع كان(1)، وهذا يدل على تفرغه الكامل للعلم والعمل، والدعوة والتدريس، والتصنيف والتاليف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونساناه حظوظ نفسه وقيادة ملكاته باتجاه ما يريد.

زيد همزة الحرميين وكرمه:
إن هذه المناصب الجليلة والمكانة العالية التي كانت تدر عليه الأموال الطائلة، وما ورثه من والده الشيخ أبي محمد الجويني، كل ذلك لم يدخل إلى قلب إمام الحرميين، وإنما عرف حقيقة الحياة الدنيا، وأن ما عند الله خير وأبقى، وأن مال الله يتفق في سبيل الله، وإن المال في يد الإنسان يتفقه في مرضاه الله، وأن العلماء ورثة الآباء، والأئمة ورثت العلم، ولم تورث ديناراً ولا درهماً، فكان إمام الحرميين ينفق ما ورثه، وما كان له من الدخل على طلب العلم، ويبحث عمّان يدرس الفقه ليتفق عليهم، ويبحث عنهم(2).

عبادته وتهجده:
يقول ربي سبحانه وتعالى: فإني بخشى الله من عبادة العلماء(3) فأطهر(R/82)، فالعالم يعرف عينه حتى المعرفة، ويفتر حقوقه، ويذكر واجباته نحوه، كما يعرف الطريق الصحيح لأداء عبادته، والخشع بين يديه، لذلك يبقى العلم في عبادة دائمة مع ربه سواء بالصلاة وأداء الواجبات، والانتهاء عن المحرمات، أو بكل عمل صالح في مرضاه الله تعالى، كالذكر وتنبأ القرآن، والدعاء إلى الدين الحق، وقد كان إمام الحرميين رحمه الله تعالى من

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 179/5، مركة الجنان 128/3. 
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 170/5، 175، نبين كذب المفترى ص 280. 

208
الطراز الأول في علم العقيدة والشريعة، وكان من الدرجة الأولى في العبادة، فقد روى المؤرخون أنه رزق مع سعة العلم توسعًا في العبادة لبعضه من غيره(1)، وقد رآيت سابقاً أنه جاور في الحرمين الشريفين، وكان كثير العبادة والطوفان والتهجذ والدعاء وقيام الليل، كما رآيت في صفاته أنه لم يكن ينام الليل، وإنما ينام في أي وقت متأثر بحاجته للنوم، فكان يقضي لياليه في عبادة الله تعالى، والسهر في البحث والتأليف ومذاكرة العلم، وكل ذلك عبادة.

رقة القلب وأثر الوعظ:

كان إمام الحرمين رقيق القلب، وإزداد هذا الوصف بسبب زيادة علمه وكثرة عبادته التي أورثه الخشبة من الله تعالى، والخوف من جلاله وعاقبه، والتذكر بوعده ووعوده، والشوق إلى ما عنده، ولم يقتصر ذلك على نفسه بل كان صدقه في ذلك يؤثر في غيره في تهذيب النفس وتربيته، وإزالة الرعان عنها، وقد ذكرت كتب التراجع أن إمام الحرمين كان من رقة القلب بحيث يبكي إذا سمع بيتاً، أو تفكك في نفسه ساعة، وأنه إذا شرع في حكاية أحوال الأثنياء والعباد والزهاد والزورعين، وحكاية أهل الجنة والنار، وما أعد الله تعالى لعبادته المتقين، مما لا عين رأت، ولاذن سمعت، ولا خطر على قلب بشير، وأنه لم تعلم نفس ما أخفى لهم من قرآ عين جزاء بما كانوا يعملون(2) (السجدة/ 17)، فإذا شرع إمام الحرمين في فصول مجالسه بالندوات في هذه الأحاديث أبكي الحاضرين ببكائه، ونطق الدموع من الجنون لزعيته وإشراجه واحترقته في نفسه، وتحقيقه بما يجري من دقائق الأسرار، وهكذا كان السلف الصالح إذا مرّ بآية من آيات الجنة شهق شهقة شوقاً إليها، وإذا مرّ بآية من آيات النار زفرة شديدة خوفاً منها(3).

وهذا هو التصوف في حقيقته وجوهره، وهو جزء من الإسلام، لأنه

(1) انظر: الأنساب /244/1، العقد الثمين 5، مفتاح السعادة 2/110، وفيات الأعيان 2/240.  
(2) انظر: طبقات ابن هديا ب/31، تبيين كذب المفتي ص/284، مرآة الجنان /130/3، مفتاح السعادة 2/330، طبقات الشافعية الكبرى/179/5.

209
عبارة عن ترقب النفس لتوثيق صلتها بالله تعالى، وتعظيم مراقبتها له في كل لحظة، واستمرار القلب واللسان في ذكر الله تعالى، وكان كل عالم في سلف هذه الأمة متصورًا بهذا المعنى، ويهتم بهدف نفسه اهتمامًا كبيرًا، ويكثر من الذكر والأوراد، ويختمي ساعة مع نفسه وروحه ليحاسبها قبل أن يحاسب، التزامًا بما ورد في الآيات الكريمة والأحاديث الشرفاء، إلى أن دخل في هذا الباب المنافقون والحاقدون على الإسلام، والدخلاء، وحاولوا إفساد الدين بتشويه معنى التصور، وإضفاء الطابع الهيندي والرؤعي عليه، وقد وسموا التصور بالزهد المفرط، والتوالك المنبوذ، والرعبانية المرفوعة...، مع شيوخ الجهل، ونشر المنكرات التي ينسبونها لبوس الكرامات، وتسربت بعض الأفكار الدخيلة إلى العقيدة مما ينكره الدين والإسلام، وظهر الانفصال بين العلماء والمتصورة بهذا الشكل، وبدأ الشقاق بين ما يسبي علم الشريعة وعلم الحقيقة، أو علوم الشريعة وعلوم الصوفية، وظهرت ردة الفعل من بعض العلماء بإنكار التصور والصوفية، مع الإفراط والتطرف في كل جانب.

تواضع الإمام الحرمين:

ومن شملات الإمام الحرمين التي امتاز بها كثرة تواضعه مع سعة علمه، فكان كثير التواضع للناس، فلا يترفع عليهم، ولا يحب التمييز عنهم، ويزل إلى مستوى جليسه في الحديث والمكن والتعليم والاستفتاء، وكان يفضي إلى محدثه، لعله يستفيد منه شيئًا، فإن حصل على علم جديد نسبه إلى صاحبه ولو كان تلميذه، وما ورد في شملائه، وخلاصه أن كان مع رفعة قدره، وجلالته، له حظ وافر من التواضع، وكان متواضعاً جدًا، بحيث يخيل جليسه أنه يهتى، ولا يستصغر أبداً حتى يسمع كلامه فإن أصاب استفاد منه، وعزاء الفائدة إليه، وإن كان صغير السن، وإن لم يرض كلامه بين زيفه ولم يبجيه، وإن كان والده.

فمن ذلك أنه لما قدم أبو الحسن المجاشعي إلى نيسابور سنة 469 هـ، وكان الجويني فوق الخمسين من عمره، وكان إمام الأئمة، ذهب إليه واستقبله واحتفى به وأكرمه ثم جلس بين يديه يقرأ عليه كتاب «إكبير».
الذهب في صناعة الأدب في النحو، ولما قدم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي إلى نسبيون، وكان إمام الحرمين فرق الخمسين، فالتقي به إمام الحرمين ونظره في الفقه والعلم، ولما أراد أبو إسحاق الأنصارف، خرج إمام الحرمين إلى وداعه وأخذ بركاه حتى ركب أبو إسحاق بغله، ومشى في حاشيته كالخوبيهم.

ومن ذلك أن إمام الحرمين كان يجلل تلاذته ويحتورهم، بل يأخذ عنهم أحيانًا، قال ابن السبكي: "وأعظم ما عظم به أبو نصر (وهو عبد الرحمن بن عبد الكريم الفشري - تلميذ إمام الحرمين) أن إمام الحرمين نقل عنه في كتاب الوصيّة من "النهاية" وهذه مربية رفيعة، ودخل الأستاذ أبو نصر مرة على الإمام أبي المعالي الجويني، فنشأ الإمام ارتجالًا:

"يمبس كفص، إذا ما بدا، ويدو كشم، ويربو كريم،
معاني النجابة مجموعة.
"لعبد الرحيم بن عبد الكريم (1)

وكان إمام الحرمين يذهب مبكراً إلى مسجد الأستاذ أبي عبد الله الخيازي يقرأ عليه القرآن، ثم يذهب إلى مسجد له يقوم بالتدريس، ثم يتابع طريقه إلى الشيخ الإسكافي يقرأ عليه الأصول (2).

الاعتراف بالفضل لأهل:

وكان إمام الحرمين يعرف بالفضل لأهل، وينسب الخير لصاحبه، لأنه لا يعرف الفضل لذويه إلا أهل الفضل، يشتي الجويني على مشايبه وأستاذته، بل كان يجلل تلاذته ويحتورهم وينسب الخير لهم، دون أن يدفعه احترام العلماء والمشاهدة والأساتذة إلى المجاملة في الحق، فالحق أحق وأن يتبين، والاحترام والتقدير شيء، وكشف الحق وبيان الصواب والتبني على الخطأ شيء آخر، ونضرب أمثلة لهذا الخلق الكريم لإمام الحرمين.

(1) طبقات الشافعية الكبرى 123/7.
(2) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 180/5، تبين كذب المعتري ص 284، شذرات الذهب 369/3 وما بعدها، مفتاح السعادة 23/1، مرآة الجنان 128/3 وما بعدها، طبقات الشافعية، الإسنوي 411/1.

وكان الإمام الحريمين رحمه الله تعالى يعذر في أئمة العلماء فيما ينسب لهم من أقوال شاذة أو غريبة، يقول مثلاً عن الأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني الذي نسب له أنه أنكر المجاز في اللغة: «والظن أنه لا يصح

(1) طبقات الشافعية الكبرى 2/3، 336/4، 102/7، 6.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 2/26، 327/3.
(3) طبقات الشافعية الكبرى 5/30/1.
(4) المرجع السابق 196/196، 200.
(5) مفتاح السعادة 2/30/1.
عنهم(1)، وذكر مثل ذلك عن الباقلاني وأبي الحسن الأشعري والإمام مالك والإمام أبي حنيفة وغيرهم(2).

وكان إمام الحرمين يقدر المواقف الجبارة التي قام بها نظام الملك في نصرة الحق، والدفاع عن الدين، وتأسيس أهل السنة والجماعة، وقمع المبتذلة، وقطع دابر الفساد والمفسدين، وفتح المدارس، فأثّر عليه كثيراً، وقدم له الكتب والمصنفات، وكان يزوره وينصحه، كما أثبت للتاريخ بعض أعماله المجيدة، فمما قال فيه أنه: «سيد الورى، مؤيد الدين والدنيا، ملأذ الأمام مستخدِم للسيف والقلم، ومن ظلَّ ظلُّ الملك بين مساعيه ممدودًا، ولواء النصر معقودًا، فكَّم باشر أوزار الحرب، وأدار رحى الطعن والضرب، فلا يده ارتدت، ولا طلعته البيئة أربدت، ولا عزمه انتهى، ولا مَثِّه فني، قد سدُّت مسالك المهاك صوارمه، وحصنت الممالك صرائمه، وحلَّت شكائم العدوى عزائه، وتحصنت المملكة بنصله، وتحسنت الدنيا بأفضاله وفضله، وعمَّ برَّهْ أفق البلاد، ونفى الغي عنها بالرشاد، وجلَّ ظلام الظلم عده، وكسر فقار الفقر بذله، وكانت خطَّة الإسلام شاغرة، وأفواها الخطوب إليه فاغرة، فجمع الله برأيه الثاقب شملها، ووصى بينهمه حلها، وأصبحت الرعايا في رعايته، وأعين الحوادث عنها هاجمة، والدين يُزهى بهتلل أساريه، وإشراق جبينه، والسيف يفخُر في يمينه، يرجع الأديب البائس في أدراج أئته، ويركع له ناج كل شامخ بعربيته، ويهبه اللب المرتجع في عريته(3).»

وكان إمام الحرمين يقول الحق، لا يخف في الله لومة لائم، ويجاهر بالحق، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذه هي وظيفة العالم، وواجب الداعي والعون والمرشد، ومصدوبة الناصح والمربي، كما كان إمام الحرمين ينكر الباطل ولا يباحي فيه أبداً.

(1) طبقات الشافعية الكبرى 4/260.
(2) انظر: البرهان، مقدمة التحقيق 54/1.
(3) طبقات الشافعية الكبرى 4/310.
ثناء العلماء على إمام الحرمين:

هذه الشخصية الفذّة، والموسوعة العلمية، والعقيدة النادرة، والأخلاق العالية في المناصب الرفيعة، والحركة العلمية الدائمة التي كان يمثلها إمام الحرمين لم تكن خفية على أحد من معاصره، علماء كانوا أم حكاماً، طلاباً كانوا أم أساتذة، معلمين كانوا أم لاحقين، ولذلك وصفوا لنا هذه المعاني الحميدة، والانتفاعات السامية، وأثنا على إمام الحرمين ثناء عاطراً، ذكرنا جانباً منه في كلم ابن السبكي، وذكرنا جانباً آخر.


قال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، وقد سمع كلام إمام الحرمين في بعض المحافل: «صرف الله المكاره عن هذا الإمام، فهو اليوم قرية عين الإسلام، والذاب عنه بحسن الكلام»(2).

وقال الحافظ أبو محمد الجرجاني: «هو إمام عصره، ونسبيج وحده، ونادرة دهره، عديم المثل في حفظه وبيانه وسانيه، وقال: دواليه الرحلة من خراسان والعراق والحجاز»(3).

وقال فاضي القضاة أبو سعيد الطبري، وقد قيل له إنه لقب إمام الحرمين: « البل هو إمام خراسان والعراق، لفضله وتقديمه في أنواع العلوم»(4).

(2) طبقات الشافعية الكبرى 5/172.
(3) المرجع السابق.
(4) المرجع السابق.

2/14
وقال الأستاذ أبو القاسم الفقهي: دلّى أدعى إمام الحرمين اليوم النبوّة لاستغنى بكلامه هذا عن ظهور المعجزة.(1)

وقال علي بن فضال، أبو الحسن المجاشعي النحوي: «ما رأيت عاشقاً للعلم في أيٍّ فن كان مثل هذا الإمام، فإنه يطلب العلم للعلم، وقال بعض الآثاء: "وكأن كذلك".(2)»

وكتب ابن الصلاح: أنشد بعض من رأى إمام الحرمين:

لم تر عيني أحداً
تحت أديم الفلك
مثل إمام الحرمين
بن النّذب عبد الملك

وقال آخر:

دعوا لبس المعالي فهو ثوب علاء
على مقدار قدّ أبي المعالي.(3)

وقال الباقعي: "الإمام الحفيظ، السيد الجليل، المجمع على إمامة، المتفق على غزارة مادته، وتفرثه في العلوم من الأصول والفرع، والأدب وغير ذلك، الإمام الناقد، المحقّق البارع، النجيب المدقّق، أستاذ الفقهاء المتكلمين، وفصل النجاة المناظرين، المقرّ له بالنجابة والبراعة، وتحقيق التصانيف وملاحثتها، وحسن العبارة وفصاحتها، والتقدم في الفقه، ذو الأصيلين، النجيب ابن النجيب، إمام الحرمين، حامل رأية المفاخر، وعلم العلماء الأكابر، أبو المعالي، عبد الملك ابن ركن الإسلام أبي محمد، فخر الإسلام والآثاء، ومفتي الأمة، المجمع على إمامة شرقاً وغرباً، العقر بفضله السّراة والخُدّادة، عجماً وعرياً».(4)

وقال تلميذه عبد الغافر الفارسي الحافظ في "سيّاق نيسابور": "إمام

---

(1) المرجع السابق 174/5.
(2) شذرات الذهب 3/36، مراة الجنان 129/3.
(3) طبقات الشافعية الكبرى 183/5.
(4) مراة الجنان 133/3 وما بعدها.
الحرمين، فخر الإسلام، إمام الأئمة على الإطلاق، giov شريفة، المجمع على إمامته شرقاً وغرباً، المقر بفضله السرّة والهدئة، عجمًا وعربًا، من لم ترّا لعيون مثله قبله، ولا ترى بعده، رياح حجر الإمامة، وحُرك ساعد السعادة مهدًه، وأرضعه ثدي العلم والورع، إلى أن ترتعع فيه وتنع، أخذ من العربية وما يتعلق بها أوفر حظ ونصيب، ظاد فيها على كل أديب، ورزق من التموع في العبارة وعلى لها ما لم يعبد من غيره حتى أنَّ ذكر سحنان، وقاف فيها الأقران، وحمل القرآن، أفعّج الفصحاء الله، وجاوز الوصف والحد، وكل من سمع خبره، ورأى أمره، فإذا شاهده، الأمر بأن إليه يزيد كثيرًا على الحبر، وتقي على ما عهد من الأمر، وكان يذكر دروستًا، يقع كل واحد منها في أطراف وأوراق، لا يتلمع في كلمة، ولا يحتاج إلى استدراك عرفة، مرسى فيها كالبرق الماطف، بصوت متمكن كالبَعِد القاصف، ينفّض فيه له المبرزون، ولا يدرك شأنه المتضمن المتعمقون، وما يوجد منه في كتب من الفصيح البالغة كله الفصيحة عَيِّض من فيض ما كان على لسانه، وغرفة من أمواج ما كان يعهد من بيانه إلى آخر كلامه.

وكتب علي بن الحسن الباجِرُزي في "دمعة القصر، كلامًا طويلاً مشتملاً على حال الإمام الحرمين، ومنه: "فتي الفتيان، ومن أنجب به الفتيان، ولم يُخْرَج مثله المغنيين،_edges: النعمان بن ثابت، ومحمد بن إدريس، فالقنه فقه الشافي، والأدب أدب الأصمعي، وحسن بصره بالوعظ للحسن البصري، وكيفما كان فهو إمام كل إمام، والمستعلي بهمته على كل هُمَّام، والفايزة باظفر على إرغام كل ضرغم، إذا تصدر للفقه فالمزني من مزته قطعة، وإذا تكلم فالأشري من قِرَّته شيرة، وإذا خطب القيم الفصحاء بالغ شقاقه الهادرة، وفتم البلاغة بالصمت حقاقه الباقرة... قال عبد الغافر: "وهذا وهو وحى الحق فوق ما ذكره، وأعلى مما وصفه... "

وقال ابن خلكان: "أعلم المتاؤرين في أصحاب الإمام الشافعي على "

(1) طبقات الشافعية الكبرى 174/5 وما بعده.
(2) طبقات الشافعية الكبرى 178/5، تبييین کتب المفجري ص 282.

216
الإطلاق، المجمع على إمامته، المنفق على غزارة مادته، وتفتته في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك... 

1) قال ابن العماد الحنبلي:

"وقد أثني عليه علماء وفته بما يطول شرحه...

و قال الإسناوي: "إمام الأئمة في زمانه، وأعوجبة دهره وأوانه".

و قال طاش كبري زادة: "قرأ الخلاف والأصوليين، وغيرهما، حتى صار أعلم أهل الأرض بالعلوم المذكورة، وأكثرهم تحقيقاً، وسلك طريق البحث والنظر، وسعى في دين الله سعياً يبقى أثره إلى يوم الدين، وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً".

---

1) وفيات الأعيان 2/416.
2) شذرات الذهب 3/260.
3) طبقات الشافعية، الإسناوي 419/1.
4) مفاتح السعادة 2/330.

217
الخاتمة

هذه الخاتمة تشمل نهاية حياة إمام الحرمين، ونهاية هذا الكتاب.

خاتمة إمام الحرمين:

إنها خاتمة كل إنسان في هذا الكون، ونهاية كل مخلوق في هذا الوجود، إنه الموت الذي هو غاية كل إنسان، وهو الحد الأخير للعمل والجنين في الدنيا، والنشاط والكسب في هذه الحياة، وإن الحقيقة المطلقة التي لا يماثل فيها مخلوق، ولا ينكرها مفكر، ولا يرتب فيها أبسط إنسان، إنه البرهان الساطع الذي فهر الله به العباد، وسوى فيه بين الغني والفقير، الكبير والصغير، والعالم والجاهل، ليقف كل إمرأء أمامه ليفكر فيه، ويعتبر بغيره، ويعتبر لما بعده، ويدرك الحق والحقيقة، ويرى البقين الكامل في الحياة والكون والإنسان، فكل من عليها فإن، وبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام (الرحمن/72)، فإذا جاء أجلهم لا يستطيعون ساعة، ولا يستطيعون (الأعراف/34).

والموت في حقيقته وواقعه لا يفرق بين كبير ولا صغير، ولا جليل ولا ح分かり، ولا صحيح ولا مريض، وإن كان الناس يالفون في الحياة وسنتها أن الإنسان يولد صغيرًا ومن ضعف، ثم يكبر ويتعلم ويعلو، ويصل إلى القمة في الصحة والمال والجاه والسلطة، ثم يبدأ بالانحدار رويداً رويداً، مع اختلاف في سرعة الهبوط والنزول إلى أن يصل إلى القاع، ويستقر في الوادي، ويدخل الحفرة والتراب الذي خلق منه.

٢١٩
لكن نهاية صاحبنا إمام الحرمين رحمه الله قد اختلفت قليلًا عن هذه العادة، فقد كان في القمة، وتربيع على الأفق، وجلب الأنظار نحوه، وأيده في التأليف والتصنيف، والخطابة والتدريس، والوعظ والتذكير، والمناظرة والدعوة، ولم يصل إلى الستين من عمره فأتى الحق من ربه، فتنوع روحك الطاهرة الشريفة، ويفاجأ الناس بذلك، وتكسف الشمس في وضح النهار، ويخرف الفجر وهو بدر، ويطغى الغيب الداكن ضياء السماء، ويلقى إمام الحرمين وجهه راضياً مريضاً، وقد أدى الأمانة التي حملها في عهده، وبلغ الرسالة التي ورثها عن آبائه وأجداده إلى رسول الله ﷺ، ونصح الأمة في دينها وكتابها وشريعتها، لكن الأمة فقدته، وشعرت أنه سُلب منها، وهي بأشد الحاجة إليه، وإلى أمثاله.

مرض إمام الحرمين وموعظه:

استمر إمام الحرمين على نشاطه، وتولى مناصبه التي ذكرناها، والقيام بواجباته وأعبائه طوال ثلاثين سنة متواصلة إلى أن أدركه قضاء الله الذي لا بد منه، فمرض بمرض اليرقان، وهو مرض مؤرض، يظهر فيه الخلط الصفراوي على سطح البدن، ويطفو على الجلد، ويقياً ياً في هذا المرض، ثم بريق منه، وعاد إلى التدريس ومجلس التذكير والقيام بأعماله، وحصل السرور للخصاص والعوام، والتلاميذ والعلماء، ولم يمض إلا زمن قصير حتى عاوده المرض، وغلبت عليه الحرارة، وازداد ضعفه، وفرت آهاته فحمل في محفة إلى بَشْتَيْفان، وهي قرية من قرى نيسابور، تمتم باعتذال الهواء، وخففة الماء، وكثرة الرياح، ووفرة الغلال، وزاد الضعف. وبدت عليه مخايل الموت، وجاء الأجل الذي لا راد له، وسلم الروح إلى بارئها هائمة مرضية. بما فيها النفس المطمئنة، ارجمي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي (الفجر/17 - 30) ﷺ، وتوفي إمام الحرمين رحمه الله ليلة الأربعاء، بعد صلاة العشاء، في الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر، من سنة ثمانية وسبعين وأربع مائة للهجرة، وهو ابن تسع وخمسين سنة، ونقل في تلك الليلة إلى نيسابور، فانثر الخبر المؤلم، وقام الصياح من كل
جانب، وجزع الناس جزعاً شديداً لم يعجب مثله، وفي يوم الأربعاء حمل بين الصلاتين إلى ميدان الحسين في المدينة، وصل عليه ابنه أبو القاسم بعد جهد جهيد، وحمل إمام الحرمين إلى داره من شدة الرحمة وقت التفظل (وهو وقت قرب غروب الشمس) ودفن في داره، ثم نقل بعد سهين إلى مقبرة الحسين بنيسابور، ودفن إلى جانب والده، وأكثر الشعراء المراثي وقول الشعر، وما قيل فيه:

قلوب العالمين على المقالي وأيام الورى شبه الليالي
أيّما غصٍّ أهل العلم يومها
وقد مات الإمام أبو المعالي
وفي يوم وفاته أغلقت الأسواق، ولم تفتح الأبواب في البلد، ووضع الناس المناديل عن رؤوسهم وقعدوا للعزاء العام أيامًا، وأظهرت تلاميذه التأثر باللغة، والآذان المفرط، وكانوا قريباً من أربعة أثاث نفر، فكسروا منبهر بالجامع المنيعي، وكسروا محارهم وأقامهم، وكانوا يطوفون في البلد، وينحوون عليه، مبالغين في الصباح والجزع، وأقاموا على ذلك عامًاً كاملًاً.

وهذه الأعمال التي أعقبت وفاته تدل على مقدار محبته في النفس،
وعظمة في القلوب، ووقاره بين الناس، ومكانته في المجتمع، وأثره في التربية والوعظ والخطابة والتدريس، ولكن هذه الأعمال، وإن ذكرتها كتب التاريخ والاريخ، لا يقرّها الإسلام، ولا يقبلها الدين، ولا يرضي عنها إمام الحرمين نفسه، لأنها مخالفات للأخلاق الشرعية، ولا يرضي إلا ما يقره الإسلام ويرضاه، وإن منهج الإسلام واضح في هذا الخصوص، وأن يجب التسلم الكامل لقضاء الله وقدره، وأن يلتزم المسلم حذور الشرع وأحكامه،
وأن يتحلى بالصرح عند الشدائد، وأن يحتسب الأمر عند الله تعالى، وكل

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى 181/5 وما بعدها، العقد الثمين 50/7، وفوات الأعيان 343/2، مفتاح السعادة 6/23، طبقات الشافعية، الاسمي 411/1، روضات الجان 184/6، ص 432، المعتضم 9/20، طبقات الشافعية لابن هدایة ص 22، معجم المؤلفين 128/12، شذرات الذهب 335/13، العصر 128/12، البداية والنهاية 128/12، الكامل لأبو الأثير 143/131، نبیين في نبی نفري ص 285.
مصيبة تهون أمام مصيبة المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ وانتقاله إلى الرفيع الأعلى، والقرآن الكريم يبين الطريق والمنهج بقوله تعالى: { ولَنَبُولَكُم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون } (البقرة/ ۱۵۵).

وإن العزة على فِتْرَةَ الميت ينحصر بثلاثة أيام، إلا للمرأة على زوجها فتُحدُّ أربعة أشهر وعشرة أيام، لحكمة شرعية واجتماعية وإنسانية وعاطفية، ولذا ننتبه إلى بعض البدع الخطرة، والانحرافات الشديدة في مثل هذه المناسبات، وما يقترن بها من عادات جاهلية كثيرة الجيبات والنواح، والقيام بالأذخ والانفاج والمحرمات باسم التصدُّق على روح الميت، وباسم الإسلام، ويشير عليها الباحة وحب الظهور والتفاق، كما يلبسون السواد وغيره آمداً طويلة، وقد تلتزم به بعض النساء - من زوجات وأمهات - وآخوات - طوال الحياة، مع حرمان أنفسهم من طبَّات أُحلَّت لهن، وهذا من المنكرات والعادات الباطلة التي ليست من الإسلام في شيء، وهي بعيد وانحراف يبرأ منه الإسلام، ووزره على أصحابه.

خاتمة الكتاب:

وأختم هذا الكتاب عن حياة الإمام الحرمين الجويني رحمه الله، بكلمة مختصرة قالها تلميذه المؤرخ الأديب أبو الحسن عبد الغفار الفارسي وهي:

"وَوَسْعِيَ أَنْ آتِهَا جَحْدَهُ وَاجْتَهَادُهُ فِي دِينِ اللَّهِ يَدْوَى إِلَى قِيَامِ السَّاعَةْ، وَإِن اسْتَقَطَّ نَسْلِهُ مِنْ جُهَةِ الْذَّكْرِ عَظَّارًا، فَفَنْشَرَ عَلَيْهِ قَمَامُ كِلْ نَسْبٍ وَيِقَنَّهُ عَن كِلْ نَمْبَضِ مِكْتَسِبٍ، وَالْهَـٰلِفُ يُقَدِّمُهُ فِي كِلِّ لَحْظَةِ جَدِيدَةَ تَلْكَ الرُّوْضَةُ الشَّرِيفَةُ عَزْالِيَ رَحْمَتِهِ وَيِزِيدُ فِي أَلْفَافِهِ وَكَرَامَتِهِ بِفَضْلِهِ وَمَتَّهُ إِنَّ وَلِيُّ كَلِّ خِيرٍ (۱)." وصدق عبد الغفار في ظنه وحدسه، وقد مضى حتى الآن حوالي ألف

(۱) انظر: طبقات الشافعية الكبرى/ ۱۸۲/ ۵، تبيين كذب المفترى ص ۲۸۵.

۲۲۲
عام على حياة الإمام الحرميين الجويني، ولا يزال اسمه يتردد على لسان كل مسلم ومتكلم وفقيه وأصولي، وأن مقامه في النفوس والقلوب يسمى على النسب والأولاد بالآلاف المرات، وأن العلم نسب بين أهله، وكل عالم وباحث وطالب يشعر بالقرب من الإمام الحرميين، ويحس بالنسب المتصل به، وأن رسول الله ﷺ بُشِّر العلماء بهذه المكانة الرفيعة في الدنيا، وأنها أجر داهم، وثواب متصل إلى يوم القيامة، فقال عليه الصلاة وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(1)، وهذا علم الإمام الحرميين لم ينقطع، ولا يزال خفأً طوال هذه المدة، وسيبقى كذلك ما دامت هذه الشريعة الغررًا قائمة إلى أن تقوم الساعة، وهذه علومه ينقلها الأجيال جيلاً عن جيل، ويستفيد منها العوام والخوارج، وتردد اسمه في كل كتاب وعلم من علوم الشريعة، وفي هذا العصر، وفي السنوات الأخيرة بالذات ظهرت أمه كتبه إلى الوجود، فطبعت ونشرت وحققت ليستفيد فيها المسلمون وغيرهم، وخاصة كتاب البرهان في أصول الفقه، وغياث الأمم في الفقه السياسي العام وال الإسلامي، والشامل والعقدية النظامية في أصول الدين، ولهنا أمل وظيف أن يظهر كتاب الفقه الذي يمثل موسوعة فقهية كاملة، رحم الله الإمام الحرميين، وأسكنه فضيحة جناته، ورفع درجه في عاليمين.

إن كان لنا من كلمة أخرى تكون لنا ذكرى وعبرة فهي أن حياة الإمام الحرميين تعتبر أنموذجًا كاملًا، ومثالًا أعلى، لحياة المسلم، وأنها غرسة باسقة، وثمرة بائدة من ثمار التربية الإسلامية التي تقوم على منهج القرآن الكريم في التربية وإنحلال الفرد، وتقسيم الذات، وإعداد الإنسان الصالح الذي يعتبر خليفة الله في أرضه.

ويظهر ذلك جليًا واضحًا في البيئة التي احتضنت الإمام، وربة على الورع الكامل، والتقوى الصحيح، والابتعاد عن الشبهة، والدروبي القوي من

---

(1) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، والبخاري في الأدب المفرد عن أبي هريرة رضي الله عنه.

223
والده الشيخ أيوب محمد الجرندي، وفي إعداد الإمام إعداداً إسلامياً كاملاً، وحمله للعلوم الشرعية، وعَبَّر عن مُعْتَهِد الآباء والأجداد، وجدَّه، واجتهاده في العلوم، ثم قِيَامه بالواجبات الدينية، والمسؤوليات الكاملة للعالم العام، والفقه المفتح، والأصولي البارع، والمتكلم الجاد، والمناظر الذي لا يلين، قوي الحجة، مدافعًا عن الصواب، قولًاءً بالحق، آمرةً بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، لا تأخذ له إلهة لائمة، يقول الحق ولو على نفسه، قائماً على العلم والتدريس، من المهد إلى الهد، مع الإفادة والاستفادة، ملتزماً بما يقول، متغيرةً من الناس لِيأخذ بِهِم إلى مرضاة الله تعالى، مواصلًا عمل الليل بالنهاة إلى أن لقي الله تعالى، وهو عنه راضٍ، ليتنقل إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين.

فجزاء الله خير الجزاء، وعِروض المسلمين من أمثاله.

والحمد لله رب العالمين.

الدكتور عمرو خليل
الاستاذ بكلية الشريعة - جامعة دمشق.

٢٢٤
مراجع البحث

1 - إحقاق الحق بإبطال الباطل في كيفيت الخلق، الشيخ محمد زايد الكوثر، الطبعة الأولى - مطبعة الأنوار بدمشق سنة 1360 ه.
2 - الإرشاد إلى قواعده الأدلة في أصول الاعتقاد، الإمام الحرمين الجوليتي، تحقيق الدكتور محمد يوسف موسى، والأستاذ علي عبد المنعم عبد الحميد، طبع مكتبة الجامعية بدمشق - مطبعة السعادة 1379/1960 م.
3 - أصول الفقه الإسلامي، للدكتور محمد الزهيلي، الطبعة الثانية - مطبعة مؤسسة الوحدة بدمشق - عام 1401 ه/1981 م.
4 - الأعلام، للمرحوم خير الدين الزركلي، الطبعة الثالثة - بيروت 1389/1969 م.

5 - الإعلام بمناقب الإسلام، لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري (881 ه)، نشر دار الكتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة - 1387 ه/1967 م.
6 - الإمام أبو الحسن الماوردي، للدكتور محمد سليمان داوود والدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد، نشر مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية - سنة 1978 م.
7 - الأنساب، لأبي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (562 ه)، نشر المستشرق مرجيلوت، طبع الأوقاف بملكية المشهد بتربة سنة 1970 م.
8 - إيضاح المكتون في الليل على كشف الظلون، إسماعيل باشا بن محمد أمين، البغدادي، طبع وكالة المعارف بإستنبول سنة 1364/1945 م.
9 - البداية والنتيجة في التاريخ، للمحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي.
(٧٧٤ هـ)، تصوير عن مطبعة السعادة بحصار سنة ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م.

١٠ - البدء والتاريخ، لمظهر بن عزيم المقدسي، تصوير مكتبة المنتبي ببغداد.

١١ - مؤسسة الخانجي بمصر عن مطبعة باريس سنة ١٨٩٩ م.

١١ - البرهان في أصول الفقه، لأمام الحرمين الجويني، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدبيبة، طبع مطبعة الدوحة، قطر - سنة ١٣٩٩ هـ.

١٢ - تاريخ الإسلام السياسي، للدكتور حسن إبراهيم حسن الطبعة السابعة - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة - ١٩٦٥ م.

١٣ - تاريخ الأمم الإسلامية، للمرحوم الشيخ محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر - الطبعة الثانية - سنة ١٣٨٢ هـ.

١٤ - تأسيس النظر، لأبي زيد عبد الله بن عمر الدبيسي الحنفي (٤٣٠ هـ)، دار الفكر - بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

١٥ - تبيين كنز المشتري، لمؤرخ الشام أبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي (٥٧١ هـ)، مطبعة التوفيق بدمشق - نشر القدسي سنة ١٣٤٧ هـ.

١٦ - تذكرة الحفاظ، للأمام شمس الدين محمد الجهني (٧٤٨ هـ)، تصوير إحياء التراث العربي عن طبعة وزارة المعارف الحكومية بالهند.

١٧ - تراجم الرجال، لأحمد بن عبد الله البنداري، مطبعة شركة التمذيد بمصر سنة ١٣٣٢ هـ، في مقدمة كتاب شرح الأزهر.

١٨ - تقزيم البلدان، لمحمد الدين إسماعيل بن محمد، المعروف بأبي الفدا، صاحب حماد (٧٣٣ هـ)، تصوير مكتبة المنتبي ومكتبة الخانجي عن طبعة باريس سنة ١٨٤٠ م.

١٩ - تهذيب الأسماء واللغات، للأمام أبي زكريا محي الدين النوري (٧٧٣ هـ)، تصوير دار الكتب العلمية بيروت عن الطبعة الفرنسية بمصر.

٢٠ - جمهور الذهباء، لأبي محمد علي بن أحمد بن حمز الأندلسي (٤٦٩ هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، طبع دار المعارف بمصر - ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٢ م.

٢١ - الجويني إمام الحرمين، للدكتورة فؤاد حسن محمود، أعلام العرب، المؤسسة المصرية العامة، سنة ١٩٦٠ م.

٢٢ - الحاكم الجمسي ومنهجه في تفسير القرآن، للدكتور عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة بالقاهرة - الطبعة الأولى - ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

٢٢٦
23 - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، لأدم متر، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة - الطبعة الثالثة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة - 1377 هـ/1957 م.

24 - دمية القصر وعصر أهل العصر، للأديب أبي الحسن علي بن الحسن الباهاسي (۴۲۷ هـ)، المطبعة العلمية بحلب، الطبعة الأولى ۱۳۴۸ هـ/1930 م.

25 - رجال الفكر والدعوة في الإسلام، للشيخ أبي الحسن علي الحسني النقدي، الطبعة الأولى بدمشق ۱۳۷۹ هـ/1960 م.

26 - الرسالة الخالدة، للأستاذ عبد الرحمن عзам، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة ۱۳۸۴ هـ/1964 م.

27 - روضات الجانات، محمد الباقر بن الحاجي أمير زين العابدين الموسي الخوشناري، طبع حجر سنة ۱۳۰۷ هـ.

28 - الشامل في أصول الدين، الإمام الحرمين الجوفي، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، فيصل بدير غون، سهير محمد مختار، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية - سنة 1929 م.

29 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، أبو الفلاح عبد الحفي بن العماد الجملي (۱۰۸۹ هـ)، نشر مكتبة القدسي، القاهرة سنة ۱۳۵۰ هـ.

30 - ضحي الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، الطبعة الأولى - مطبعة الاعتماد بالقاهرة - سنة ۱۳۳۳ هـ/1951 م.

31 - ظهر الإسلام، للأستاذ أحمد أمين، الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة - سنة ۱۹۶۲ م.

32 - طبقات الشافعية، لجمال الدين عبد الرحيم الإسناوي (۷۲۷ هـ). تحقيق عبد الله الجبوري، نشر إحياء التراث الإسلامي - بغداد ١۳۹۰ هـ.

33 - طبقات الشافعية، لأبي بكر بن هديابة الله الحسني، المصنف (۱۰۱۴ هـ)، مطبعة بغداد سنة ۱۳۵۹ هـ مع طبقات الفقهاء للشیرازی.

34 - طبقات الشافعية الكبرى، لنجاح الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (۷۷۱ هـ)، تحقيق الأستاذين عبد الفتاح الحلو، ومحمد الطناحي، طبع عيسى الخليلي بالقاهرة سنة ۱۳۸۳ هـ/1964 م.

35 - العبر في خبر من غير، لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي (۷۴۸ هـ)، تحقيق ۲۷۷
فؤاد سيد، طبع الكويت سنة 1961 م.
36 - العقد الثماني في تاريخ البلد الأمين، للإمام محمد بن أحمد الحسيني العلوي الفاسي (263 هـ)، تحقّق فؤاد سيد - مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.
37 - العقيدة النيابة، الإمام الحريمي الجوناني. تعلق الشيخ محمد زاهد الكروي. نشر مطبعة الأندلس بعمر سنة 1377/1488 م.
38 - علاج الأمم في التباث الأظلم، لإمام الحريمي الجوناني، تحقّق الدكتور فؤاد عبد المنعم والدكتور مصطفى حلمي، طبع دار الدعوة بالإسكندرية سنة 1400 هـ/1980 م.
40 - فهرس الكتب العربية المحفوزة بدار الكتب المصرية، جمعه وتبث أحمد الميمي ومحمد البلاوي الطبعة الأولى، بالطبع مطبعة العثمانية بعمر، سنة 1306 هـ.
41 - فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرة، الفقه الشافعي - وضعه الأستاذ عبد الغني الدقير - مطبعة الرقفي بدمشق - سنة 1383 هـ/1963 م.
42 - فهرس المخطوطات المصورة، تصنيف فؤاد سيد، طبع القاهرة 1954 م.
43 - الكافية في الجلد، الإمام الحريمي الجوناني، تحقّق الدكتورة فوزية حسن محمود، طبع عيسى الباجي الحلبي بالقاهرة - 1399 هـ/1980 م.
44 - الكامل في التاريخ، لمحمد الدين أبي الحسن علي بن محمد، المعروف بابن الأثير، دار صادر، بيروت، سنة 1387 هـ/1966 م.
45 - كشف الخفا، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني (1172 هـ)، مطبعة الفنون بحلب.
46 - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لمصطفى بن عبد الله، الشهر بحاجي خليفة، طبعة إستانبل - سنة 1351 هـ.
47 - لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، الإمام الحريمي الجوناني، تحقّق الدكتورة فوزية حسن محمود، نشر المؤسسة المصرية العامة للتاليف بالقاهرة - سنة 1385 هـ/1966 م.
48 - محاضرات في تاريخ الدولة العباسية، للمرحوم الدكتور يوسف العش. مطبعة رياض بدمشق - سنة 1401 هـ/1981 م.
49 - المختصر في أخبار البشر، لعماد الدين إسحاق بن أبي الفداء، صاحب حماه (٧٣٥ هـ)، الطبعة الأولى المطبعة الحسنية.
50 - مختصر تاريخ العرب، تأليف سيد أمير علي، ترجمة رياض رافث، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة - سنة ١٣٨٨ الم.
5١ - مخطوطات الموصل، الدكتور داوود الجيلي الموصلي، مطبعة الفرات - بغداد - سنة ١٣٤٦ هـ/١٩٢٧ م.
5٢ - مراة الجنان وعمرة البقظان، للإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد الفلاحي اليمني (٧٦٨ هـ). نشر مؤسسة الأعراف للمطبوعات، بيروت - الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م.
5٣ - مراصد الأطلال على أسماء الأمكنة والبقاع، لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد القوي البيروني (٧٠٨ هـ)، تحقيق علي محمد البحاوي - طبع عيسى البابي الحلبي بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م.
5٤ - معجم المؤلفين، للأستاذ عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٨ هـ/١٩٥٨ م.
5٥ - مفتاح السعادة، لأحمد بن مصطفى، الشهير بطاش كري زادة (٩٦٨ هـ)، مطبعة الاستقلال الكبرى بالقاهرة - سنة ١٩٦٨ م.
5٦ - مقدمة ابن خلدون، طبع المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.
5٧ - المتون في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥٨٤ هـ). الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدار آباد. الدكن - الهند - سنة ١٣٥٩ هـ.
5٨ - المنحول من تعلقات الأصول، لجنة الإسلام الشيخ أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (٥٥٠ هـ)، تحقيق الدكتور محمد حسن هيثم - الطبعة الأولى بدار الفكر بدمشق - سنة ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م.
6٠ - النجوم الزاهرة في ملكت مصر والقاهرة، لويس بن تغري بردي الأتباكي (٧٤٨ هـ)، الطبعة الأولى بدار الكتب المصرية بالقاهرة - سنة ١٣٤٩ هـ/١٩٩٣ م.
6١ - نظام الحكم في الشريعة والتاريخ، للأستاذ ظاهر الفاسي، طبع دار النفائس - بيروت ١٣٩٤ هـ/١٩٧٤ م.
6٢ - هدية العارضين، لإسحاق بن أبي الدغدائي، طبع إسطنبول - سنة ١٩٥٣ م.
الMAILAT:

1 - مجلة التراث العربي - دمشق - العدد 11 - 12، عام 1403 هـ/1983 م.
2 - مجلة الثقافة الأسبوعية للآداب والعلوم والفنون، القاهرة، العدد 251، يونيما 1951 م.
3 - مجلة الكتاب الشهرية للآداب والعلوم والفنون، السنة السادسة، الجزء الرابع، المجلد العاشر/1370 هـ.
4 - مجلة كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس 1395 هـ/1975 م.
5 - مجلة المقتبس، بصدرها محمد كرد علي بالقاهرة، المجلد الثالث/ عام 1322 هـ/1908 م.
الفهرس

3 هذا الرجل
5 مقدمة الطبعة الثانية
7 مقدمة الطبعة الأولى
10 تمهد في عصر إمام الحرمین
14 الفصل الأول في سيرة إمام الحرمین
14 اسمه ونسبه
44 ولادته
45 كنيته ولقبه
47 أسرته
50 تربيته
56 تعلمه
67 رحلته وخروجها من نيسابور
72 شيوخه
77 الفصل الثاني في إنتاج إمام الحرمین وآثاره
79 نبت بكتب إمام الحرمین
81 تلاميذه
93 الفصل الثالث إمام الحرمین وعلم الكلام
93 علم الكلام وعلم أصول الدين
97 كتب إمام الحرمین في علم الكلام
113 آراء إمام الحرمین في علم الكلام
121 الفصل الرابع إمام الحرمین والفقه
121 علم الفقه
124 كتب إمام الحرمین في الفقه
129 آراء إمام الحرمین في الفقه
231
<table>
<thead>
<tr>
<th>صفحة</th>
<th>المحتوى</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>131</td>
<td>إمام الحرمين والفقه السياسي</td>
</tr>
<tr>
<td>132</td>
<td>النظريات السياسية في الخلافة</td>
</tr>
<tr>
<td>140</td>
<td>أحكام الإمامة في كتب العقيدة للجويني</td>
</tr>
<tr>
<td>143</td>
<td>غياب الأمام في النيات الظلمة</td>
</tr>
<tr>
<td>161</td>
<td>الفصل الخامس إمام الحرمين وأصول الفقه</td>
</tr>
<tr>
<td>161</td>
<td>تعريف علم أصول الفقه</td>
</tr>
<tr>
<td>166</td>
<td>موضوعات علم أصول الفقه</td>
</tr>
<tr>
<td>167</td>
<td>كتب إمام الحرمين في أصول الفقه</td>
</tr>
<tr>
<td>185</td>
<td>الفصل السادس إمام الحرمين وعلم الخلاف والجدل</td>
</tr>
<tr>
<td>185</td>
<td>تعريف علم الخلاف</td>
</tr>
<tr>
<td>188</td>
<td>كتب إمام الحرمين في علم الخلاف</td>
</tr>
<tr>
<td>194</td>
<td>إمام الحرمين وعلم الجدل</td>
</tr>
<tr>
<td>196</td>
<td>كتب إمام الحرمين في الجدل</td>
</tr>
<tr>
<td>201</td>
<td>الفصل السابع مكانتة إمام الحرمين وشماله</td>
</tr>
<tr>
<td>202</td>
<td>وصفه وحياته</td>
</tr>
<tr>
<td>205</td>
<td>مناصبه</td>
</tr>
<tr>
<td>208</td>
<td>عاداته في حياته الخاصة</td>
</tr>
<tr>
<td>208</td>
<td>زهدته وكرمه - عاداته وتوجهه</td>
</tr>
<tr>
<td>209</td>
<td>رقة قلب وأثره في الوعظ</td>
</tr>
<tr>
<td>210</td>
<td>تواضعه</td>
</tr>
<tr>
<td>211</td>
<td>الاعتراف بفضله</td>
</tr>
<tr>
<td>214</td>
<td>ثناء العلماء عليه</td>
</tr>
<tr>
<td>219</td>
<td>الخاتمة: خاتمة إمام الحرمين</td>
</tr>
<tr>
<td>220</td>
<td>مرضه ووفاته</td>
</tr>
<tr>
<td>222</td>
<td>خاتمة الكتاب</td>
</tr>
<tr>
<td>225</td>
<td>مراجع البحث</td>
</tr>
<tr>
<td>232</td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>
1- وسائل الإثبات في المعاليم المدنية والأحوال الشخصية رسالة دكتوراه.
2- أصول الفقه الإسلامي.
3- أدب القضاء، أبي الندم - تحقيق.
4- طريق تدريس التربية الإسلامية.
5- وظيفة الدين في الحياة، حاجة الناس إليه.
6- شرح الكوكب المنير، النجار الفتوح - تحقيق بالاشتراك.
7- أصول المحاكمات الشرعية والمدنية.
8- القانون المدني المقارن بالفقه الإسلامي - العقود المسمية.
9- التنظيم القضائي في الفقه الإسلامي، وتطبيقه في المملكة العربية السعودية.
10- القاضي البيضاوي.
11- تعريف عام بالعلوم الشرعية.
12- المدخل للعلوم الشرعية.

نطلب جميع كتبنا من:

أ. ت. هـ 1433 - ب. ض. 1636 - هـ 2012 - هـ 2012

石油化工

دار المعرفة